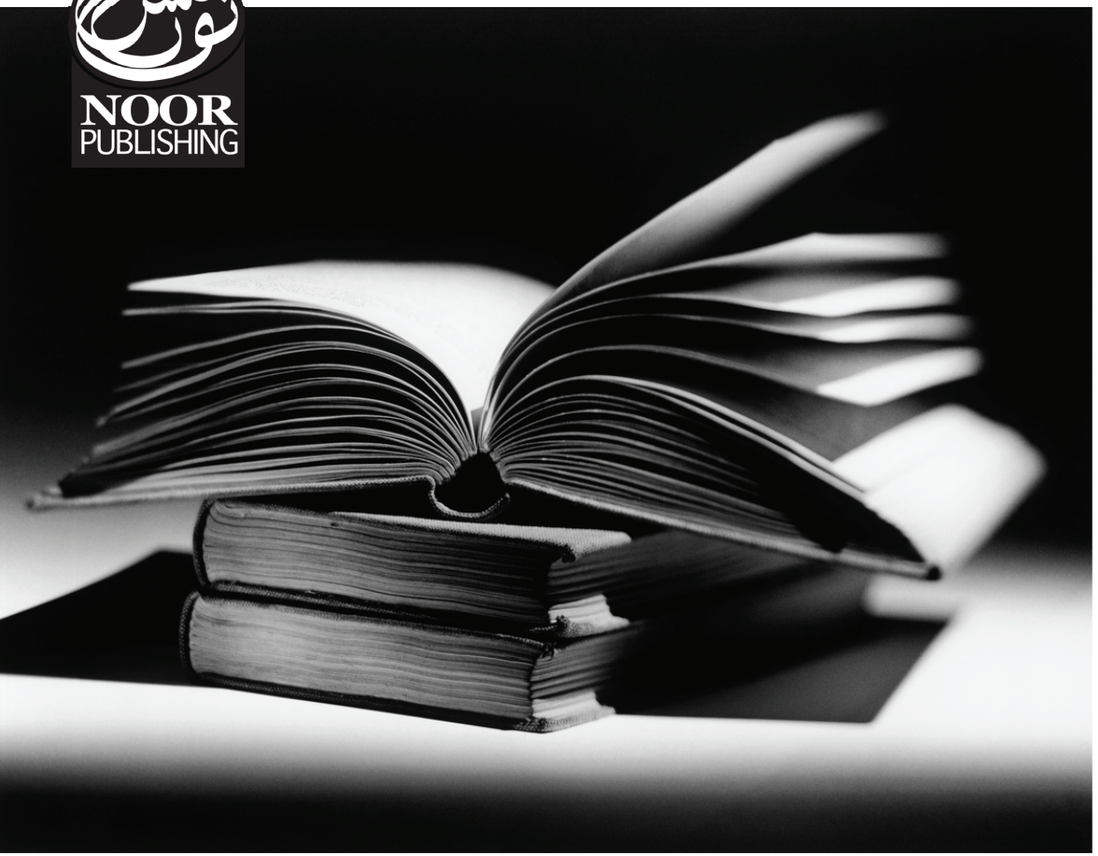

NOOR PUBLISHING

إبراهيم مشارة

أوراق أدبية دراسات في الأدب والنقد

تقدية لنصوص شعرية ونثرية

مقاربة

مشارة

أوراق أدبية دراسات في الأدب والنقد

كتاب نقدي يتناول بالدراسة والتحليل بعض الآثار الأدبية الشامخة القديمة والحديثة والمعاصرة نشرت المقالات منجمة في مجلات عربية محكمة على مدي ثلاث سنوات ، فمن الأدب القديم دراسة لرباعيات الخيام وقصيدة لابن الرومي ومن الحديث دراسة لبعض آثار السياب وخليل مطران والشابي ودراسات عامة عن الرفض في الشعر الحديث والنزعة الإنسانية في الأدب المهجري ودراسة عن شعر العقاد وظاهرة الألم والإبداع ودراسة عن الشاعر فوزي المعلوف وغيرهم.وتجدر الإشارة إلى أن دراسة عن زكي نجيب محمود وإخفاقات النهضة العربية فازت بالجائزة التقديرية عن دار ناجي نعمان ببيروت 2008. وقد تناول مقالات الكتاب بالتقريظ والإعجاب بعض النقاد والكتاب العرب أثبت بعضها في الطبعة الورقية للكتاب في 2007 حين أصدرته وزارة الثقافة الجزائرية في إطار احتفالية الجزائر عاصمة الثقافة العربية، يجد القارئ بين صفحات الكتاب نقد انطباعيا ولكنه لا يهمل الجوانب السياسية والتاريخية والاجتماعية للآثار الأدبية مع بيان مكامن الجودة والإبداع فيها بلغة طيعة لا تعسر على القارئ المتوسط.

ناقد وكاتب وقصصي جزائري من مواليد عام 1967 بزمورة برج بوعريريج حاصل على شهادة الدراسات العليا في الأدب العربي "النقد الأدبي' أصدر مقالاته الأدبية بمجلات عربية محكمة كما له مؤلفات صادرة بالجزائر ومصر نال عدة جوائز أدبية يعمل حاليا إطارا بوزارة التربية الجزائرية.

NOOR PUBLISHING

978-3-330-84133-8

إبراهيم مشارة

أوراق أدبية دراسات في الأدب والنقد

إبراهيم مشارة

أوراق أدبية دراسات في الأدب والنقد

Noor Publishing

Impressum
Bibliografische Information der Deutschen Nationalbibliothek: Die Deutsche Nationalbibliothek verzeichnet diese Publikation in der Deutschen Nationalbibliografie; detaillierte bibliografische Daten sind im Internet über http://dnb.d-nb.de abrufbar.
Alle in diesem Buch genannten Marken und Produktnamen unterliegen warenzeichen-, marken- oder patentrechtlichem Schutz bzw. sind Warenzeichen oder eingetragene Warenzeichen der jeweiligen Inhaber. Die Wiedergabe von Marken, Produktnamen, Gebrauchsnamen, Handelsnamen, Warenbezeichnungen u.s.w. in diesem Werk berechtigt auch ohne besondere Kennzeichnung nicht zu der Annahme, dass solche Namen im Sinne der Warenzeichen- und Markenschutzgesetzgebung als frei zu betrachten wären und daher von jedermann benutzt werden dürften.

البيانات القانونية
معلومات ببليوجرافيـة للمكتبة الوطنية الألمانية : المكتبة الوطنية الألمانية تسـجل هذا
تفاصـيل البيانات:.http://dnb.d-nb.de المنشور في الببليوجرافيـا الوطنيـة الألمـانية
الببليوغرافية موجودة على شبكة الإنترنت تحث الموقع التالي
جميـع العلامـات التجاريـة والمنتجـات المسـتخدمة في هـذا الكتـاب تخضع لقـانون براءة اخـتراع ،وهي علامـات تجاريـة مسـجلة لأصـحابها. اسـتنساخ الأسـماء التجاريـة، أسـماء المنتجات ،أسـماء مشتركـة في هـذا المنشور ،حتى من دون وضع العلامات الخاصـة لا يعني أن هذه الأسـماء هي معفاة من التشريعات التجارية لحماية العلامة ،وبالتالي يمكن استخدامها من طرف أي شخص.

Coverbild / صورة الغلاف
www.ingimage.com

Verlag / دار النشر
Noor Publishing
ist ein Imprint der / is a trademark of
OmniScriptum GmbH & Co. KG
Bahnhofstraße 28, 66111 Saarbrücken, Deutschland / Germany
Email / البريد الإلكتروني
info@omniscriptum.com

Herstellung: siehe letzte Seite /
طبع :انظر أخر صفحة
ISBN / رقم دولي معياري للكتاب:
978-3-330-84133-8

Copyright © إبراهيم مشارة
حقوق التآليف و النشCopyright / t ©
2016 OmniScriptum GmbH & Co. KG

Alle Rechte vorbehalten. /جميع الحقوق محفوظة .
Saarbrücken 2016

إبراهيم مشارة

أوراقٌ أدبية

دراسات في الأدب و النقد

إهداء

إلى شريكة حياتي التي قاسمتني مر الحياة وحلوها

بصبر ووفاء وتضحية وإلى أولادي الذين أحبوا

المعرفة أهدي هذا الكتاب

عنوان محبة وآية تقدير

إبراهيم مشارة

توطئة

فن المقال فن حديث في أدبنا العربي ارتبط ظهوره و تطوره بالصحافة العربية فكلاهما له على صاحبه دالة فظهور الصحف بعد الوقائع المصرية دفع الكتاب إلى التسابق في هذا المضمار وإلى إنتاج وفير ، ووجود الكتاب ووفرة ما يكتبونه أخصب الحركة الصحفية فتعددت الصحف الأدبية والسياسية والعلمية، ونظرة واحدة على قائمة الصحف الصادرة في القرن التاسع عشر في المنجد في اللغة والأعلام لصاحبه الأب لويس معلوف تؤكد صحة ما ذهبنا إليه من رأي

غير أننا لا نسرف على أنفسنا فنقطع صلة المقال بعصورنا الأدبية الزاهرة ، و نرى أنه ابن الصحافة والتواصل مع الغرب بعد رحلة رفاعة رافع الطهطاوي إلى باريس ، وما أدت إليه تلك الرحلة من فتوحات علمية وأدبية فالواقع أن أسلافنا عرفوا شيئا يشبه المقال في نهاية الدولة الأموية وفي العصر العباسي ، و لعل أول من مارس ما يشبه المقال هو عبد الحميد الكاتب، فلقد كانت كتاباته عن الصيد والشطرنج توطئة لفن المقال، غير أن هذا النشاط الأدبي عرف أوجه في العصر العباسي مع ابن المقفع ، والجاحظ،

وأبي حيان التوحيدي ، والرازي، والبيروني وغيرهم ، ذلك أن النثر والمقال تحديدا هو سبيل الكاتب إلى الشرح والإفاضة والاستدلال والحجاج ، وقد كان العصر العباسي خير العصور الأدبية فكرا وأدبا ، عاشت في كنفه عقول عربية كبيرة أنتجت أدبا وعلما أثرت بهما الثقافة الإنسانية ، وقد كان التوحيدي يكتب في شؤون الفكر والجاحظ في شؤون الأدب والنقد والبيروني في مجال الفلك والرازي في مجال الطب و غيرهم .

وما يلاحظ على تلك المحاولات من نقائص أن غياب الصحافة جعل تلك المقالات مشوبة بجملة من النقائص لعل أهمها الإفاضة حد إملال القارئ ثم الخروج عن الموضوع كما هو الشأن عند الجاحظ الذي تعلل لذلك بدفع الملل عن القارئ ، ثم غياب المنهجية الصارمة أحيانا ، وربما التكلف أحيانا أخرى أي مراعاة الشكل أكثر من المضمون

ولكنها تبقى محاولات لتأسيس فن المقال في الأدب العربي، ولا ريب أن كل بداية محكوم عليها بالتعثر والقصور، وأن الرقي والنضج والاستواء إنما يحصل مع كر الأيام وإنتاج القرائح.

وذلك ما حدث مع المقال فقد أحدثت الوقائع المصرية رجة في صفحة سكوننا الراكد أيقظتنا من غفوتنا وأسلمتنا إلى نشاط كبير في حقول الأدب والعلم والدين والفلسفة ، فتسابق الكتاب يدبجون المقالات في صحف ومجلات سيارة مخلصين مقالاتهم من عيوب أسلافهم يحترمون الحجم ويراعون المنهجية ويراعون التخصص كذلك ولا يسمح أحدهم لنفسه بالخروج عن الموضوع ، فكانت مقالات محمد عبده الدينية، وإبراهيم اليازجي اللغوية، ويعقوب صروف العلمية وغيرهم ثم مقالات العقاد وطه حسين ومصطفى صادق الرافعي وهي مقالات أدبية. ثم مقالات زكي نجيب محمود و محمود شلتوت وأحمد زكي وهي مقالات فلسفية و دينية وعلمية .

وقد جرت العادة أن يجمع الأدباء مقالاتهم في مؤلف خاص فالرافعي جمع تلك المقالات في كتاب مشهور هو(وحي القلم)، وأحمد أمين جمعها في (فيض الخاطر)، و أحمد حسن الزيات في (وحي الرسالة) و محمد البشير الإبراهيمي في (عيون البصائر) والدكتور أحمد زكي في كتابه المشهور (في سبيل موسوعة علمية) .

وهذه مقالات كتبها صاحبها في السنتين الأخيرتين و نشرها في مختلف مجلات المشرق والخليج والمهجر الأمريكي ، و الحق أن عهده بكتابة المقالات قديم ، فقد كتب أول مقال أدبي وهو طالب بالجامعة ولم يتم العشرين ونشر ذلك المقال بجريدة الشرق الأوسط اللندنية وكان ذلك المقال سجالا بينه وبين المرحوم حمد الجاسر عن العقاد و طه حسين وتوسعت دائرة النقاش لينظم إليه عبد الله باجبير صاحب عمود قهوة الصباح ، و تلقى كاتب المقال رسالة من مدير التحرير الأستاذ محمد خليفة التونسي يرحب فيها بمقاله ويسأله كتابات أخرى .

و كانت تلك البداية ، أما هذه المقالات فلها قصة فلقد صيف كاتبها في باريس عام 2003 ، وكان الصيف حارا وباريس مدينة تكاد تخلو من أهلها ، فلم يجد صاحب هذه المقالات وسيلة لدفع الملل والإحساس بالوحشة إلا تنظيم وقته بين التردد على معهد العالم العربي والمكتبة الوطنية والمركز الثقافي جورج بومبيدو ومتحف اللوفر في

الآحاد.

على أنه جلس في أحد الأيام على ضفاف السين وكان حينها مشغوفا بلزوميات أبي العلاء يقلب فيها النظر واسترعته ظاهرة هي كثرة المسميات الفلكية في شعره وكان يحفظ من لزومياته الكثير ، فأمسك بالورقة والقلم وكتب أول مقال من هذه المقالات "أبو العلاء فلكيا" و أرسله من باريس إلى مجلة العربي الكويتية فنشرته في أحد أعدادها ، و كتب

مذكرات "حكاية جدي " على قارعة الطريق في الدائرة السابعة من باريس ، و نشره في الجيل اللبنانية ، وتوالت المقالات تباعا ، بعضها دراسات في الشعر الحديث كالرفض في الشعر الحديث ، وزمن السأم ، و نزعة الحرية عند شعراء العراق المحدثين ، وبعضها جمع بين النظر في حياة الأديب وشعره ، كبشارة الخوري "نشرة الفرح وحسرة الزوال" و "ملاك لبنان" الحزين فوزي المعلوف وتأملات في شعر ميخائيل نعيمة ومي زيادة

وصالونها الأدبي وغيرها .

أما النشر فما تعلق بالأدب المهجري فكان ينشره بمجلة المغترب العربي في كندا و صوت العروبة في أمريكا وأما المقالات الأخرى فكان ينشرها بمجلات الخليج والشام ، ثم نشرها جملة في ديوان العرب الإلكترونية لصاحبها عادل سالم ، كما نشر جزءا آخر منها في مجلات أخرى كصهيل و "أنهار الكويتية" و "أقلام ثقافية الفلسطينية " وضفاف الإبداع الجزائرية وغيرها .

وقد رغب صاحبها في أن يستفيد منها جمهور القراء المهتمين وطلاب الجامعة وأساتذتها فرغب في إصدارها مجموعة في كتاب حتى تعم الفائدة وإنه ليأمل أن يكون الكتاب إضافة حقيقية إلى المكتبة العربية وأن يكون هذا الكتاب باكورة إنتاج أدبي يأمل له النجاح والتوفيق .

إبراهيم مشارة

برج بوعريريج /الجزائر يونيو2009

جمانة حداد وأنطولوجيا الشعراء الغائبين [1]

أحببت أن أعلق على هذا الكتاب الهام للشاعرة جمانة حداد لسببين: أهميته وكونه يسلط الضوء على جانب مظلم في الشعر المعاصر خاصة الشعر العربي، حيث تبقى حياة بعض الشعراء طلاسم يصعب على قارئ الشعر فك خيوطها،وفي ثقافتنا العربية ميل كبير إلى التعتيم حتى لقد ألفنا حياة العتمة وتعودنا عليها فأصبحت قيمة من قيم حياتنا الفكرية.

وكتاب جمانة حداد من الكتب التي تضيف رصيدا إلى مكتباتنا فلقد بذلت الكاتبة الشاعرة جهدا مميزا وحسبك أنها أتت على قرن كامل من الشعر في الشرق والغرب تترجم لحياة الشاعر وتثبت نتفا من أشعاره تترجمها من لغتها الأم وهو جهد مضاعفا قمين بكل تقدير.

وهؤلاء الشعراء من القرن العشرين قد اختاروا أن يرحلوا بإرادتهم لأسباب عدة خاضت الكاتبة في تفاصيلها فكشفت الستار عن كثير من الغامض والمبهم واصطنعت عنوان قصيدة لشاعر إيطالي رحل بإرادته كذلك تشيزاري بافيزي 1950/1908 عنوانا للكتاب وعنوان قصيدته :"سيجيء الموت وستكون له عيناك"

وكنت في إحدى مقالتي قد عرجت على هذه الظاهرة وتحديدا في مقالة "بيدي لا بيدك عمرو "ظاهرة الانتحار في أدبنا الحديث" وذكرت في جملة من ذكرت الشاعر أحمد العاصي وصالح الشرنوبي من مصر والشاعر الكبير خليل حاوي من لبنان.

وكنت أود والكاتبة أحصت من الشعراء المنتحرين مئة وخمسين شاعرا- حتى أنها تكاد لم تترك زيادة لمستزيد- أن تذكر الشاعر النابغ صالح الشرنوبي من مصر الذي عاش بين سنتي 1924و1951والذي انتهت حياته تحت عجلات القطار مثل الشاعر التشيكي جوزيف أتيلا وقد خلف الشاعر دواوين عدة "أصداف الشاطئ" و"نسمات وأعاصير" و"وطنيات" و"في موكب الحرمان"و"أشعار ورسوم" و"ظلال وألوان" و"مع الريح" وكان الكاتب والشاعر صالح جودت قد أتى على ذكره في كتابه "بلابل من الشرق"وأثبت نتفا من أشعاره وقد كان صديقا له ومن أشهر أشعاره:

غدا يا خيالي تنتهي ضحكاتنا

---

[1] . ديوان العرب تشرين الاول2011.

وآمالنا تفنى وتفنى المشاعر

وتسلمنا أيدي الحياة إلى البلى

ويحكم فينا الموت والموت قادر

وقد كان العقاد قد أثنى على الشاعر وتنبأ له بمستقبل زاهر في الشعر الحديث وقد مارس الشرنوبي التجديد قبل السياب والملائكة في قصيدته "أطياف":

إذا ما لعاشق المجهول أغرى الشمس باللقيا

وراء الأفق الضاحي

فمنته ومدت، كخيوط الوهم إشعاعاتها

الحمرا

كما منيتني يوما وفي خديك توريد

وسالت من شفاه السحب الترانيم

تهدهد ربة الإشراق إذ أسكرها الحب

لكن لا تعجل الخطوا

وأسكرها نداء الحب فاستقبلت الليلا

وحيته وألقت ثوب نساك معابيد

وغيب خصرها البحر

فكانت في مرائي العين محرابا من التبر

وغنى الليل في الآفاق أنشودة أشواقه

وهوم ذاهل الحسن وفي كفيه مصباحه

وظلل جنحه الدامي نجوما مثل أيامي

توالى السعد والنحس عليها

واصطلت حرب ليال حصدت عمري

وعمر الأنجم الزهر

وماس الضوء

بربك إن صحا الفجر وسار الأفق بالبدر

وغادتك مع الأنسام أطياف الهوى الطهر

فلبى الهاتف المجنون قد ند عن الصدر

وذاب مع النسيم ندى ليوقظ ناعس الزهر

وتيمه شعاع الفجر فانساب مع الفجر

وشاقته معاني الروح راووق أشعاره

فمثل شوقه الملتاع أشباحا وأطيافا

وكنت أود أن تتحدث عن الشاعرة التعيسة ناهد طه عبد البر من مصر1920/1950 كذلك وتعاستها زادت حين لم ينشر ديوانها بعد رحيلها وكانت أوصت بطبعه لكن الحظ السيئ يضاف إلى الحظوظ السوداء الأخرى، وقد ربطتها علاقة بالناقد أنور المعداوي ولها نفس شعري لا يخفى فى سوداوية ظاهرة وقد ثارت على التقاليد التي تكبل الأنثى في الشرق فقالت في قصيدة: وفاء وحنان

إلهي أفي الغرب هذا الوفاءْ؟

أتحظى النساء بهذا الحنانْ؟!

وفي الشّرق يظلمهنّ الرّجالُ

ويقسو عليهنَّ صرف الزمان

أتُظْلَمُ حوّاءُ روحُ الحنانِ

ويُجزَى الوفاءُ بهذا العقوقْ؟!

أتُظلَم بالشّرق مهد الهداةِ

وأرض الشّداة بنيل الحقوق؟!

أرى حكمةَ الله في شرعِهِ

تردُّ الفساد وتَهدي الضلالْ

ففيم التلاعبُ بالدّين ربّي

وباسم الشريعة يطغى الرجال؟!

يريدونهنّ متاعًا لهم

تعدّدنَ مثنى به أو رُباعْ

أهذا هو الشّرع؟ يا ويحهم

لقد صيّروه سبيلَ الخداع

أخذتم من الغرب تلك القشورَ

وحبَّ المظاهر دون اللّبابْ

وأنتم لعمريَ لا تبتغون

سوى الجسمِ مثل جياع الذّئاب

وأنكرتمُ الرّوحَ يا ويحكم

وأين هو الرّفق؟! أين الحنانْ؟

ونبل النفوس؟ وصدق الوفاءِ

وأين النّبيل بهذا الزّمان؟

ويا لهفَ من ضلّلتها المعاني

وحنّت خطاها ابتغاء الكمالْ

فطاح الخيال بعذب الأماني

ولم تدرِ أين تحطّ الرّحالْ

ضننتُ بأحلامها أن تُسامَ

صغارَ الجسوم وثقْل الأثامْ

أتهوي إلى الطّين بعد التّسامي

كما يسقط النّجم فوق الرّغام؟

وهذا النص يلقي الضوء على نفسيتها الغارقة في السواد والانطوائية ويبدو أن مرضها زاد في كآبتها فأنهت حياتها بيديها.

كتاب مهم لجمانة حداد تستحق عليه الثناء وهو كتاب خليق بأن يقرأ ففيه من الأشعار الجزلة المعبرة عن النفس الكثير وكنت أحب أن لا تسقط الكاتبة هذين الشاعرين القديرين من عالمنا العربي خاصة وأنها ذكرت الجميع أحمد عاصي ،منير رمزي، أنطون مشحور، خليل حاوي مصطفى محمد ، تيسير سبول ،عبد الله بوخالفة، فاروق سميرة ، إبراهيم زاير، قاسم جبارة وغيرهم.

طه حسين ورسالة التنوير العربي [1]

[1] . ديوان العرب يوليو 2012.

أيها الأزهري، يا سارق النا

ر ويا كاسرًا حدود الثواني

عد إلينا، فإن عصرك عصر

ذهبي ونحن عصر ثان

ارم نظارتيك ما أنت أعمى

إنما نحن جوقة العميان

سقط الفكر في النفاق السياسي

وصار الأديب كالبهلوان

يتعاطى التبخير، يحترف الرقص

ويدعو بالنصر للسلطان

نزار قباني في رثاء طه حسين

احتلَّ عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين(1973/1889) مركز الصدارة في العالم العربي في القرن العشرين، فقد كان بحق مالئ الدنيا وشاغل الناس. ويرجع ذلك لأسبابٍ عدة، لعل أهمها أنه هتك حُجُب الممنوع، وأشرف على مساحاتٍ في الوعي العربي ظلت من المسلَّمات أو المسكوت عنها تحت هيمنة السلطتين السياسية والدينية، وهما تسوّغان ما يحفظ مصالحهما البحتة،إضافة إلى قدرةٍ لا حدود لها على المواجهة والمناورة بأسلوب ساحر مشوق يجمع بين عمق الفكرة ونصاعة البيان وقدرة على حشد الأشياع والمريدين.

لقد كان العميد سليلاً شرعيًّا للشيخ رفاعة رافع الطهطاوي(1873/1801) الشيخ الأزهري الآخر الذي بثّ بتعبير الدكتور لويس عوض(1990/1914)أقوى لغم من ألغام الديمقراطية الليبرالية في مصر أولًا وفي العالم العربي ثانيًا فقد كانت مصر السبّاقة إلى كل جديد.

ولا شك أن الدكتور طه حسين قد وجد المناخ مهيأً لاحتضان الفكر الجديد، فكر التنوير والحداثة، التي تعني فَتْح المجال أمام العقل الإنساني للمغامرة والبحث والاكتشاف بحرية، وغنيٌّ عن البيان أن الحداثة في صميمها إنسانية المنطلق والمنتهى.

وما كان أشد حاجة العالم العربي إلى ثورة فكرية وإعصار شامل يجتث جذور التقليد! ويُحسَب لمحمد علي باشا(1849/1769) والي مصر طموحه النهضوي وإدراكه أن الاحتكاك بأوربا والأخذ عنها عن طريق البعثات العلمية التي تدرس العلم والأدب وتترجم روائع الفكر وتنقل فنون التمدن سوف يجعل ذلك من مصر بلدًا متطورًا يسير في طريق التقدم، ويبشِّر بميلاد جيل جديد لا يتنكّر للماضي ولا يسرف في تمجيده، ولا يغضُّ الطرف عن إنجازات الحاضر في مضمار الثقافة والعلوم والتمدن في الغرب. وقد كان من رواد ذلك الجيل الشيخ حسن العطار(1834/1766) شيخ الطهطاوي الذي اقترحه إمامًا للبعثة التي أرسلها محمد علي للدراسة في فرنسا، ثم علي مبارك(1893/1823) صاحب الخطط التوفيقية الذي أعاد تنظيم القاهرة الحديثة فشق ميادينها وشوارعها الفسيحة تمامًا كما فعل البارون هوسمان في تنظيم وتنسيق باريس الحديثة، وخير الدين التونسي (1890/1810) وغيرهم...

ثم إنه من الخطأ الفادح اعتبار الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798 شرًّا مستطيرًا، حقًّا لقد كان نابليون بونابرت يهدف فيما يهدف إليه زيادةً على الأمجاد العسكرية إلى وضع اليد على التراث المصري، وفي صميم ذلك الحضارة الفرعونية المغلفة بحُجُب الأسرار وما يمكن أن تضيفه كنوزها إلى متاحف فرنسا ودور العلم فيها، ويمكن الآن أن نفهم الدور الذي لعبه العالم شامبليون(1832/1790)حين فكّ رموز اللغة المصرية القديمة ومكّن الإنسانية جمعاء من قراءة وفهم الحضارة المصرية القديمة.

لقد كشفت هذه الحملة للعالم العربي عمق الهوة الفاصلة بين الشرق والغرب، الشرق النائم والخانع، المسلوب الإرادة والمقلِّد، المغمض عينيه عن عجائب الطبيعة المكنونة، والحارم خلاياه من التجدد في رحاب الطبيعة والزمان. الشرق الذي أعطى عمره الفاني للميتافيزيقا والذي اختزل العلم في الجانب الفقهي البحت حتى انتهت إليه القدرة في استنسال الكلام من الكلام في شكل متونٍ وحواشٍ وتعليقات، وقد كانت حلقة الأزهريين في ذلك الوقت تتساءل عن اسم نابليون أهو معرب أم مبني؟

وشجعه الاستبداد السياسي والانصراف عن الطبيعة – الفانية – إلى الولوع بالتصوف كصيغة نهائية لتطليق الزمان والمكان، عوض الاندغام فيهما، وفي الجهة المقابلة يتطاول المارد الغربي–عاصب الغيم على المفرق– في صحة وشباب وقد نفض غبار القرون الوسطى عن عينيه مقتحما السماوات والأرضين باحثًا ومنقِّبًا ومروِّضًا عنفوان الطبيعة، محقِّقًا الصيغة الإنسانية للحضارة بعد أن عاش أحقابًا طويلة في سراديب النص المقدس التي نفاه إليها رجال الإكليروس.

ولقد سجل الشيخ عبد الرحمن الجبرتي(1822/1754) راوية النهضة والشاهد على وقائع الحملة الفرنسية عن جرأة العادات الاجتماعية الغربية والنساء الفرنسيات الساخرات المنطلقات في الشوارع وتحدث عن المسرح والمطابع والتجارب الكيميائية العجيبة.

وهاهو العميد يسجل بقلمه السلس وأسلوبه الرائع مظاهر الجمود والتخلف في رائعته (الأيام) والتي تكتسي أهمية عظمى في توثيق الحياة الاجتماعية والسياسية لمصر في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وإذا كان الطهطاوي قد سجل مشاهدات وانطباعات شرقي يعيش في باريس في الثلث الأول من القرن التاسع عشر في (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)، سوف يصبح ذلك الكتاب ضياء تنبلج به الأصباح وجسرًا للتواصل الحميم بين الشرق والغرب،تماما كما سوف تصبح سيرة طه حسين الذاتية جزءها الثاني.

لا مرية أن عميد الأدب العربي مدين في مشواره العلمي لمبادرة محمد علي باشا ولبعثاته العلمية التي أثمرت في النهاية الجامعة المصرية الحديثة يعلم فيها المستشرقون ولفيف من أبناء مصر الذين تعلموا في أوربا تعليما حديثا كأحمد لطفي السيد مترجم فن الشعر لأرسطو إلى اللغة العربية والذي اكتشف مواهب طه حسين وطموحه فيسّر له بعد ذلك السفر إلى فرنسا للاستزادة من العلم وتوجت تلك الجهود بشهادة الدكتوراه عن الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون.

إن قارئ الأيام لا شك تأخذه تلك الأجواء الحزينة والتي برع الكاتب في رسم أجوائها الحزينة في قريته عزبة الكيلو في إقليم المنيا في صعيد مصر وهي أجواء كانت تميز كل الأقاليم العربية، فالأسرة كثيرة العدد والفقر مدقع والدخل محدود والمرأة ملفوفة في وشاح الجهالة صامتة كأنها جلمود صخر وقد نظر لصمتها بمراسيم فقهية وأفظع من ذلك الحلاق الذي يمتهن التطبيب فيذهب بنور العينين إلى الأبد.

ولعل المنطلق في التغيير هو التعليم ولعل الداء في التعليم أيضًا. إن التعليم غير الصحيح، غير المنسجم مع الواقع وتغيراته والذي يكتفي من الإرث الإنساني ومن الكون برمته بالمتون حفظًا واستظهارًا وبالشروح والحواشي والتعليقات دراسة سينتهي بصاحبه إلى شل قدراته العقلية وإبادة كل مظاهر الحيوية والديناميكية في خلاياه لينتهي جثة محنطة تدّعي الحياة وما هي بحية.

ولا عجب أن يجد الشاب الأزهري طه حسين مللًا وفتورًا وهو يتردد على حلقات الشيوخ الأزهريين وسينتهي به المطاف إلى التمرد ثم الثورة على العلم الأزهري والحملة الشعواء عليه في عبارته الشهيرة "لا بد من هدم قرطاجنة"

لقد تنسّم الفتى نسائم جديدة في الجامعة المصرية، وسمع بآداب ما أتيح له أن يسمع بها من قبل، وبعلوم لا يعرفها الأزهريون قط، وكلها توسّع الأفق وتهذّب الذوق وتفتح العقل على ثمار الحضارة، وسوف ينقل جرثومة النماء إلى الجامعة معلمًا أدبًا ليس كما عرفه السلف على أنه الأخذ من كل شيء بطرف، وأن أصوله بيان الجاحظ وأمالي القالي وأدب ابن قتيبة وخزانة البغدادي، ولكن من حيث كونه إنتاجًا عاكسًا للتاريخ في صيرورته وللبيئة ومعطياتها المتغيرة ملقيًا على مسامع الطلبة أسماء جديدة كتين وبوالو وغيرهما.

وإذا كان الشك طريقًا إلى اليقين فما أحوجنا– نحن العرب–إلى هذا المبدأ، إن إعجاب طه حسين بأبي العلاء ليس لاشتراكهما في آفة واحدة؛ ولكن لأن أبا العلاء عبّر في لزومياته عن مبدأ الشك هذا قبل ديكارت وأمعن فكره الثاقب في الثابت والمتحول وفي عالم الغيب وعالم الشهادة:

في اللاذقية قتنه

مابين أحمد والمسيح

هذا بناقوس يدق

ق ، وذا بمئذنة يصيح

كل يعزز دينه

ليت شعري ما الصحيح؟

وهو يؤكد على حقيقة الشك الذي هو طريق إلى اليقين حين يقول:

أثبت لي خالقًا حكيمًا

ولست من معشر نفاة

ونحن في مسيس الحاجة إلى أن نشك في تراثنا الشعري القديم في غياب التدوين وانتشار الأمية في ذلك الوقت وظهور التنافس السياسي والمطامع الشخصية في الأحزاب السياسية التي دفعت إلى التقول على الشعراء ما لم يقولوه دفعًا لضرر أو جلبًا لمصلحة وحتى الحديث النبوي لم يسلم من ذلك فما أكثر ما تقول الناس على الرسول الكريم ما لم يقله!

ثم إن التسليم بأن ذلك التراث الشعري صحيح برمته ضرب من الخبل ومجافاة لحقائق التاريخ ومنطق العلم، ومن المغالاة في الخطأ تقديس ما تناول بالشرح النص المقدس، إذ إنه جهد بشري في فهم النص يحتمل الخطأ أو جزءًا منه أويحتمل الصواب أو نصيبًا منه.

لقد سبّب ذلك تخلف العالم العربي فالجوهر الذي يحتل حيزًا ضيقًا حين تمظهر في الفهم والممارسة صار بلا حدود وما المظهر إلا الفهم والممارسة لكنهما اكتسيا طابع المعيارية والإطلاق والسرمدية وبذلك انتفت مبادئ الاختلاف والتعددية والنسبية وقضية المرأة أحد التجليات لهذه المعضلة التي قصمت ظهور الأوائل والأواخر.

لقد كان طه حسين مدركًا لنشر كتاب عن الشعر الجاهلي في ظل وجود سلطة دينية وصية على النص لها شرعيتها التاريخية في اللاوعي الجمعي المقهور والذي يعني رهابًا وفصامًا وهي يمكنها بجرة قلم تكفير رأي أو إهدار دم، ولكن لا مفر من نشر الوعي وبذر بذور الفكر العلمي، واحتمال الأذى بصبر وأناة، ولقد كانت تجربة مريرة أن يُعزَل الكاتب من منصبه، ويحاصَر في بيته، ويعيَّر بعاهته؛ ونظرًا لقوة التحالف القائم بين السلطتين السياسية والدينية وإدراكهما للخطر المحدق بهما نتيجة بذر بذور التجديد والتغيير والاختلاف والشك الذي هو طريق إلى اليقين اضطر الكاتب إلى حذف فقرات أسخطت الساخطين عليه وهيجت المتظاهرين ولكن لا تراجع عن الكتاب وعن مبدأ الشك.

وكأن الكاتب يقدّم مثلًا للمناورة حين يقول الكاتب لا وهو يريد نعم، وحين يتظاهر بالعدول عن موقفه –لا جبنًا– ولكن حفاظًا على الحياة لمزيد من العطاء والمقارعة، ولقد اضطر جاليليو إلى التظاهر بالعدول عن فكرته في القول بدوران الأرض أمام محكمة التفتيش حفاظًا على حياته وعلى استمرار البحث، وأوصى كوبرنيكوس بنشر كتابه عن الهليوسنترزم(مركزية الشمس) بعد وفاته، أما جيوردانو برونو فالحرن على أفكاره قاده إلى الموت حرقًا، وهو نفس الخطأ الذي ارتكبه سقراط لما جاءه تلاميذه يعرضون عليه الهرب فأبى مكتفيًا بالقول أن القانون الذي حماه بالأمس مواطنًا يحمه هو اليوم مذنبًا.

ترى لو لم يفعل ذلك طه حسين أكان علي عبد الرازق يجرؤ على نشر (الإسلام وأصول الحكم)، وزكي نجيب محمود (المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري)، وحسين أحمد أمين (دليل المسلم الحزين)؟ وصولًا إلى محمد أركون الطيب تيزيني وعبد الله العروي وبرهان غليون وغيرهم.

وحين تولى طه حسين وزارة التعليم أعطى المثل حين يمارس المثقف قناعاته ونضاله الفكري والتنويري، فقد دافع عن مجانية التعليم مطلقًا عبارته الشهيرة "التعليم كالماء والهواء"، أي: مجاني، مما جعل خصومه– وما أكثرهم – يطلقون عليه لقب "وزير الماء والهواء"!

ولقد خاض الكاتب الكبير معارك ضارية مدافعًا عن رسالة التجديد ومبدأ "الأدب للحياة"، واكتست تلك المواجهات على صفحات الجرائد السيارة طابع الشراسة — حد الألفاظ النابية– خاصةً مع الرافعي– شيخ المحافظين– حتى أن الرافعي تهكم من طه وكتابه عن الشعر الجاهلي في مقولته الشهيرة: "إسفنجة جاءت لشرب البحر، وشمعة تتصدى لشمس الظهر، وطه في نقد الشعر"، فرد عليه طه حسين بقوله أن الرافعي حين يشرع في الكتابة يقاسي آلام الوضع، إشارة إلى التكلف.

ولا تكتمل رسالة التنوير إلا بمد جسور مع الفكر العالمي في صيغتيه التاريخية والحديثة عبر تعريب روائع الفكر الإنساني، ولقد كان المفكر الكبير مدركًا لقيمة الفكر والأدب اليونانيين فعرف القارئ العربي بهما في نظام الأثينيين ومسرحيات سوفوكليس، وأما الحديثة فترجمات لمسرحيات فرنسية ذائعة. فلا مستقبل لأمة تغمض عينيها عن ثمرات الفكر والأدب وسوف يعود إلى تأكيد هذا المبدأ في (مستقبل الثقافة في مصر): هو أن نأخذ من الحضارة خيرها وشرها حلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب"، وسوف يؤكد على بعدين أساسيين في نهضة

مصر الحديثة: أولهما البعد الفرعوني، وثانيهما المتوسطي، فمصر تشرف على البحر الأبيض وتربطها بأوربا وشائج من القرابة التجارية والفكرية والجغرافية، أوَ لم يتجسد هذا التقارب في عصر البطالسة حين كانت الإسكندرية قطب العالم المتنور المتحضر المبدع؟

لكن طه حسين لم يقبل قط بفك الرابطة مع العالم العربي وهو رئيس مجمع اللغة العربية

وسفير العالم العربي إلى الإنسانية قاطبة، ليس في دعوته غلو كما في دعوة سلامة موسى بالأمس وأحمد رجب اليوم حين يدعو إلى جمهورية مصر الفرعونية مجافيًا منطق التاريخ والجغرافيا معًا، ولا كان متنصلًا من قيم الإسلام وقد كتب روائع لعل أهمها: (على هامش السيرة، ومرآة الإسلام، والفتنة الكبرى، والوعد الحق والشيخان).

ولا يكتمل التنوير الفكري بغير تنوير سياسي ولقد انخرط الكاتب في حزب الأحرار الدستوريين الذي أسسه عدلي يكُن، ويمكن القول أن تأثير فكر الثورة الفرنسية ومبادئ حقوق الإنسان التي سيطرت على عقول منخرطيه، وقد نور الطهطاوي عقول مثقفي ذلك العصر بترجمة القانون الدستوري الذي نشره جيزو وزير التعليم في حكومة الملك لويس فليب، وأهمها الترويج للفلسفة السياسية التي كان يستند إليها، ومن ركائزها: صيانة الحقوق والحريات الفردية، وإقامة نظام نيابي برلماني حر، وصيانة الحرية في الحياة الشخصية والاعتقاد والاختلاف والتعبير عن الرأي بكل الطرق الممكنة، ومن ضمنها حرية الملكية التي لا تقل احترامًا عن حرية التفكير التي تصونها السلطة القضائية والعدل الذي هو أساس العمران والشورى اللازمة للحاكم وتدبير الدولة الحديثة.

وأخيرًا ماذا يبقى من طه حسين للقرن الواحد والعشرين وللمستقبل العربي؟

من المؤسف أن الأمة العربية تسجل تراجعًا في التبشير بفلسفة الأنوار والسعي إلى دولتها والعيش في حماها، وكأن هذا العصر الرقمي زاد من سذاجتنا وغفلتنا فازددنا تعلقًا بالقشور على حساب اللباب وبالرماد على حساب الوهج، وبالأمس على حساب اليوم، وبالحزن على حساب الفرح، وانظر إلى قضية المرأة كأنها لم تبرح مكانها منذ كتابات قاسم أمين، واليوم يطلع علينا من يفتي بأن صوتها عورة ناهيك عن كشف وجهها وخوضها في شؤون الفكر ومعترك السياسة، وانظر إلى قضية الاستبداد تجدها معضلة المعضلات لم تجد نهايتها في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبداد) للكواكبي، واليوم يخف بالحاكم لفيف من أدعياء الفكر يسبحون بحمده بكرة وعشيا فيزيدون من تخلف القطعان

البشرية. وأين العلم الذي بشر به فرح أنطوان وشبلي شميل ويعقوب صروف فما عاد إلا علم الإعجاز القرآني وكلما طلع علينا الغرب بنظرية قلنا لها سوابق في الكتاب الكريم!

إن الواقع العربي المتردي يفرض اليوم تنويرًا جديدًا، بل ثورة فكرية تغير واقعنا وتتجاوز المحاولات التأسيسية للرواد بمن فيهم طه حسين نفسه.

إن هذه الطفرة التنويرية هي من قبل الثورة التي دعا إليها الدكتور حسن حنفي في (قراءة عربية للنهضة الأوربية): أما عصر النهضة العربية فقد آثر قراءة انتقائية للنهضة الأوربية تتفق مع الموروث القديم دون أن تتخلص منه واكتفى بالتلميع للقديم نفضًا للتراب والصدأ عنه، وكان أقصى طموح للإصلاح الملكية المقيدة بالدستور دون تقويض جذري للنظم الثيوقراطية والإقطاعية والملكية، بالرغم من ثورات العرب الحديثة وكتاباتهم في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ظل الإيمان بالقديم قائمًا وكل من شك فيه تم تكفيره حتى ولو كان في الشعر العربي وقضية الانتحال أو في الحوامل الزمانية والمكانية واللغوية والإنسانية للوحي في فهم النص الديني استدراكا على أسباب النزول والناسخ والمنسوخ.

فما أحوج أمتنا إلى ثورة ثانية تغسل ما بها من درن وركود وتقليد تحت غطاء العلم وخنوع تحت ستار الطاعة، وعزوف عن الحياة بحجة الزهد في الدار الفانية وجبن عن اقتحام المجاهل حتى الموت حتف الأنف لنشرف على الحياة فنشبع من هوائها ومائها وسمائها ووحلها فقد طال بنا الأمد في مغارات التاريخ وكأننا ما بقي متحجرًا من كائناتها البائدة.

ابن الرومي باكيا [1]

رثاؤه لولده

شاعر فذ من شعراء العصر العباسي لم ينل حقه من الإعجاب والتقدير حتى العصر الحديث حين قيضت له الأقدار عباس محمود العقاد فكتب عنه كتابه المشهور" ابن الرومي حياته من شعره" واقفا على أسرار حياته، غائصا في أدق

[1] . مجلة أقلام ثقافية غزة 2007 .

دقائق سريرته متحمسا لشعره، كاشفا عن مكامن الفن فيه وآيات ،التفرد وللعقاد على ابن الرومي دالة بعد أن أنصفه كما أنصف غيره من الذين اعتقد أن الإجحاف والنكران لحقا بهم .

وإذا كان ابن الرومي غريب الأطوار وأخص خصيصة فيه تشاؤمه وتطيره بالناس إلى الحد الذي كان يلازم فيه بيته أياما إذا تطير بشخص، كما عرف عنه الشره، ولئن كان في حياته قد عانى من إهمال نقاد الشعر له وعدم احتفاء البلاط به فقد آذته هذه المعاملة الماكرة في نفسه وهو الذي كان يقدر مواهبه وعبقريته الشعرية التي بذت العرب في أخص خصيصة فيهم وهي عبقرية البيان لا جرم أنه شعر بالضيم واجتر المرارة ونزف الجرح في أعماقه غير مندمل فانقلب لسانه سوطا يسوم به خصومه سوء المقال تشفيا منهم ومن الزمن الذي غمطه حقه وبخسه ثوابه أوليس هو القائل:

نحن أحياء على الأرض وقد

خسف بنا الدهر ثم خسف

أصبح السافل منا عاليا

وهوى أهل المعالي والشرف

يسفل الناس ويعلو معشر

قارفوا الإقراف من كل طرف

ولعمري لو تأملناهم ماعلوا

ولكن طفوا مثل الجيف

ولقد تحول الهجاء عنده إلى فن عرف به وصار وقفا عليه وهو الهجاء الساخر والكاريكاتوري يبلسم به جراحه ويفكه به خاطره بعد أن يتردى خصمه في دركات النقص والجهالة والبلادة ومن أمثلة ذلك قصيدته المشهورة في هجاء شخص يدعى عمرو من مخلع البسيط التي منها هذا البيت:

وجهك يا عمرو فيه طول

وفي وجوه الكلاب طول

وسخريته من صاحب لحية طويلة ربما آذى شاعرنا فتهكم منه في مثل قوله:

علق الله في عذاريك مخلا

ة ولكنها بغير شعير !

غير أن ابن الرومي كان شاعرا حقا فإذا نفر منه الخلفاء والأمراء وأفردته العامة إفراد البعير الأجرب عاد ذلك على الأدب بالخير العميم ، فقد تنزه شعره عن أن يكون شعر المناسبات وقصائد المديح الرنانة الفارغة المضمون، وهو في وصفه لقالي الزلابية ووصفه لقرص الشمس وقت الأصيل وللأحدب أشعر منه من كبار الشعراء الذين وقفوا مواقف مخزية فرفعوا ممدوحيهم إلى مصاف الآلهة ووقعوا في مبالغات كاذبة واهية لا تمت إلى روح الفن بصلة طمعا في عرض ينالونه ولو أدى ذلك إلى الكذب و البهتان .

بل ترى في شعره فلتات إنسانية ونفسا مرهفة الحس ووجدانا متعاطفا مع مظاهر النقص في بني البشر كقصيدته في وصف " الحمال الأعمى " ذلك الذي مر به فقهاء ورجال دولة وشعراء وأعيان وعامة فلم يلتفت إليه أحد ولا أحس بمعاناته فرد إلا الشاعر الذي قال فيه :

رأيت حمالا مبين العمى

يعثر بالأكم و في الوهد

محتملا ثقلا على رأسه

تضعف عنه قوة الجلد

بين جمالات و أشباهها

من بشر ناموا عن المجد

والبائس المسكين مستسلم

أذل للمكروه من عبد

فالشعر عنده كما ترى للحياة والشاعر هو قلبها لا يراعي إلا الصدق مع نفسه وفي فنه مطرحا عنه التقليد نابذا التكلف واجدا الشعر في قرص الشمس وفي حجر يسقط في بركة ماء وفي وصف مائدة دسمة وفي هجاء إنساني يخفف به الشاعر من غلواء الزمن وتباريح الحياة.

وقد مات للشاعر ولده الأوسط وكان صغير السن فرثاه رثاء إنسانيا حارا تحس فيه بشهقة الروح وسخونة الدمع والعجز أمام جبروت الموت فكان في رثائه كما كان في سائر شعره مبدعا ، أصيل العبقرية مكين الأدوات الفنية .

والعجيب أن الشاعر اختار للقصيدة التي رثى بها ولده وهي من الطويل وقافيتها من المتواتر حرف "الدال" وهو اختيار اتفق عليه كثير من الشعراء الذين رثوا أحبابهم منذ الأدب الجاهلي إلى الأدب الحديث فإحدى قصائد الخنساء الشهيرة في رثاء أخيها صخر دالية :

أعيني جودا و لا تجمدا

ألا تبكيان لصخر الندى ؟ !

وقصيدة حسان بن ثابت الأنصاري في رثاء النبي – عليه السلام – دالية كذلك :

بطيبة رسم للرسول ومعهد

منير وقد تعفو الرسوم وتهمد

أما قصيدة المعري المشهورة في رثاء صديقه "أبي حمزة الفقيه " والتي هي في مضمونها رثاء للإنسانية جمعاء دالية **أيضا:**

غير مجد في ملتي واعتقادي

نوح باك ولا ترنم شاد

ومن الأدب الحديث قصيدة الشاعر محمود سامي البارودي في رثاء زوجته وهي كذلك دالية :

لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي

تقوى على رد الحبيب الغادي

وفقيد شاعرنا هو ولده " محمد" وقد صرح باسمه في قوله:

محمد ما شيء توهم سلوة

لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد

وهو أوسط صبيته لقوله كذلك :

توخى حمام الموت أوسط صبيتي

فلله كيف اختار واسطة العقد !

وهو إن كان الأوسط فهو صغير وما أشد براعة الشاعر في الإشارة إلى ذلك بقوله :

لقد قل بين المهد واللحد مكثه

فلم ينس عهد المهد إذ ضم في اللحد

ولقد مات الولد بنزيف حاد أبدله صفرة بعد حمرة الورد ونحولا وضعف قوى نتيجة لفقد الدماء:

ألح عليه النزف حتى أحاله

إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد

وظل على الأيدي تساقط نفسه

ويذوي كما يذوي القضيب من الرند

ونحتاج إلى طبيب أديب متذوق للشعر ليشخص لنا مرض الولد الذي أودى به، فقد اهتم في العصر الحديث فريق من الباحثين من ذوي الاختصاص وهواية الأدب والتاريخ بدراسة أفذاذ من الماضي بل تشخيص أدوائهم التي أسلمتهم إلى الموت فنابليون بونابرت شخص دواؤه على أنه سرطان المعدة وابن سينا سرطان القولون بل وقرأنا لطبيب أديب يشخص الحمى التي ذكرها المتنبي في قصيدته المشهورة والتي كان من أعراضها أنها لا تنتابه إلا ليلا وتصيبه بقشعريرة لا تدفعها عنه المطارف والحشايا :

وزائرتي كأن بها حياء

فليس تزور إلا في الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا

فعافتها وباتت في عظامي

يضيق الجلد عني وعنها

فتوسعه بأنواع السقام

وقد أصيب امرؤ القيس بمرض جنسي خطير لعله " الزهري" نتيجة شبقيته وعلاقاته الجنسية المتعددة حتى سمي بذي القروح لقوله :

وبدلت قرحا داميا بعد صحة

فيا لك نعمى قد تحول أبؤسا !

و أنت إذا قرأت قصيدة ابن الرومي هذه في رثاء ولده تقع على وصف جاء بتمامه في وصف امرئ القيس لعلته على الرغم من تباين الداء والأعراض والعمر:

فلو أنها نفس تموت سوية

ولكنها نفس تساقط أنفسا

ويقول ابن الرومي في ولده :

فيا لك من نفس تساقط أنفسا

تساقط در من نظام بلا عقد

وأما داء الولد الذي أودى به فلا ترى فيه أثرا لذكر الحمى ولو اصطلحت على بدن الطفل ما أغفل الشاعر ذكرها وعهدنا بالصغار يقعون فرائس لها ولا إشارة لأي إسهال مميت وما أصيب الولد به أصلا ، وما كان شاعر وصاف مستقص لدقائق الأشياء أن يغفل أشياء خطيرة كهذه لو انتابت ولده، إنما هو استمرار النزف والنحول والانحطاط القوى الذي أسلم الولد الرطب العود إلى يد المنون .

وما من إنسان قرأ هذه القصيدة إلا وتعاطف مع مصاب شاعرنا تعاطفا وجدانيا يمحو أثر الزمن الذي قيلت فيه وكأن الولد مات لساعته والشاعر حديث عهد بإبداع هذه القصيدة المؤثرة ، وترى كذلك الوالد حزينا ولكنه الحزن الهادئ ، والنفس الراضية بالقدر لأنه لا مرد لقضاء الله وهو الحزن الممض كذلك والجزع الدائم ولكن بغير عربدة وجموح وما أبدع وصف الشاعر لهول المصاب بمثل قوله :

وما سرني أني بعته بثوابه

ولو أنه التخليد في جنة الخلد

وفي القصيدة بيت ذائع جرى مجرى الحكم وهو قوله :

وأولادنا مثل الجوارح أيها

فقدناه كان الفاجع البين الفقد

ثم يستدل الشاعر على ذلك بتشبيه الأولاد بالحواس وأن حاسة لا تغني عن حاسة

وكأنه يرد ضمنيا على الذين عزوه في ولده وذكروه أن في ولديه الباقيين سلوى

وعزاء له إلا أن الشاعر في تشبيهه الأولاد بالحواس يصر على أن لكل مكانه وموقعه:

لكل مكان لا يسد اختلاله

مكان أخيه من جزوع ولا جلد

هل العين بعد السمع تكفي مكانه

أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي؟

وهناك ظاهرة ملفتة للنظر في شعر الشاعر إضافة إلى دقة التصوير وتلك هي ملكة النفاذ إلى باطن المعنى والظفر بمكنونه فتراه يخرجه لنا وقد استوفى الدقائق فلا نطلب مزيدا وهي تشبه ما نعرفه في النثر تحت اسم " جوامع الكلم" ،، ويجوز لنا أن نسميها ملكة الإيجاز أو جوامع النظم قياسا على جوامع الكلم فهو بعدد محدود من الكلمات أو من الأبيات يقف على مضمون المعنى الذي يريد التعبير عنه ويترك الكلمات توحي

ودلالة تستنسل من دلالة دون أن يكلف نفسه عناء التطويل واقرأ قوله في القصيد ة ذاتها :

على حين شمت الخير من لحاته

وآنست من أفعاله آية الرشد

طواه الردى عني فأمسى مزاره

بعيدا على قرب قريبا على بعد

وهو أبدع وصف للقبر ، أو كما يقول البلاغيون كناية عن موصوف فصاحبه قريب بجسده الذي فارقته الحياة بعيد بالروح التي عرجت إلى العالم الآخر ، ولا تقرأ البيت الذي قبله إلا أوحى إليك بما كان الشاعر يأمله من الولد وما كان يتوسم فيه من خير ومن مستقبل زاهر ولعله توسم فيه أن يكون خليفته في الشاعرية لولا خطفة الموت العاجلة ولم يشأ الشاعر أن يثقل قصيدته هذه بالتطرق إلى قضية المصير وجدوى الحياة ومعنى الوجود ولغز الموت كما فعل المعري في قصيدته المشهورة في رثاء صديقه أبي حمزة الفقيه وقد أتينا بمطلعها لما كنا بصدد الحديث عن اشتراك كثير

من قصائد الرثاء في روي واحد هو حرف " الدال" إنما حزن ابن الرومي حزن ذاتي نقي لا تخالطه شائبة الفلسفة ولا عكر الفكر هو أشبه بالحزن الطفولي في غضاضته وفي إبهامه وغموضه وأصالته التي هي سره فهو إذا البكاء المتجدد والحسرة الباقية ولو أن الزمن سوف يجعل الأحزان أثرا بعد عين :

سأسقيك ماء العينين ما أسعدت به

وإن كانت السقيا من العين لا تجدي

والشاعر تراه عدل عن كلمة " أسعفت به" إلى أسعدت به عن قصد حتى تكون المسرة بالبكاء عنوان ذكرى دائمة ووفاء مستديم ، وعهدنا بالشعراء شرقا وغربا يستجدون العبرات لأن البكاء آية وفاء وتجدد ذكرى ولا ينسى الوالد المفجوع أن ينعى على الزمن جبروته وإعصاره الذي يذرو اللحظات السعيدة هباء فتغدو كسراب مستقبل ومستدبر ألم يقل امرؤ القيس كذلك :

كأني لم أركب جوادا للذة

ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أ سبأ الزق الروي مرة

ولم أقل لخيلي كري كرة بعد إجفال

وأما شاعرنا فيقول عن تلك الحسرة:

كأني ما استمتعت منك بضمة

ولا شمة في ملعب لك أو مهد

وأما أبلغ الأبيات تأثيرا في وجدان القارئ فهي تلك الأبيات التي يتحدث الشاعر فيها عن حسرته إذا رأى ولديه المتبقيين يلعبان لأنهما يذكرانه بمحمد واسطة العقد كما وصفه وقد ذهب فأورث ولده غصة متجددة وكمدا دائما:

أرى أخويك الباقيين كليهما

يكونان لأحزان أورى من الزند

إذا لعبا في ملعب لك لذعا

فؤادي بمثل النار عن غير قصد

فما فيهما سلوة بل حرارة

يهيجانها دوني وأشقى بها وحدي

وفي قوله " عن غير قصد " يكشف الشاعر لمترصديه أحد أسرار عبقريته وهي استقصاء أدق الأشياء مع الاقتصاد في الكلمات حتى يسلم شعره من الحشو وآفة التكرار،فالولدان يلعبان ويمرحهما يثيران الشجن لوالدهما ولا قصد لهما أن يؤذياه أبدا

وبعد أن قال القدر كلمته وسل الموت سيفه مغمدا إياه في قلب الولد مسلما إياه إلى وحشة القبر ، لم يبق للوالد الذي لا حول ولا قوة له إلا تحمل شدائد الكمد وأهوال الجزع متعزيا بولديه المتبقيين وهما أيضا منبع حزن ومصدر جزع لأنهما يذكرانه بالفقيد العزيز. فلا كلمة أجدى إلا الدعاء له بالرحمة واحتسابه عند الله والصبر طريق إلى الجنة :

وأنت و إن أفردت في دار وحشة

فإني في دار الإنس في وحشة الفرد

عليك سلام الله مني تحية

ومن كل غيث صادق البرق والرعد

وبعد :

فلقد عهدنا ابن الرومي شاعرا محبا للحياة ، شغوفا بلذاتها متمسكا بأطايبها وهو لم ينس الثمار حتى وهو يصف النساء في مثل قوله :

أجنت لي الوجد أغصان وكثبان

فيهن نوعان تفاح ورمان

وبين ذينك أعناب مهدلة

سود لهن من الظلماء ألوان

كماعهدناه ساخرا مبتكرا لفن الهجاء الكاريكاتوري ، فالدنيا التي تطاولت على عبقرية الشاعر ولم توفه حقه من الإكبار والتقدير شأنه شأن غيره من الشعراء الذين كانوا دونه عبقرية وملكة شعرية، فهذه الدنيا لا تستحق غير السخرية والقهقهة منها ومن قيمها وأعيانها ومراتبها.

وها نحن في هذه القصيدة نعهد ابن الرومي شاعرا باكيا من الطراز الأول، وصف حسرته أدق وصف بلا صخب أو ضوضاء كما فعلت الخنساء في رثاء صخر ، ولم يشأ أن يضمن قصيدته فلسفة ولا تأملات في الحياة والموت كما شاء- رهين المحبسين- أبو العلاء المعري، فجاءت قصيدته نضاحة بالدلالات الحزينة فضاحة للكمد المعشش في قرارة نفسه كأنه لبد !

ولئن رحل محمد ولم ينعم بالحياة كأخويه اللذين لا نعرف حتى اسميهما فقد عاش قرونا وسوف يعيش أخرى في قصيدة أبيه وحسبه أن يحيا حياة أدبية في ديوانه لا يناله كبر ولا يقوى عليه مرض ولا يمحو ذكره من الوجود زمن!

أبو العلاء المعري فلكيا [1]

أبو العلاء المعري شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء ، وأحد كبار الشعراء العرب وأعمقهم ثقافة وأرسخهم قدما في علوم العربية والمنطق والفلسفة ، وأحد القلائل الذين لهم خبرة بالنفس الإنسانية و تقلباتها. ويزيد إعجابنا بسعة ثقافته إذا تقصينا شيئا من ثقافته الفلكية .

يبهر أبو العلاء المعري من له دراية بالفلك ، ويحار في الدقة التي يصف بها الشاعر المجموعات النجمية ،طلوعها وشروقها الواحدة تلو الأخرى وهو الضرير الذي حرم من متعة النظر إلى السماء !

ولقد أكثر المعري من ذكر النجوم والكواكب، ولا جرم أنه كان يعظم شأنها وهو القائل عن زحل :

زحل أشرف الكواكب دارا

من لقاء الردى على ميعاد

[1] . مجلة العربي الكويتية العدد 548 يوليو2004.

والمعري كغيره من المثقفين في العصر العباسي الأول والثاني الذين اطلعوا ولا ريب على مؤلفات أفلاطون وأرسطو وبطليموس ، والإشارة هنا بقوله "أشرف الكواكب دارا " إلى كون زحل الكوكب الأبعد مدارا حول الأرض لا حول الشمس لأن النظرية البطليموسية وفحواها أن (الأرض مركز الكون) سادت حتى عصر كوبرنيكوس ، ولهذا وقف الإنسان القديم في تعرفه على الكواكب عند زحل لأن الكواكب الأخرى

(أورانوس ونبتون وبلوتو) لا ترى إلا بالمناظير القوية. وقد كان المعري مؤمنا بفناء المادة وانحلال الكون من حيث هو نجوم وكواكب فيقول مباشرة بعد البيت السابق:

ولنار المريخ من حدثان الد

دهر مطف وإن علت في اتقاد

والثريا رهينة بافتراق الشم

ـمل حتى تعد في الأفراد

واللبيب اللبيب من ليس يغتر

ربكون مصيره للفساد

اقتران الكواكب

وفي لزوميات المعري إشارات فلكية تخفى على كثير من المثقفين في عصره و في غيره من العصور . كإشارته إلى اقتران الكواكب ، وهو من الناحية الفلكية اجتماع كوكبين أو أكثر في برج من البروج في أقرب مساحة ممكنة ، وإذا علمنا أن بعض الكواكب لا يتم دورة واحدة حول الشمس إلا خلال عشرات السنين اتضح لنا أن هذا الأمر نادر الحدوث . ومن الاقترانات التي تناولها المعري ما تعلق بكوكبي المشتري وزحل وقد كان القدماء يتفاءلون خيرا بهذا الاقتران ، على العكس من تشاؤمهم من ظهور المذنبات . يقول المعري :

قران المشتري زحلا يرجى

لإيقاظ النواظر من كراها

غير أن المعري يخونه التوفيق في بيت من هذه القصيدة حين يؤكد ثبات مواقع النجوم :

تقضى الناس جيلا بعد جيل

وخلفت النجوم كما تراها

فالذي هو ثابت اليوم أن النجوم في حالة حركة، وأن كثيرا منها سيغير موقعه بعد آلاف السنين، فمجموعة "الدب الأكبر " لن يكون شكلها كما نراها اليوم بل سيتغير نتيجة لحركة نجومها !

وفي قصيدة "عللاني " وهي قصيدة نظمها الشاعر في عهد الشباب حاول فيها أن يحاكي المبصرين في دقة الوصف ، متعاليا على عاهته ، وقد نجح في ذلك إلى حد الإعجاز ، وأدعو القارئ إلى قراءة هذه الأبيات ومراجعة ذاكرته حول أسماء النجوم الواردة في هذه القصيدة ، وعن الفصل الذي تشرق فيه وتغرب إن كان من الملمين بالفلك ، يقول أبو العلاء :

ليلتي هذه عروس من الزن

ج عليها قلائد من جمان

وكأن الهلال يهوى الثريا

فهما للوداع معتنقان

والمؤكد أن الشاعر نظم هذه القصيدة في أواخر الربيع ، لأن برج الثور حيث توجد مجموعة "الثريا" لا يكون بالأفق الغربي إلا في أواخر هذا الفصل حيث تنزله الشمس في شهر مايو فتنحجب عن الأبصار .

فإذا كان الهلال ابن أيام قليلة في أواخر الربيع نزل في برج الثور فيرى بعد مغيب الشمس في هذا البرج ، وقبل هذا البيت يقول المعري :

وكأني ما قلت والبدر طفل

وشباب الظلماء في العنفوان

نجم سهيل

وقد أولع المعري بذكر نجم "سهيل " وهو نجم عملاق أحمر يبعد عن الأرض بحوالي أربعمئة سنة ضوئية وهو جد مهم في الملاحة الفضائية لأنه يستخدم كنقطة مرجعية في توجيه السفن الفضائية في رحلاتها ما بين الكواكب , ويقع هذا النجم في كوكبة (الجؤجؤ) التي تشكل جزءا من المجموعة النجمية العملاقة "السفينة" فماذا يقول الشاعر عن هذا النجم؟:

وسهيل كوجنة الحب في اللو

ن وقلب المحب في الخفقان

ضرجته دما سيوف الأعادي

فبكت رحمة له الشعريان

ولن نخوض في الجمال الأدبي الأخاذ الكائن في هذا الوصف، ولكن ينبغي أن نشير هنا إلى أن هذا النجم لا يرى من العروض الشمالية "كسورية" حيث عاش الشاعر بسبب وجوده تحت خط الأفق وهو في جنوب الكرة السماوية. ولا تتأتى رؤيته إلا من جنوب الأرض (إفريقيا الجنوبية , أستراليا ، أمريكا الجنوبية) . والشاعر قد أراد أن يدلل على سعة ثقافته الفلكية ولو لم يشاهد هذه النجوم !

ويختم المعري قصيدته بالإشارة إلى شروق كوكبة "النسر الواقع " وفيها النجم اللامع" vega" وهي كوكبة تشرق في أواخر الربيع قبل الفجر ثم تتقدم غرب السماء يوما بعد يوم ، وبالتالي تكون محتلة للسمت في فصل الصيف . والعارف بالفلك يحار في دقة المعري في تقصي هذه المجموعات النجمية وهو الضرير . يقول عن هذه المجموعة :

ونضا فجره على نسره الوا

قع سيفا فهم بالطيران

ومن النجوم التي أشار المعري إليها في لزومياته وسائر شعره : الشعرى اليمانية والشعرى الشامية ، فأما الأولى فقد عبدتها العرب القدماء ، وقد فند القرآن الكريم هذه الأباطيل والوثنيات فقال تعالى مخاطبا العرب في سورة النجم : "وأنه هو رب الشعرى" . والشعرى اليمانية نجم يبعد عنا بحوالي ثماني سنوات ضوئية وهو من ألمع النجوم ويستأثر بليلنا طوال ليالي الشتاء ويوجد قريبا من مجموعة الجبار "orion " أو الجوزاء كما أسمتها العرب . وحول هذين النجمين للعرب أسطورة جميلة فحواها أن الشعرى اليمانية هربت مع حبيبها نجم سهيل وعبرت نهر المجرة أي "درب التبان " ولهذا تسمى أيضا بالشعرى العبور ، وظلت أختها الشعرى الشامية تبكي على فراقها دون أن تتمكن من عبور نهر المجرة ولهذا تسمى أيضا بـ"الغميصاء " أي في عينيها تقرح من شدة البكاء ، يقول المعري مخاطبا أحد أخواله المكثرين للسفر:

إذا الشعرى اليمانية استنارت

فجدد للشآمية الودادا

شاعر الفرقدين

وفي قصيدة المعري المشهورة " ألا في سبيل المجد " وهي التي نظمها في عهد الشباب وافتخر فيها بمركزه الأدبي وأخلاقه العالية يذكر نجما هو " السها " وهو نجم خفي في كوكبة الدب الأكبر في الذيل ،كانت العرب

تمتحن به قوة البصر وقالت في المثل :" أريها السها وتريني القمر " وهو مثل يضرب للشخص تريه الأمر الخفي فيضرب عنه صفحا ويتحدث عن الواضح الجلي ! يقول المعري مشيرا إلى هذا النجم :

وقالت السها للشمس أنت خفية

وقال الدجى يا صبح لونك حائل

وهو يشير من خلال ذكر هذا النجم إلى فساد القيم وانقلاب الأوضاع ، إلى درجة أن الحقير الصغير يطاول الشريف الكبير !

وكما ذكر المعري الكواكب وأولع بذكر المريخ و زحل (كيوان) ،

وذكر النجوم البعيدة وفي لزومياته يتردد ذكر الفراقد أو الفرقدين كما في رثائه لأبي حمزة الفقيه ، والفرقدان نجمان نيران في كوكبة الدب الأصغر أشد إضاءة من النجم القطبي الذي يشير إلى القطب الشمالي ، ومن أسمائهما " حارسا القطب " لأنهما يدلان على النجم القطبي لمن لا يعرفه، يقول شاعرنا مشيرا إليهما :

وكم رأت الفراقد والثريا

قبائل ثم أضحت في ثراها

وفي مرثيته لأبي حمزة الفقيه يشير كذلك إليهما :

كم أقاما على زوال نهار

وأنارا لمدلج في سواد

ولم يغفل المعري الإشارة إلى السماكين وهما نجمان عملاقان أحدهما هو " السماك الرامح " في كوكبة " العواء " أو الراعي والآخر هو " السماك الأعزل " في كوكبة " العذراء البروجية " والسماك الرامح ألمع من السماك الأعزل وقد تردد ذكرهما كثيرا في شعر العرب . أما شاعرنا فقد رأى منزلته الأدبية سامية بين السماكين :

ولي منطق لم يرض لي كنه منزلي

على أنني بين السماكين نازل

وهي قصيدة نظمها الشاعر في عهد الشباب وقد آلمه حسد البعض ومحاولتهم النيل من الشاعر، يصر حكيم المعرة على أن منزلته في الجوزاء ، وفي هذه الكوكبة التي ذكرها الشاعر خلط كبير فالعرب قد تطلقها على مجموعة الجبار " orion " بدليل أن أحد نجومها وهو من النجوم المصنفة كألمع النجوم تسميه العرب " إبط الجوزاء " وبهذا الاسم عرفه الفلكيون الغربيون " Bételgeuse "

على أن الجوزاء الحقيقية كوكبة بروجية بين الثور والسرطان تنزلها الشمس بين 22 يونيو و21 يوليو وصارت تقع في السمت في العروض الشمالية بدل كوكبة السرطان بسبب مبادرة الاعتدالين وترنح محور دوران الأرض ، ولا نعلم هل

كان المعري يقصد بالجوزاء برج الجوزاء هذا كما شرحناه ، أم جرى على إلف العرب في إطلاقهم هذا الاسم على الجبار؟ المهم أنه يقول :

أفوق البدر يوضع لي مهـاد

أم الجوزاء تحت يدي وساد؟

أما الشمس نجمنا الذي يبدد سواد الفضاء ووحشة الكون فقد شغل هذا النجم عقل المعري الجبار وتساءل عن زمن مولد الشمس وأدرك أنه قديم:

ومولد هذي الشمس أعياك حده

وخبر لب أنه متقادم

واستأثر الزمن بفكر الشاعر الفيلسوف كما استأثر بعقول الفلاسفة الإغريق وبعقل نيوتن وأينشتين ، وإن كانت نظرية النسبية قد فصلت في نسبية الفضاء والزمن فالمعري يرى أن تيار الزمن ينساب في الكون و يملؤه ولا توجد نقطة في الكون بلا زمن !

هذه لمحة وجيزة عن ثقافة المعري الفلكية ، فدارس شعره يقف على كثير من الإحالات في قصائده ، وهي كثيرة تستغرق مؤلفا مفصلا ، ولا يزعم كاتب هذا المقال أن الشاعر كان فلكيا ، وإن كان عنوان المقال يوحي بشيء من ذلك فالشاعر كان عقلا فذا استوعب ثقافة عصره واطلع على شيء من الثقافة الإغريقية وربما الهندية والفارسية ، ولهذا جاء شعره ممثلا لسعة اطلاعه و حيرته الفلسفية ، كما جاء ممثلا لطهارة نفسه ونقاوة ضميره من رذائل الكذب والنفاق والأنانية وهو القائل:

ولو أني حببت الخلد فردا

لما أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت علي ولا بأرضي

سحائب ليس تنتظم البلادا

حقا إن المعري مفخرة من مفاخر الثقافة العربية وشاعر عظيم من أساطين الشعر و فرسانه الكبار.

أغار على شمسي أو الحنين الى الأوطان في شعر المهجريين [1]

إذا كان لمصر فضل السبق في تجديد أدبنا العربي وبعثه في حلة قشيبة، موفور الصحة، تام العافية، فقد كانت أرض الكنانة منذ عصر الفاطميين قبلة العالم العربي الثقافية والدينية، ففيها وجد أدباء الشام الحرية والمناخ الملائم للإبداع والنشاط الخصب ونذكر على سبيل المثال–لا الحصر– جرجي زيدان ويعقوب صروف ومي زيادة وغيرهم ، ولمطبعة بولاق فضل لا ينكر ومزية لا تجحد في نشر الأدب والثقافة وتعميم نورهما على العالم العربي الخارج لتوه من ظلمات العصور الوسطى، المستفيق من سبات عميق حجب عنه نور العلم وثمرة الفكر وإشعاع الحرية، وكيف يجحد فضل مصر وثلاثة من كبار شعرائها هم الذين أحيوا الشعر العربي؟ ونقصد البارودي وشوقي وحافظ، وثلاثة من كبار كتابها هم الذين بينوا الطريق الصحيح للأدب ووجهوا الناشئة إلى دروب الإبداع حسب المقاييس الفنية؟ ونقصد العقاد وطه حسين وإبراهيم عبد القادر المازني.

[1] . مجلة المغترب العربي كندا 2007.

على أن مصر لم تكن في المضمار فريدة فالشام رديفها وصنوها في التجديد والإحياء ورسم معالم النهضة الأدبية الحديثة ولعل هذا ماعناه شاعر النيل- حافظ إبرهيم- حين قال:

لمصر أم لربوع الشام تنتسب * هنا العلا وهناك المجد والحسب

ركنان للشرق لازالت ربوعهما * قلب الهلال عليهما خافق يجب

خدران للضاد لم تهتك ستورهما * ولا تحول عن مغناهما الأدب

أيرغبان عن الحسنى وبينهما * في رائعات المعالي ذلك النسب؟

فأدباء الشام- سورية ولبنان- لهم في التجديد اليد الطولى وتحديدا أولئك الذين قست عليهم الحياة في وطنهم وشظف عيشهم بعد أن جف الضرع واستعصت سبل الرزق، وتأسن الوضع السياسي بفعل البطش العثماني، فلم يكن أمامهم من باب يطرقونه غير باب الهجرة، ولا من سبيل يلوذون بها غير سبيل الفراق أملا في عيش رغيد وحرية يتعشقونها ومناخ رياحه لواقح وتربته بليلة تستنبت بذور الفكر والأدب.

وإنها لمنة نحمدها للأقدار ورب ضارة نافعة، فقد كانت تلك الهجرة فأل خير وبشرى بأدب حي وفكر صحيح وضمير صاح، ولسنا في حاجة إلى أن نذكر بقول شاعرنا أبي تمام:

وطول مقام المرء بالحي مخلق * لديباجتيه فاغترب تتجدد

فإني رأيت الشمس زيدت محبة * إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

فهذان البيتان من محفوظاتنا المدرسية أتينا على ذكرهما لمجرد التذكير — والذكرى تنفع المؤمنين-.

وإذا ذكر أدب المهجر تبادرت إلى الذهن جماعة الرابطة القلمية في المهجر الشمالي- أمريكا-

والعصبة الأندلسية في المهجر الجنوبي- البرازيل والأرجنتين- وأهل الشام أحفاد الفنيقيين معروفون بارتياد البحار واصطياد الشمس والكمون للقمر تجري المغامرة في عروقهم مجرى الدم أو كما قال شاعر النيل عنهم:

بأرض "كولمب" أبطال غطارفة * أسد جياع إذا ماووثبوا وثبوا

رادوا المناهل في الدنيا ولووجدوا * إلى المجرة ركبا صاعدا صعدوا

أو قيل في الشمس للراجين منتجع * مدوا لها سببا في الجو وانتدبوا

سعوا إلى الكسب محمودا وما فتئت* أم اللغات بذاك السعي تكتسب

ولقد اغتنت أم اللغات بتلك الهجرة الميمونة بالشعر الصافي السلس المنبجس من الوجدان ومن الفكر الحي الصحيح الملقح بالتجارب الغربية حيث الصناعة والعلم والديمقراطية والحرية ودور المرأة الحي الفاعل في المجتمع، وهذا ما نجد صداه في أدب جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وآل المعلوف وجورج صيدح وأمين مشرق وميشال مغربي وعبد المسيح حداد وجورج صوايا وغيرهم ممن يضيق هذا المقال عن حصرهم.

إنما الذي يعنينا في هذا المقال كيف كان الحنين إلى الوطن وإلى الأم وإلى الحبيبة وإلى الشلة وإلى ذكريات العيد، ومرابع زحلة وشواهق صنين ونواعير حماة وخرير بردى سببا في هذا الإبداع الخالد المستل من الوجدان، المكتوب بدم الفؤاد، الممهور بشهقة الروح الفاعلة الخلاقة؟

إن الإنسان حين يهاجر يصاب بالفصام كل حسب استعداداته النفسية وطاقاته الروحية فقد تكونت شخصية المهاجر في وطنه، وتلونت روحه بأطياف الوطن من دين ولغة وعادات وطرائق معيشة بل ومناخ وتضاريس، فجاء فكره انعكاسا لمحيطه، ثم ترك وطنه للأسباب التي ذكرناها آنفا فإذا به فسيلة أو شجرة تزرع في تربة غير تربتها الأولى، إنما عادات جديدة وطرائق حياة مستحدثة وفلسفة في الحياة غير الأولى، والمهاجر مجبر على هضم هذا الموضوع وتقبله لينجح في حياته–المادية على الأقل– ولكنه في الواقع وفي غياهب اللاوعي تكمن عادات ولغة وأسلوب معيشته الأول في الوطن الأم ، هنا تتجلى المعاناة وتتضخم المأساة، وتتشظى الروح فنجد أشلاءها فيما أنتجه أولئك المهاجرون من شعر ونثر هو الدم والدمع بالنسبة لأصحابه وإكسير البهاء والنقاء لأدبنا الذي غفا في كهف السجع والتورية وشعر المناسبات،وأدب الرسائل الإخوانية المتسمة بالرياء المتسربل بالوقار والكذب المتشح بوشاح الوفاء بالعهد . إنها معاناة روحية وجودية وضعت صاحبها بين مطرقة الضرورة وسندان الحبيب الأول(الوطن). على حد قول شاعرنا:

كم من منزل في الأرض يألفه الفتى * وحنينه أبدا لأول منزل

ونحن في هذا المقال راصدون أشتاتا من تلك المعاناة المتجلية في الحنين إلى مرابع الصبا وحضن الأم وسماء الوطن فيما أنتجه أدباء المهجرين- الشمالي والجنوبي- لنرى كيف كان التجديد في الشكل حين ذابت الأصباغ وتلاشت المساحيق وفي المضمون حين قبر الرياء الماكر والتقليد الأعجم، والانصراف عن الحياة وهموم الناس، وتطليق المسؤولية الأخلاقية للأديب في مغالبة الفساد ومصارعة الاستبداد وقهر الرجعية وقهر نزعة الردة إلى عصر المغارة.

إن حب الوطن والحنين إليه والوفاء له هو المطهر من الإثم الذي يشعر به الأديب إن أصاب حظا من النجاح المادي والمكانة المرموقة في مجتمعه الجديد، إنه اللاوعي يتخلص من عقدة الذنب التي تسللت إلى نفس الأديب لرهافة حسه ونبل ضميره وصفاء فكره.

وهاهو زكي قنصل الأديب السوري الذي ولد ببيرود عام 1917م وهاجر إلى الأرجنتين، فهو من جماعة العصبة الأندلسية يحن إلى مرابع الصبا وأماكن اللهو في نضارة الطفولة اقرأ هذا المقطع وتذوق جماله الفني واستشعر شيئا من الأسى وقدر هذا الحنين من الشاعر إلى وطنه:

أيها العائدون للشام هلا * نفحة من شميم أرض النبوه

علم الله كم صبونا إليها * واشتهينا تحت العريشة غفوه

وتحسس ألم الضلوع، وانظر عبرة الشوق تتحدر من المآقي، وقدر ما في هذا القلب من شوق ومن حنين:

ياعائدين إلى الربوع * قلبي تحرق للرجوع

نهنهته فازداد تحنانا * وعربد في الضلوع

ياعائدين إلى الحمى * قلبي به عطش وجوع

بالله هل في المركب * متسع لملهوف ولوع ؟

وحزمت أمتعتي فيا * قلب ارتقب يوم الرجوع!

وهو يحسن وصف أوجاع الغربة وألم البعاد ومكابدة السهاد واسمعه يقول:

ويح الغريب على الأشواك مضجعه * وخبزه من عجين الهم والتعب

يعيش عن ربعه بالجسم مغتربا * وقلبه وهواه غير مغترب

يستقبل الليل لا تغفو هواجسه * ويوقظ الفجر في ليل من الكرب

يعلل النفس بالرجعى ويخدعها * فهل تحقق بالرجعى أمانيه؟

أما نعمة قازان المولود في لبنان عام 1908م والذي استقر في البرازيل وكان من جماعة

العصبة الأندلسية فهو كصاحبه يذكر التحنان ويقاسي وجع الغربة ويتعشق عهد الطفولة ويتمنى لو تطأ قدمه أرض وطنه لبنان:

بلادي أأستطيع نكراها * إذن فاقلعوا الحب من بزرتي ؟

ولبنان أمي به حفنة * سقتك السموات يا حفنتي

وأهلي وما أقول بأهلي * وماذا أقول بمحبوبتي؟

أقول بقاع الدنيا حلوة * وأحلى بقاع الدنيا بقعتي

وكنت مع الله في قريتي * فصرت بلا الله في غربتي

وكنت غنيا مع القلة * فصرت فقيرا مع الكثرة

ولولا الحبيب وعودي الرطيب* رماني اللهيب إلى الشهوة

ولولا الرجاء بعود الرجا * قذفت بنفسي إلى الهوة

وفي شعر هذا الشاعر بعض الركاكة اللغوية والفقر الفني كقوله: وماذا أقول بأهلي، وماذا أقول بمحبوبتي؟.

وفي شعر المهجريين وأدبهم بعض الإسفاف والكثير من ركاكة التعبير والخروج على قواعد اللغة – عن غير علم وبصيرة – وهو ما أخذه عميد الأدب العربي الدكتور –طه حسين– على كبيرهم الذي علمهم السحر إيليا أبي ماضي، ولكن

يشفع لهم أنهم لم يتخرجوا من جامعة ولا ترددوا على حلقات اللغة والأدب، وزد على ذلك حياتهم خارج أوطانهم يتكلمون بغير لغتهم وحسب المرء أن ينتج شيئا من هذا الشعر السلس الراقي ولسانه تعود على الكلام بغير لغته الشعرية.

إنما هي الموهبة والسليقة والكد الشخصي والعصامية والتعلق باللغة العربية والقدرة على قرض الشعر والاسترسال في النثر كانت العوامل الداخلية ، زد عليها هم الغربة ونكدها وحال الشرق وسباته هي التي حدت بهؤلاء إلى البروز في فن القول شعرا ونثرا.

وهاهو الشاعر حسني غراب الحمصي المولود عام 1899م يتحدث عن وطنه أجمل حديث كأنه كلام منتزع من سويداء القلب ومن بؤبؤ العين:

أبعد حمص لنا دمع يراق على * منازل أم بنا من حادثات هلع؟

دار نحن إليها كلما ذكرت * كأنما هي من أكبادنا قطع

وملعب للصبا نأسى لفرقته * كأنه من سواد العين منتزع

وهذا شاعر آخر من فتوح كسروان اللبنانية شكر الله الجر والمقيم بالبرازيل والعضو في العصبة الأندلسية لا يخفي تحنانه ولله ما أحلى ذكره لكلمتي الشيح والعرار وهما موحيتان بخصائص الريف الشامي وبلاد العرب عامة ، اقرأ معي قوله:

ذكر الأرز بعد شط مزاره * أي جرح يسيل من تذكاره ؟

ليس أشهى على القلوب وأندى * من شذا شيحه ونفح عراره

واقرأ معي هذا البيت الذي يذيب القلب ويقطع الكبد تحسرا فلئن يئس الشاعر من الأوبة إلى بلده فرجاؤه الوحيد أن يدفن في أرضه:

إن حرمنا من نعمة العيش فيه * ما حرمنا من مرقد في جواره

أما قصة هجرته وما لاقى في سبيلها من لجاج النفس وشك الضمير وتردد العقل فقد وصفها أبدع وصف نكتفي منها بهذا المقطع:

ركبنا من اليم طودا يقل الـ * عباد فكل إلى رغبته

فيا له من مشهد للوداع * يذيب الحديد على قسوته

فأم تضم إلى قلبها * وحيدا يسير لأمنيته

وأخ يكفكف دمع أخته * وزوج يرفه عن زوجته

فيا ليت شعري أيحظى المهاجر * فيما يرجيه من هجرته

ويا ليت شعري أيلقى المسافر * يوما سبيلا إلى أوبته؟

أم أن الليالي تزري به * فتذرو الفتى الحر في تربته؟

فلا أم تبكي على قبره * ولا أخت تسقي ثرى حفرته؟

وأما نعمة الحاج من غرزوز بلبنان والمقيم بالولايات المتحدة فيزيد على أصحابه السابقين في ذكر الحنين والوفاء للأهل والوطن هم الصحوة والبعث والتجديد في الحياة العربية أدبا وفكرا وأسلوب معاش:

ما نسينا ويشهد الله أنا * نحن بالروح حيث كنا

إن بعدنا وإن قربنا فلبنا * ن سناه يشع فينا ومنا

نحن في الأرض أنجم ونسور * حلت العاليات برجا ووكنا

هذه النهضة الحديثة منكم * قربت منذ نحن بالأمس بنا

قد نفحنا ببوقها وأثرنا * نارها والعيون إذ ذاك وسنى

أيقظتكم من الكرى فهبتم* وأجدتم تجديدها فهي أسنى

وازدهى العمران والعلم والفن * تراه العيون أكمل حسنا

أما شفيق المعلوف شقيق فوزي المعلوف الزحلاوي والمولود عام 1905م والمستقر في البرازيل ففي قصيدته "بين شاطئين" استهلال لموضوع الحنين بالحديث عن الوداع والعبرات وخفق الفؤاد:

ذراع ملاق إثر كف مودع * تلوحان لي كلتاهما خلف مدمعي

مناديل من ودعت يخفقن فوقهم * فلا ترهقيهم يا سفين واقلعي

بعدن فغشاهن معي كأنني * أراهن من خلف الزجاج المصدع

ويزيد في هذه القصيدة وصفه لانبهاره بالعمران في أمريكا وبحضارتها:

خليلي بدت جبارة المدن تزدهي * بأعظم ما ازدانت به الأرض فاخشع

أدارت على الآفاق مشعل عزها * ومدت إلى الشمس كف يوشع

وأعلت بروجا في الغمام رؤوسها * فما تظفر الحدثان منها بمطمع

مدينة جن جود الإنس نحتها * بأزميل جبار وحكمة مبدع

ثم اسمعه يقول صادقا عن التحنان والوفاء:

أطل عليكم والمنى تزحم المنى * بصدري وأنتم ملء قلبي ومسمعي

لئن تسألوا ما في الجنوب فإنني * حملت إليكم قلبه خافقا معي

ويختم ذلك كله بالمهمة الموكلة إلى أصحابه في بعث الأدب العربي وإحياء لغته:

وإن لواء نحن قمنا نهزه * خفوقا على حصن البيان الممنع

لواء ظفرتم أنتم باكتسابه * ونحن ركزناه بأرفع موضع

ولا شك أنه يعني بقوله "ظفرتم أنتم" أدباء مصر وهو ما أشرنا إليه في بداية المقال.

وأما مسعود سماحة المولود في لبنان عام 1882م والمستقر في أمريكا فإن حنينه لوطنه ووفاءه له أنطقه بهذين البيتين وهما دعوة إلى الثورة ومقاومة الاستبداد، اسمعه يخاطب أهل لبنان:

مشت القرون وكل شعب قد مشى * معها وقومك واقفون ونوم

لم ترتفع كف لصفعة غاشم * فيهم ولم ينطق بتهديد فم

وأما رشيد أيوب المعروف بالدرويش والمولود في نفس قرية ميخائيل نعيمة "بسكنتا" بلبنان عام 1872م والذي استقر في الولايات المتحدة ففي قصيدته المسافر يذكر المخاطرة والهجرة والآمال:

دعته الأماني فخلى الربوع * وصار وفي النفس شيء كثير

وفي الصدر بين حنايا الضلوع * لنيل الأماني فؤاد كبير

فحث المطايا وخاض البحار * ومرت ليال وكرت سنون

ولم يرجع

ويعد الشاعر القروي رشيد سليم الخوري المولود ببربارة بلبنان عام 1887م والذي عاش في البرازيل أمتن شعراء الجنوب لغة وأقدرهم على التصرف في القريض وأجودهم في تخير اللفظ الموحي بمرارة الغربة ووحشة الأمل وأمل العودة واقرأ معي هذا المقطع من قصيدة عند الرحيل لترى ذلك حقا:

نصحتك يا نفس لا تطمعي * وقلت حذار فلم تسمعي

فإن كنت تستسهلين الوداع * كما تدعين إذا ودعي!

خرجت أجرك جر الكسيح * تئنين في صدري الموجع

ولما غدونا بنصف الطريق* رجعت وليتك لم ترجعي

كفاك اضطرابا كصدر المحيط * قفي حيث أنت ولا تجزعي

سأقضي بنفسي حقوق العلى * وأرجع فانتظري مرجعي

وما أجمله من إيحاء حين يذكر تركه لروحه في وطنه الأم وحمل جثته إلى المهجر!

ويأتي بعد القروي في متانة اللغة وجودة السبك والتصرف في القول إلياس فرحات من كفرشيما في لبنان والمولود عام 1893م والذي أقام في البرازيل ولعل هذا المقطع هو من أشهر أشعاره تغنى بها المشرق والمغرب عن وحدة العرب:

إنا وإن تكن الشآم ديارنا * فقلوبنا للعرب بالإجمال

نهوى العراق ورافديه وما على * أرض الجزيرة من حصا ورمال

وإذا ذكرت لنا الكنانة خلتنا * نروى بسائغ نيلها السلسال

بنا ومازلنا نشاطر أهلها * مر الأسى وحلاوة الآمال

أما جورج صيدح الدمشقي والذي أقام في الأرجنتين فلله ما أحلى حديثه عن حنينه إلى دمشق ووفائه لها وألم البعاد عنها !:

أنا وليدك يا أماه كم ملكت * ذكراك نفسي وكم ناجاك وجدان!

منذ افترقنا نعيم العيش فارقني * والهم والغم أشكال وألوان

عهد الشباب وعهد الشام إن مضيا* فكل ما أعطت الأيام حرمان

وفي قصيدته "المهاجر" وصف للمعاناة النفسية وتباريح الجوى:

كيف يرتاح وتذكار الحمى * كلما أقعده الجهد أقامه؟

برجه العاجي من يقطنه * إنه يقطن بالروح خيامه

ويبعث المال سلاما للحمى * فالحمى بلا مال يأبى السلامه

قل لمن يحميه في غربته * إن من أعدائه اللد غرامه

أما ما يلاقيه الفذ من ازدراء في وطنه وتقدير في غيره فقد عبر عنه أجمل تعبير:

رب أحجار بها الشرق ازدرى * أصبحت في حائط الغرب دعامه

أما الشاعر المصري الكبير أحمد زكي أبو شادي (1892-1955م) والذي استقر في أمريكا وكان من مؤسسي جماعة أبولو التي جددت في الأدب خاصة الشعر منه وعرفت هذه المدرسة برومنطيقيتها فقد خاطب أمريكا – وطن الحرية- قائلا:

لجأت إليك يا وطنا تغنى * به الأحرار واعتز النشيد

فإنك منبري الحر المرجى * وبدء نهاري بل عمر جديد

وقد كان نزوح أحمد زكي أبي شادي إلى أمريكا هروبا من استشراء الفساد وتعفن الوضع السياسي وانعدام الحرية ولكنه في غربته في العالم الجديد يحن إلى وطنه فاسمعه يقول:

بكى الربيع طروب في مباهجه * وقد بكيت أنا حبي وأوطاني

أنا الغريب وروحي شاركت بدني * هذا العذاب بأشواقي وأحزاني

لي في ثرى مصر دمع نائح ودم * أذيب من مهجتي اللهفى ونيراني

تركته مثل غرس الحب ما ذبلت * أزهاره أو أغاثت روح لهفان

أشمها في اغترابي حين تلذعني * ذكرى الشباب وذكرى عمري الفاني

واسمع معي ميشال مغربي المغترب في ساو باولو يتأسف على عمره الضائع هدرا في بلاد الغربة وينصح شباب العرب بالبقاء في أوطانهم:

وأنا الذي باع الشبيبة خاسرا * بجلاده وجهاده المتوالي

أثر النضال على الجبين ترونه * ما الاغتراب سوى حياة نضال

شطر المهاجر لا تولوا أوجها * كالخاسرين ربوعهم أمثالي

أوطانكم أولى بكم وبسعيكم * وبما ملكتم من كريم خصال

ولأنتمو أولى بطيب هوائها * وجمالها المزري بكل جمال

ويأتي إيليا أبو ماضي المولود بقرية "المحيدثة" بلبنان عام 1889م والذي استقر بأمريكا وكان من الأعضاء المؤسسين للرابطة القلمية في طليعة الشعراء الذين تغنوا بالأوطان ووصفوا الحنين إليها ولوعة البعد عن الخلان، واستذكروا عهد الصبا واقرأ معي هذا المقطع يخاطب لبنان ويناجيه لتقدر ألم الغربة:

وطن النجوم أنا هنا * حدق أتذكر من أنا ؟

أنا ذلك الولد الذي * دنياه كانت هاهنا

أنا من مياهك قطرة * فاضت جداول من سنا

كم عانقت روحي رباك * وصفقت في المنحنى

وما أجمل قوله لوطنه لبنان يعتذر له فيه عن البعد عنه ويتعلل لذلك بركوب الأخطار والطموح إلى المعالي والنزوع إلى الأمجاد:

لبنان لا تعدل بنيك إذا هم * ركبوا إلى العلياء كل سفين

لم يهجروك ملالة لكنهم * خلقوا لصيد اللؤلؤ المكنون

لما ولدتهم نسورا حلقوا * لا يقنعون من العلا بالدون

إذا فقد كانت الغربة وتباريحها مهمازا للقريحة وجناحا للتحليق في سماء الخلق الفني وقد استفاد أدبنا العربي من هذه الغربة فتجدد وجهه وازدان بهاء ورونقا، وأصبح الشعر على يد هذا اللفيف من الشعراء تعبيرا عن الوجدان، ووصفا لخلجات النفس وخفقات الفؤاد، بلغة صافية رقراقة متخلصة من أصباغ التكلف وطلاء التصنع، متعالية على الحذلقة

البيانية والبهلوانية الإنشائية، وفي هذا الأدب كثير من السقطات وسفاسف القول ولكنها لا تلغي أهمية هذا الأدب بل تجعل أدباءه في الطليعة، مع أدباء المشرق الذين تعاونوا يدا بيد ويراعا بيراع وتزاوجت خفقات قلب بقلب، وخلجات نفس بنفس، وطموح روح بروح على إخراج أدبنا من سبات الكهوف ونفض غبار القرون الوسطى عن حروفه حتى يصير كآداب الدنيا، أدب الحياة بما فيها من صخب ونشاط وهم وترح وفرح وما شئت من أطياف الحياة.

الجواهري شاعر الرفض والإباء [1]

مازلت أذكر ذلك الشهر شهر أغسطس من عام 1997 حين نعت إلينا جريدة "الحياة" اللندنية رحيل شاعر العربية الكبير محمد مهدي الجواهري، وهكذا أسدل الستار برحيل الجواهري على آخر عمالقة الشعر الكلاسيكي من طراز بدوي الجبل وبشارة الخوري وعمر أبو ريشة وغيرهم.

كنت حينها بمدينة "جنيف" السويسرية ولم تستطع جنيف ببحيرتها الخلابة ولا بنهر "الرون" وجسوره الأخاذة ولا بجزيرة "روسو" الجميلة أن تبدد الحزن الذي غمر نفسي والأسى الذي سكن روحي وأنا أقرأ الخبر في جريدة الحياة.

عاد الجواهري إلى دمشق ليموت فيها بعد العاصمة التشيكية براغ وغيرها من المنافي، كما عاد البياتي من منافيه في "موسكو" أو" مدريد "وغيرهما ليرقد رقدته الأبدية إلى جوار الشيخ محي الدين بن عربي ، وكأن

" جلق"صارت بالنسبة إلى شعراء العراق جسر العبور إلى العالم الآخر، ينفحهم "بردى" و"الجامع الأموي" بنفحات العروبة ويسمح ما بأنفسهم من ألم الغربة وأوجاع المنافي الأروبية .

وفي أدباء العراق –كتابه وشعرائه– ميزة لا تخطئ العين رصدها وظاهرة لا يختلف بشأنها اثنان ألا وهي ظاهرة الرفض والتمرد وما ينجر عنهما من نفي وتشرد في بلاد الدنيا.

---

[1] . مجلة المنهل المملكة العربية السعودية العدد596 أبريل2005.

فالروائي العراقي غائب طعمة فرمان مات طريدا ودفن شريدا في موسكو، وفي أحد أعداد مجلة العربي الأخيرة حدثنا الدكتور محمد سليمان العسكري عن انتحار أديبة عراقية أجبرت على البقاء في العراق قبل سقوط بغداد وكانت تريد الخروج من العراق إلى بلاد الله فلما استعصى عليها ذلك خرجت هي من الدنيا بقتل نفسها !

والعراق أو أرض السواد كما أسماه أسلافنا حالة فريدة بين بلداننا العربية، فبالرغم من كونه أرض الخصب والنماء وأرض الرافدين، والبلاد التي عرفت أقدم الحضارات وأعرق الشرائع، وما أرض السواد إلا دلالة على كثرة النخيل التي تظلل الأرض والأفق فحيثما امتد بصر الإنسان رأى سوادا وما ذاك إلا فأل خير وبشارة بمن.

ولقد ظل البلد على الرغم من بوادر اليسر وسيمات اليمن أرض الفتن والخصومة والانقلابات، فالإمام علي –كرم الله وجهه– قتل بالكوفة . وفي كربلاء سقط الإمام الحسين شهيدا . وفي العراق نبه ذكر الحجاج بن يوسف

واستشاط أمره وتلطخ بالدماء سيفه،بعد أن دوى بالتهديد لسانه، وسواء أكان العراق ملكيا أم جمهوريا في العصر

الحديث فلقد كان بلدا قائما على الرمضاء ومستقرا على بركان وما تهدأ فتنة حتى تقوم فتنة وإن هدأت فبفوهات البنادق وشفرات المقاصل .

والعراقيون مهما تعددت أطيافهم وتباينت نحلهم يميلون إلى الحرية ويأبون الضيم وتعاف نفوسهم الخسف فيثورون وفي كل ثورة تسيل الدماء وتقطع الرؤوس .

وفي هذا البلد وفي النجف الأشرف ولد محمد مهدي الجواهري عام 1900 في بيت علم ودين وآل الجواهري أسرة عريقة نبغ فيها شعراء وأئمة وعلماء كلام، وفي بيت والده أتم حفظ القرآن وعلى يد مشايخ النجف النابهين أتم علوم اللغة والدين.

غير أنه آنس من نفسه القدرة على قرض الشعر، وتهيأت ملكاته الفطرية لذلك، فجادت قريحته بالشعر منذ عهد الصبا وفي عام 1927 صدر الجزء الأول من ديوانه.

مارس الجواهري التعليم في الكاظمية ، ولكنه تركه ليتفرغ للصحافة فأصدر جريدة " الفرات" عام 1930 ، ثم " الانقلاب" ولما عطلت هاتان الصحيفتان ولاقى الشاعر من الحكومة القهر والعنت عاد إلى التعليم وفي سنة 1935

أصدر الجزء الثاني من ديوانه ، وفي سنة 1947 دخل المجلس النيابي نائبا عن كربلاء ، وقام برحلة إلى فرنسا وبولونيا ، ولا شك أن هذه الرحلة تركت في نفسه أعمق الأثر فلقد قارن بين ما ينعم به الأروبيون من عدل ومساواة وتقدم وحرية وعصر صناعي وبين يقاسيه الشعب العراقي من جور وطبقية ورجعية وعصر حجري ، وفي سنة 1953 أصدر الجزء الثالث من ديوانه ، ولما قامت الثورة وأنهيت الملكية في العراق طمح الشاعر إلى الحرية والديمقراطية والمساواة ، ولم يستطع السكوت فأصدر جريدة " الرأي العام " ليجهر برأيه ويصدع بأفكاره التي تعارضت مع فلسفة الحكم والنظام القائم فاختار المنفى سبع سنوات في براغ بتشيكوسلوفاكيا وعاد بعدها إلى العراق ، ولكنه كان كدأبه ناقما على الجور أبيا للخسف عصيا على الهوان متعطشا إلى الحرية،تواقا إلى العدل ، شغوفا بالمساواة ، طامحا إلى وثبة حضارية ونهضة علمية تدخل بلاده في ركاب الحضارة كغيرها من دول العالم المتمدن، فلاقى من كل الأنظمة الجهامة والتضييق على حريته وهو الشاعر الحر– الذي سجن في العهد الملكي جراء جهره بمعارضته وإبداء مخالفته لفلسفة الحكم القائم إلى أن رحل عن دنيانا نظيف اليد، صادق الوعد، سليم النية، مخلصا لعقيدته في الحياة .

فالجواهري من الشعراء الذين آمنوا برسالة الشعر وأمانة الشاعر التي استودعها عنده الشعب، ألا وهي اتخاذ الكلمة مصباحا يبدد الظلام ، وسيفا في وجه الجور ومنجنيقا يحرق بنيرانه الظلم والظالمين، والشعر كما يصلح لوصف النهود والأرداف، وتباريح الجوى، ونشوة المدام يصلح معلما هاديا ومنارة حق، وسوطا يلهب حماسة الخانعين من أبناء الشعب، وسيفا يقطع رقاب الظالمين من الحاكم وحاشيته .

إنه ما يدعوه جون بول سارتر بالالتزام ، وقد التزم الجواهري — وهو صاحب عقيدة اشتراكية– بقضية وطنه الراسف في أغلال الاستبداد، النائم في مغارة التاريخ الساكت على نهب خيراته وتجفيف ضرعه.

اسمعه يخاطب المستبدين من حكام بلده :

ما تشاؤون فاصنعوا

فرصة لا تضيع

فرصة أن تحكموا

وتحطوا وترفعوا

وتدلوا على الرقاب

وتعطوا وتمنعوا

لكم الرافدان والزاب

ضرع فأضرعوا

ما تشاؤون فاصنعوا

الجماهير هطع

ما الذي يستطيعه

مستضامون جوع؟

فهي صيحة صريحة لا كناية فيها ولا تعمية لغتها مشبعة بالتحدي والرفض ، لغتها شديدة الإيحاء بمعاني الجور والظلم والنهب لخيرات البلد من جهة الحكام ، والخنوع والاستسلام من جهة المحكومين .

والجواهري يتصرف في اللغة تصرف الواثق من نفسه المطمئن إلى ملكاته فلا تعاني لغته الكلال أو الفتور، ونفسه طويل لا يعرف الإرهاق ولاغرو في ذلك فهو قد امتلك زمام اللغة فأسلست له القياد وتشبعت روحه بفلسفة الحداثة ، وتعمقت ثقافته بالوعي التام بمعاني الحرية والعدالة الاجتماعية والديمقراطية ، وزادته قناعته اليسارية ثباتا على الموقف وحرنا على الفكرة فلم يعرف نضاله الكلال أوالاضطراب لكأنه الرصاصة تمشي إلى هدفها بنفس القوة وفي نفس الخط بغير نكوص أو فتور .

وهذا التصرف في اللغة تصرف الواثق من نفسه ، والقدرة على إيصال الفكرة سليمة معافاة ، وحسن اختيار اللفظ الموحي بالمعنى المقصود كل هذه العوامل أشعرت الشاعر بحريته التي زهت بها نفسه فلم يجد ما يدعوه إلى التخلي عن الشعر العمودي واللجوء إلى شعر التفعيلة استزادة من الحرية في القول و الأصالة في المعنى .

والجواهري شاعر من النسق الكرزماتي يشظي نفسه قنابل في وجه الظلم لا يهادن ولا يسالم ، واقرأ له هذا المقطع يصف الخونة من أبناء البلد الذين كانوا خدما للاستعمار وأعوانا له :

ولقد رأى المستعمرون فرائسا

منا وألفوا كلب صيد سائبا

فتعهدوه فراح طوع بنانهم

يبرون أنيابا له ومخالبا

أعرفت مملكة يباح شهيدها

للخائنين الخادمين أجانبا ؟

مستأجرين يخربون ديارهم

ويكافأون على الخراب رواتبا ؟

وكما نعى الشاعر على الحاكم بغيه نعى على الرعية استسلامها

وخنوعها ، فقذفها بألسنة من نار ونخسها بمهماز من فولاذ علها تفيق من غفوتها ، وتقهر خوفها ومسكنتها وهو في ذلك متفق مع قول أبي العلاء:

أعاذل قد ظلمتنا الملو

ك ونحن على ضعفنا أظلم

وذمه للشعب هو الذم البناء لا الهدام إنه الهجاء بغير حقد، الصادر عن حب وغيرة على الشرف والوطن، واقرأ له هذا المقطع يذم خنوع الشعب وهو ذم شديد اللهجة، قاسي النبرات:

أطبق دجى أطبق ضباب

أطبق جهاما يا سحاب

أطبق دمار على حماة

دمارهم، أطبق تباب

أطبق على متبلدين

شكا خمولهم الذباب

لم يعرفوا لون السماء

لفرط ما انحنت الرقاب

ولفرط ما ديست رؤوسهم

كما ديس التراب

أطبق على المعزى

يراد بها على الجوع احتلاب

أطبق على هذي المسوخ

تعاف عيشتها الكلاب

وقد ردد الشاعر كلمة " أطبق" سبع مرات في هذا المقطع القصير وهو فعل يوحي بيأس الشاعر من خمول الشعب وبلادته، والألفاظ شديدة اللهجة دالة على الغضب العارم والثورة الجارفة التي تضطرم في نفس الشاعر.

إن الذي يعرف الجواهري ويعرف ما جبلت عليه نفسه من تعطش للحرية وإلى العدالة وما لاقاه من وجع في المنافي وتضييق الحكام يستطيع أن ينسب إليه شعره فلا يختلط بأشعار غيره ، فقد كان شعره نفثه من روحه الناقمة وشواظا من لهيب نفسه أو كان كما يقال مرآة نفسه عكست ما فيها من إباء وكرامة وشرف وكبرياء .

وهناك ميزة في شعره ظاهرة للعيان مسفرة للقارئ وهي روح السخرية ، وكأنها البلسم الذي يبلسم بها جراحه ، والشهقة التي يجد فيها الراحة والعزاء ، وهو يستخدمها في شعره طريقة من طرق التعبير عن تبلد الجماهير ، ومهمازا يستنهض به العزائم ويستثير به الهمم .

وأكثر ما تتجلى هذه الميزة في قصيدته " تنويمة الجياع " وهي مطولة تنعي إلينا بلادة الشعب وغفلة الرعية ولا أدل على ذلك من تكرار الفعل

" نامي " في القصيدة حوالي أربعا وخمسين مرة في قصيدة عدد أبياتها تسعة وتسعون بيتا، ونكتفي منها بهذه الأبيات حيث تتجلى روح السخرية المرة و التهكم اللاذع:

نامي جياع الشعب نامي

حرستك آلهة الطعام

نامي على زبد الوعود

يداف في عسل الكلام

نامي تصحي ،نعم نوم

المرء في الكرب الجسام

نامي إلى يوم النشور

ويوم يؤذن بالقيام

نامي على نغم البعوض

كأنه سجع الحمام

نامي على البرص المبيض

من سوادك والجذام

نامي فحرز المؤمنين يذب

عنك على الدوام

نامي فنومك فتنة

إيقاظها شر الأثام

إن التيقظ لو علمت

طليعة الموت الزؤام

نامي ! إليك تحيتي وعلي

ك نائمة سلامي !

وهي قصيدة كما أشرنا آنفا طويلة تتجلى فيها مرارة اليأس وروح التهكم وطابع السخرية .

لقد آمن الجواهري أن الشعب مصدر القوة ومنبع الحصانة وجرثومة النماء ، وأدرك أن جبروت الحاكم يستمد بقاءه من جبن الشعب ، ونخبه لخيراته من سكوت الرعية ولامبالاتها واستهتاره من بلادة الناس، فصك الشاعر الآذان بالكلمات القاسية، وزلزل القلوب الواجفة بالمعاني القارصة، وحرك النفوس الغافلة بالتهكم البناء والذم الصادر عن حب وإخلاص أملا في حرية غائبة، وعدالة أعز من الأبلق ، ومساواة موءودة، ونهضة مؤجلة إلى يوم النشور.

الرفض في الشعر الحديث [1]

إذا كان لا بد من كلمة تقال في شعر التفعيلة أو الشعر الحديث كما يحلو للبعض تسميته تكون مفتاحه أو تلخص مساره أو مضمونه فلن تكون تلك الكلمة غير كلمة الرفض ، إنه شعر استهل مشواره الإبداعي بالتمرد على عمود الشعر الكلاسيكي ، ولئن حاول بعض الشعراء المحدثين التجديد في الشعر باطراح التقليد والتكلف اللغوي بانتقاء اللفظ البراق والحرص على الصدق الفني والتأكيد على التجربة الوجدانية شأن الرابطة القلمية وجماعة الديوان وجماعة أبولو، فإن رواد الشعر الحديث رفضوا هذا الموقف مصرين على الثورة حريصين على سلوك مسلك في الشعر فريد من نوعه لا يكتفي من التجديد بما سلف ذكره ، بل يرفض عمود الشعر ويتمرد على القافية لأنها تخنق روح الإبداع وتؤكد تبعية الشاعر للغة فضلا على الإصرار على روح التقليد ورتابة الماضي ، وهكذا فالشعر الحديث استهل رفضه بالثورة على القالب الشعري زاعما أن القالب التقليدي لا ينسجم مع روح العصر ولا يلبي الاحتياجات الفكرية والجمالية المستجدة خاصة

وعصرنا هو عصر العلم والديمقراطية والحرية الإنسانية – حرية الفكر

والمعتقد – وعصر حصلت فيه المرأة على حقوقها ناهيك عن تأثير الاحتكاك بالثقافة الأروبية التي تدمر روح الجمود لحساب روح الابتكار وتؤكد على المضمون الإنساني وتحرص على احترام فردية الإنسان وتميز كيانه الفكري والإيديولوجي والتي هي في النهاية خلاصة التجربة الديمقراطية المنبثقة عن الثورة الفرنسية وإعلان حقوق الإنسان.

هذه القيم التي تمثلها شعراؤنا المحدثون وتبنوها كقناعات فكرية ومن ثمة تبلور الرفض وتحتمت الثورة كصرخة عميقة تزلزل الروح موقظة إياها من سبات عميق وخدر فكري زين للإنسان العربي أوهام الماضي على أنها حقائق وفي مقدمتها فكرة تاريخية عميقة تداولتها الأجيال على أنها مسلمة لا يأتيها الباطل من

[1] . مجلة ديوان العرب.

بين يديها ولا من خلفها وهي فكرة المركزية ونعني بها اعتقاد العربي أنه مركز التاريخ ودرة الوجود وحامل لواء الحقيقة وما عداه فذيل أو هو على الهامش ، لا هو في العير ولا هو في النفير، وقد انتهت تلك الأفكار بالعربي إلى إدانة العقل وتبني التقليد وانتشار الثقافة الفقهية على حساب الثقافة العلمية ووئدت الحرية وأجهز على الروح الإنسانية في المرأة وهمشت أحقابا طويلة كما استبد الحاكم وعبث بالإنسان وبالمال العام فعمت الجهالة وانتشرت الفوضى وترسخت الطبقية وأصبحت الحياة العربية إلى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر

عام1798 حياة عبثية مجردة من القصدية انتهت بالعالم العربي إلى الوقوع فريسة سهلة بين مخالب القوى الاستعمارية الفرنسية والإنجليزية خاصة كنتيجة حتمية لتراكمات العصور السابقة بظلالها القاتمة .

فهذه الأفكار شكلت القناعة الراسخة لدى شعراء الرفض في شعرنا الحديث وحركت في نفوسهم وضمائرهم مشاعر السخط والتمرد بحثا عن حرية افتقدوها في رحاب مجتمع غارق في دياجير الجهالة والعماء ، وكانت أولى بوادر هذا الرفض وإرهاصاته هي رفض القالب الشعري القديم لأنه اهتم بالقشور على حساب اللباب وبالزيف على حساب الحقيقة وبالمصلحة الفردية على حساب المصلحة الجماعية والتي تنأى بالشاعر عن دروب الحرية و تلقي به في قرار العبودية حارمة خلاياه من التجدد في رحاب الطبيعة والزمان. فرواد الشعر الحديث إذا أخرجوا الشعر من القمقم الذي وضعه فيه الخليل منذ القرن الثاني الهجري واضعا عنه أغلال القافية هادما حيطان البيت ذي الشطرين المتساويين واضعا هندسة جديدة وتصميما آخر هو صنو الحرية وابن التلقائية لا ابن التكلف ينسجم مع الانفعال و زخم الأفكار وفردانية التأمل ، إنه شعر هو الذي يضبط الموسيقى و يتحكم فيها و ليست هي بالمتحكمة فيه فالسطر يطول أو يقصر حسب حدة الشعور و أهمية اللحظة وموقف الشاعر منها، وفي الصميم يختفي هذا الشعر بالموسيقى الداخلية لا بالموسيقى الخارجية

ويكون النص الشعري في النهاية رؤيا وموقفا فردانيا للشاعر من الوجود في تداخل مظاهره وتفاعل عناصره وذلك ما يجعل من الشعر موقفا من العالم و إعادة صياغة له تتجاوز واقعه الموضوعي إلى علاقته الجدلية بالذات الشاعرة واندغام تلك الذات في هذا الواقع وفق صيغة إنسانية وليست ميكانيكية و في المحصلة أنسنة الوجود لا وصفه خارجيا وهذا هو الإنجاز الأول الذي حققه الشعر الحديث في رفضه لكل ما غدا دوغمائيا جاهزا أثر الماضي فيه أطغى من أثر

الحاضر، ولا عجب أن يبدأ الرفض من القالب الشعري ذاته وفي رفض النموذج الخليلي باعتباره مرحلة من مراحل التاريخ الثقافي والجمالي للأمة العربية .

ولعل أكبر الرافضين في الشعر الحديث " أدونيس" ورفضه إنساني يشمل قيم الوجود وواقع الأمة في ماضيها وحاضرها وتجليات هذا الواقع في السياسة والفكر والدين والعلاقات الاجتماعية يقول الشاعر:

أفتت العالم كي أمنحه الوجود

ضاربا بعصاي الصخر

حيث ينبجس الرفض

يغسل جسد البسيطة

معلنا طوفان الرفض

معلنا سفر تكوينه

وللطوفان دلالة خاصة ذلك أنه مصطلح ديني تداولته الكتب السماوية وهو يعني اجتثاث الواقع و سحقه إيذانا بميلاد عالم جديد لأن ذلك الواقع انتهى إلى العقم وإلى الجدب والتصالح معه لا يجدي ، ثم يأتي المصطلح التوراتي الثاني " سفر التكوين " الذي يعني البداية الأولى والخلق من جديد ، وكأنه الواقع الذي تدنس أخلاقيا بدليل كلمة " يغسل " في السطر الثالث والتي تعني عقم الواقع وعطالته وتجرده من القيم الإنسانية والحرية حجر الزاوية فيها والتي ابتذلتها المؤسسات الرسمية السياسية والدينية والثقافية ، فغدا الإنسان رقما في العالم لا حزمة من المشاعر والرؤى والمواقف الفردية التي تتأكد بها أنيته ميزته عن باقي الموجودات

وأدونيس (علي أحمد سعيد) الشاعر السوري المعاصر أكثر الشعراء إثارة للجدل والاهتمام في ذات الوقت ذلك أنه شاعر ملغز، حلزوني الفكر لا يعطي سره للمراودة الأولى بل يظل محتفظا بسحره وبضبابيته في ذات الوقت مع الاحتفاظ بقيمته كشاعر صاحب رؤيا وموقف ذاتي من العالم يلخص الأزمة الوجودية لكل واحد منا إذا ضرب بعصا

ه الصخر حيث ينبجس الرفض وقرر أن يتمرد على الدوغمائيات الدينية و السياسية بالمعايير الأخلاقية بحثا عن عالم إنساني لا يكون الواحد منا فيه رقما بل ينطوي فيه العالم الأكبر .

من أنت ؟

من تختار يا مهيار ؟

أنى اتجهت

الله أو هاوية الشيطان

هاوية تذهب أو هاوية تجئ

والعالم اختيار

لا الله أختار ولا الشيطان

كلاهما يغلق عيني

هل أبدل الجدار بالجدار ؟

فإذا قيل : إن العالم اختيار فالشاعر يثور على هذه الكلمة لأنها تعني الاختيار القسري الذي هو اضطرار مادام الاختيار يقود إلى مسلكين عالم الله وعالم الشيطان وفي النهاية يتقلص حجم الحرية الإنسانية و يصيب الإنسان مسخ فيصبح كأنه فأر تجارب لا يمكنه أن يسلك إلا أحد المسلكين مسلك الإيمان والتسليم والقول بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، ومسلك التمرد والعصيان الذي غدا رتيبا تقليديا لأنه مسلك مرسم ومنظر له سياجاته وحدوده في الفكر والشعور وكلا المسلكين يرفضهما الشاعر لأنهما يحدان من نظرته الإنسانية وطابعه الفرداني وتأملاته في آفاق بكر وعوالم لم تطأها قدم إنسان من قبل وترى الشاعر في نظرته إلى الوجود يصر على المسلك الإنساني فهو يرفض الميتافيزيقا لأنها ارتبطت في اللاوعي بالقهر والرهاب وربما القمع المترسبة عواقبه في الوجدان من مغبة العصيان وارتكاب الخطيئة بالأكل من الشجرة المحرمة والخوف من فواجع القدر والباحث عن دروب الحرية وآفاق الإنسانية لابد له أن

يرفض كرفض الشاعر البعد الرأسي ويصر على البعد الأفقي ليتأله الناسوت ويتأنس اللاهوت وهو ما توحي به كلمة " انحناء" في هذا المقطع :

مات إله كان من هناك

يهبط من جمجمة السماء

لربما في الذعر والهلاك

في اليأس والمتاه

يصعد من أعماق الإله

فالأرض لي سرير وزوجة

والعالم انحناء

وإذا كان الرفض في المقطع الأول هو رفض وجودي وفي الثاني ميتافيزيقي فهو في المقطع الثالث سياسي ، والسياسة لها سياجها الدوغمائي و أطرها القهرية ومؤسساتها القمعية و آصارها اللإنسانية فتختصر الإنسان إلى حزمة من الغرائز أو تجعله ككلب" بافلوف" رهين المنعكسات الشرطية بين مؤثر واستجابة ولعل المثقف العربي أكثر المثقفين تحملا لأعباء السياسة وقهرها ولا إنسانيتها فهي هرم كبير يجثم على الصدر ويكتم الأنفاس حجارتها ازدادت صلادة مع كر الدهور منذ الأمويين وإلى الآن، ومؤسساتها أطر للتضليل والتدجين ولذا يرفضها الشاعر ويرفض دوغمائياتها مؤثرا دور المنبت الذي لا أرضا قطع و لا ظهرا أبقى !

ولكن هذا المنبت وبحكم إنسانيته و طبعه الاجتماعي وروابطه الإنسانية أقوى من أن يظل من الأوابد فالانفصال عن المجموع ما هو إلا جري وراء السراب في الحقيقة ، والإنسان يستمد بقاءه من الجماعة فهو يحيا فيها وبها وهي التي تلهمه الثورة والتمرد وتعزز فيه ذاتيته وتشحذ ذهنه للبحث عن اللباب والمضمون الإنساني في العلاقات الاجتماعية وفي أشكال الإنتاج والرافض يظل يترنح بين قطبي الاتصال والانفصال أي هو المتصل المنفصل والمنفصل المتصل:

تريد ونني أن أكون مثلكم

تطبخونني في قدر صلواتكم

تمزجونني بحساء العساكر وفلفل الطاغية

ثم تنصبونني خيمة للوالي

وترفعون جمجمتي بيرقا

آه يا موتى ؟ تعيشون كالبلاط

يفصلني عنكم بعد بحجم السراب

لا أستطيع أن أحيا معكم

لا أستطيع أن أحيا إلا معكم .

ويأتي كذلك في طليعة الشعراء المحدثين الرافضين الشاعر اللبناني خليل حاوي ولعل موته منتحرا بعد غزو إسرائيل للبنان واجتياح بيروت عام 1982 تعبير عن رفضه السياسي ذلك الرفض الذي كان صرخة في وجه الأنظمة العربية القابلة للواقع المملى عليها الراضية بالتدجين القانعة من الصراع بالتطبيع ، إنه رفض للهزيمة وعد م اعتراف بشرعية الواقع الذي صارت إسرائيل طرفا فاعلا فيه ورفض للأنظمة العربية الفاقدة للشرف وللعذرية والتي أسلمت فلسطين إلى مصيرها التراجيدي وتهاونت في قضية لبنان وسكتت عن احتلال الجولان وانتهت مصر لقمة سائغة بعد اتفاقيات كامب ديفيد، كل هذه الجروح لم تندمل في روح الشاعر وضميره الذي اقتنع بأن كل شيء في العالم العربي قد أجدب وأصيب بخصاء فكري وأخلاقي ووجداني بما فيه الحياة الثقافية ورأى أن المعادل الموضوعي لهذا المأزق الوجودي هو الموت فرحل بإرادته تعبيرا عن حالة رفض كلاني للواقع وعدم اعتراف بشرعيته.

وفي شعر خليل حاوي نقع على هذا الرفض بغير عناء كبير ففي قصيدته " ضباب وبروق " نقع على حالة يأس تام استسلم لها الشاعر وحالة عطالة انتهى إليها ولا أدل على ذلك من استخدام كلمة "المقهى" الموحية بالعطالة وأما حالة الجدب والخصاء واليأس فتعبر عنها في هدا المقطع كلمة " البوم وأما لفظة" النسر" فدلالتها هي الشموخ و الكبرياء إنها كلمات مشبعة بالرفض ومضمخة باليأس :

ضجة المقهى ضباب التبغ

مصباح وأشباح يغشيها الضباب

ويغشى رعشة في شفتي السفلي

يغشى صمت وجهي ووجومه

أفرخ البوم

ومات النسر

في قلبي الذي اعتاد الهزيمة .

والشاعر لا ينسى أن يذكرنا بأحلامه الماضية ولعلها الشبابية حين كان طالبا في جامعة كمبردج ، وكيف كان الحلم ناصعا بغد عربي مشرق ووحدة عربية ونهضة فكرية وعلمية وأدبية واندحار للفكر الصهيوني المتطرف في بلادنا وتلاشي لكل التيارات العمياء المتطرفة الدينية

والسياسية في عالمنا العربي وقد جد الشاعر واجتهد باحثا عن المعرفة التي سيوظفها في خدمة هذا الحلم وعن النور الذي سينير به حلكات الطريق مضحيا بمصلحته الشخصية لحساب مصلحة المجموع:

طالما جعت ،افترست الجمر

أتلفت الليالي

أتقي ما أشتهيه وأهاب

وأطيل الجوع حتى ينطوي الجوع

على موت الرغاب .

ثم جاءت ساعة الحقيقة وانجلى الواقع على قبض الريح وحصاد الهشيم فلا الوطن تحرر ولا العدو اندحر ولا المجتمع تقدم وانتهى الشاعر نازفا بالدماء كأنه أحد أبطال التراجيديا الإغريقية ، كأنه بروميثيوس بعد أن بدأ مشواره كأحد أبطال السير الشعبية وكأنه أبو زيد الهلالي، وهو في الأخير رفض لا يصنع شيئا ولا يغير واقعا غير حفظ الكرامة الإنسانية وصيانتها عن الابتذال لقاء أي عرض من أعراض السياسة أو الرفاه وإذا كان الأمر كذلك فلا جرم أن تدمر الذات إنقاذا لها من مزيد من المعاناة الصامتة:

في جبال من كوابيس التخلي والسهاد

حيث حطت بومة سوداء تجتر السواد

الصدى والظل والدمع جماد !

وأما الشاعر الكبير عبد الوهاب البياتي ذلك الشاعر الذي طوف في الدنيا منفيا ومشردا من موسكو إلى مدريد وإلى دمشق فقد جسد في شعره وفي حياته حالة الرفض للقهر السياسي واستبداد الحكام وحالة الرفض لكل السلطات الدنيوية والدينية كالإكليروس الديني والمؤسسات السياسية والثقافية الرسمية لأنها تمارس الإكراه على الحرية الإنسانية وتعتدي على الكرامة البشرية وقد امتد رفض البياتي هذا إلى الإعجاب برافضين من تاريخنا العربي ومن العالم الغربي، فمحي الدين بن عربي الشاعر الأندلسي صاحب فلسفة وحدة الوجود والفتوحات الملكية كان في تصوفه وفي حبه رافضا للثقافة السائدة والتدين الساري متبنيا موقفا إنسانيا فريدا لا علاقة له بما هو جاري العمل به في الواقع ،وقد نال هذا الشاعر احترام وحب البياتي إلى درجة أنه أوصى أن يدفن إلى جواره في دمشق.

ويمتد إعجاب البياتي إلى شاعر كبير من إسبانيا هو غارسيا لورقا وهو في الشعر الإسباني شاعر رافض ورفضه أدى إلى موته مقتولا على أيدي قوات فرانكو ديكتاتور إسبانيا .

لقد رفض لورقا الثقافة الرسمية التي تنص على مركزية أوربا وهامشية العالم الآخر كما رفض النظرية التي تربط التفوق بلون البشرة والدم، وترجع تقهقر إسبانيا الصناعي والعلمي قياسا إلى فرنسا وألمانيا إلى الوجود العربي أيام الأندلس، فقد رفض هذا الشاعر البديع أن يعتبر الوجود العربي الإسلامي في إسبانيا احتلالا حال دون تقدم شبه الجزيرة الأيبيرية، بل اعتبره وجودا حضاريا أفاد اسبانيا عمرانيا وعلميا وفكريا وفنيا لم يحسن الأسبان فيما بعد احتضانه وتمثله

فكانت همجية فردناند وإيزابيلا وجنودها التي صنعت فضائع يندى لها جبين الإنسانية وقد عبر لورقا عن مواقفه هذه شعرا وفي لقاءاته الصحفية إلى درجة إقلاق النظام الحاكم فأعدمته قوات فرانكو تخلصا منه ومن مواقفه.

إذا وجد البياتي في هذا الشاعر صديقا كما وجد ذلك في شاعر المتصوفة وصوفي الشعراء محي الدين بن عربي والبياتي يرفض تخاذل المثقف في السكوت على ظلم الحاكم والتعلل لذلك بقوة السلطان وجبروته وحاجات النفس والتمادي في هذا الموقف المتخاذل إلى درجة التحول من سيف يناضل ضد القهر والعماء إلى مروحة تجلب للحاكم النسيم العليل لقاء اتقاء شره والظفر بمغانم الدنيا !

ولقد كان الشاعر مؤمنا أن الثقافة الحقة يجب أن يتحلى الموصوف بها بصفة النضال ضد الطبقية والرجعية والتخلف والقهر لحساب النهضة والحرية والكرامة خاصة والمجتمع العربي في المنعطف لم يخرج إلى آفاق العلم والحرية والإبداع الرحبة كغيره من شعوب العالم المتمدن.

إنه يرفض المثقف المتحول إلى حزمة من الغرائز تنشد الإشباع في البلاط ساكتة عن جرائم السلطان مؤثرة المصلحة الفردية على حساب مصلحة الجماعة فهو يقول عن المثقف:

يداعب الأوتار

يمشي فوق حد السيف والدخان

يرقص فوق الحبل

يأكل الزجاج

ينثني مغنيا سكران

يقلد السعدان

يركب فوق متنه الأطفال في البستان

يخرج للشمس إذا مدت إليه يدها اللسان

يكلم النجوم والأموات

ينام في الساحات !

فهذا المثقف الذي كان يفترض فيه أن يكون طليعيا تحول إلى بهلوان يجيد الرياء والتلاعب بمشاعر الأمة وخداعها والتمويه عليها، لقد صار كالدرويش رمزا للسذاجة والغفلة وقد غدا الأمر هزأة فهو ينام في الساحات ويكلم الأموات ويتعامل بغباء مع قيم الثورة والحرية والعطاء فيخرج للشمس إذا مدت إليه يدها اللسان !

ونأتي في خاتمة المقال إلى شاعر مثير للجدل لا تكف الألسن عن تداول اسمه وترديد شعره فهو في المحدثين كأبي الطيب في القدماء إنه الشاعر السوري نزار قباني فقد كانت حياته هو الآخر تجسيدا لمبدأ الرفض وكان شعره بلورة له وذهابا به إلى أقصى المعمورة صراخا وتشهيرا به، وأما رفضه فيتجلى في موقفه من المرأة ومن الحب حين رفض رواية المؤسسة الرسمية المليئة بالنفاق والتحايل والقهر والكذب والسادية واحتقار الكرامة الإنسانية المتجلية في الأنوثة وفي الحط من قدرها وتلخيصها في ميزاتها الجنسية لأنه مجتمع الكواليس، يبطن غير ما يظهر ويرى الحب جريرة والحديث عنه دعارة ولا يرى مانعا من ممارسته في الخفاء ، ألا إنه مجتمع منحط حين يأتي الرجل والمرأة كلاهما فعلا واحد فيرى الرجل بطلا والمرأة مومسا، وقد جسد هذا الرفض في انتقامه للأخت المنتحرة التي رفضت هي الأخرى زواجا قسريا مفضلة الموت عليه بالتشهير بالحب وبنعيمه وبالتغني بمواطن الفتنة في المرأة وفي الإعلاء من شأن الأنوثة منذ صدور ديوانه الأول

" طفولة نهد" الذي تحول تحت ضغط المؤسسات الرسمية الوصية إلى

" طفولة نهر" .

وأما الرفض السياسي فللشاعر فيه صولات وجولات منذ صدور

" هوامش على دفتر النكسة"، وقد كان الشاعر فضاحا للمواقف المتخاذلة مشهرا بها لا يهادن ولا يسالم معتبرا جبن الساسة وتخاذلهم بل ونفاقهم هو الذي أسلم فلسطين إلى أعدائها ورهن مستقبل كامل البلاد العربية وفي قصيدته المشهورة التي بعث بها إلى جامعة الدول العربية بتونس والتي عنوانها" أنا متعب بعروبتي" يتجلى هذا الرفض في حالة من الثورة العارمة والانفعالات الحادة المعبرة عن عمق الجرح ونزيفه ولقد كتبها الشاعر على الطريقة العمودية ليرد على

مؤسسة رسمية بقالب شعري رسمي نظر له الخليل لا يعوزه التحكم فيه والسيطرة عليه وقد كان تأثير هذه القصيدة مدويا لأنها صادفت هوى جميع العرب وعبرت عن مكنون ضمائرهم فمن رفض طغيان الساسة :

من أين يأتي الشعر يا قرطاجة

والله مات وعادت الأنصاب؟

من أين يأتي الشعر حين نهارها

قمع وحين مساؤنا إرهاب؟

سرقوا أصابعنا وعطر حروفنا

فبأي شيء يكتب الكتاب ؟

والحكم شرطي يسير وراءنا

فنكهة خبزنا استجواب

إلى رفض استبداد المؤسسات الثقافية وممثليها من الشعراء خاصة:

من أين أدخل في القصيدة يا ترى

وحدائق الشعر الجميل خراب؟

لم يبق في دار البلابل بلبل

لا البحتري هنا ولا زرياب

شعراء هذا اليوم جنس ثالث

القول فوضى والكلام ضباب

اللاهثون على هوامش عمرنا

سيان إن حضروا وإن هم غابوا

إذا لقد كان الشعر الحديث بتمثله لمبدأ الرفض شعرا تقدميا وإنسانيا وكان هؤلاء الشعراء الأعلام فرسان الكلمة ورجال الموقف نأوا بالشعر عن قصور الحكام ونزهوا الشعر عن تضمنه العربدة المحببة إلى قلوب الجماهير، لقد طوحوا به في آفاق الإنسانية الرحبة ، والتزموا حقا- كما يلح جون بول سارتر على فكرة الالتزام في الأدب وعلى ضرورة تأميمه- بقضايا الوطن وتاريخه العريق وحاضره التعس ومستقبله المرهون بلا خطابية فجة أوإيديولوجية مقيتة فحافظ شعرهم على طراوته ونكهته الوجدانية ومضامينه الفكرية والإنسانية، وقد ساعدهم على ذلك نفس شعري قوي لا يخمد وروح تجديدية عنيدة لا تقهر ولا تخبو نارها، ووعي بالواقع في علاقاته المتشابكة خاصة مع الغرب سياسة وثقافة بل وقوتا، فجاء هذا الشعر في صيغته الحديثة شعرا إنسانيا – على الرغم من عثراته ونقائصه-وقد أثبت قوته وشبابه وحصانته وأنه قادر على اكتساح المنابر الثقافية وضم المريدين والأشياع رغم تمرده على الذاكرة والخطابية والترنم ، وهو رد حاسم على كل المشككين في جدوى الشعر الحديث.

المعاناة الخالدة أو الإبداع في حضرة الألم [1]

لاشئ يجعلنا عظماء غير ألم عظيم "ألفريد دي موسيه "

الألم كظاهرة جسمانية أو نفسية مظهر من مظاهر النقص في الكائن البشري وآية عدم سويته، إنه يصيب الإنسان بالعجز ويحسسه بانسحاقه وبعدم قدرته على مزاولة حياته اليومية كغيره من بني جنسه.

وسواء أكان الألم جسديا أم نفسيا فإنه يلقي بظلاله الشاحبة على عالم اللاوعي ويمسح بكآبته على سراديب الروح فيحس الفرد بنقصه وربما عدم كفاءته –على الأقل– في ممارسة الحياة العادية كعامة الناس.

ولأن الإنسان أناني بطبعه، وغريزة البقاء متأصلة فيه ، تأصل خلاياه وأنسجته ولأن الموت والنسيان هما خصماه اللدودان، فإنه يسعى لاستكمال ذلك النقص المتجلي في المعاناة بضربيها الجسدي والنفسي بالتطلع إلى عوالم لا يرقى إليها الأشخاص العاديون وبالتحليق في سماوات تقصر مدارك الناس عنها إنه اللاوعي يقاوم الفناء ويؤكد خصوصية الذات ويستنبت بذور البقاء، ويشفي الغليل –غليل نفس مهما كانت إنسانية–فهي حاقدة على الصحة الموفورة والاتزان النفسي للجماعة –القطيع– ولهذا كان شاعرنا الكبير المتنبي على حق حين قال:

- ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

[1] . مجلة الرافد الإماراتية العدد 132أغسطس2008.

وإذا كان فرويد يفسر الإبداع على أنه التحول في اللبيدو فإن كارل جوستاف يونغ السويسري يفسره على أنه إحساس بالدونية ومن ثمة التسامي –عن طريق الإبداع– بهذه الذات إلى الظهور في مستوى الناس العاديين بله والتفوق عليهم والاستعلاء على مداركهم وطموحاتهم.

وقد كانت العرب على حق حين قالت:" كل ذي عاهة جبار" وهو قول علمي أكثر منه أدبي مضمونه جمع بين الفلسفة والعلم، وترك لعقل القارئ تحليل هذا القول واستقصاء جزئياته لإدراك مراميه البعيدة التي شرحناها من الوجهة النفسية والوجودية في بداية المقال.

وفي أدبنا العربي قديمه وحديثه مبدعون كبار –نثار وشعراء– ينسحب عليهم هذا القول وذلك التحليل المقدم آنفا.

لقد كان الألم مهمازا للقريحة، ووقودا للسير في طريق الإبداع والخلود وأجنحة حلق بها أصحابها في عوالم الفكر والشعور، ومعارج عرجت بهم إلى قمة الأولمب بين أقدام أبولون فباركها بأن منحها الخلود ومنح إبداعها إكسير البهاء والبقاء.

والعجيب في أدبائنا الشعراء والكتاب المتألمين كانوا كالشهب في سماء الخلق الفني أضاءوا إضاءات سريعة واختفوا عن الوجود لم يثبتوا ثبات النجوم حتى ليملها الرائي، فقد كانت حياتهم قصيرة ، كان الألم والنشيج والأنين حجر الزاوية فيها، وأشد ما يلفت النظر في الشهاب سرعة حركته واندفاعه في السماء وشدة ضيائه الذي يكاد يخطف الأبصار ويكسف ما حوله من نجوم **عتيقة**.

وكذلك كانت حياة هذا النفر من الأدباء ولعل شاعرنا الصداح فوزي المعلوف (1899/ 1930) خير من يمثل هذه الفئة وهو إن لم يصبه الداء العياء في صدر شبابه، بل كان مثالا للصناعي الناجح في البرازيل والغني المتألق الوسيم، ولكن معاناته كانت نفسية وجودية رأت الحياة بمنظار أبي العلاء، وتشربت معاني رباعيات الخيام فبدا لها الوجود غفوة والموت صحوة والمال والبنون والصحة والوسامة مظاهر خداعة تتستر على هاوية العدم وقاع الفناء، وعانى هذا الشاعر من النفاق والرياء والكذب والغرور والحسد تلك الصفات المميزة للإنسانية في ملمحها العام اسمعه يقول:

وهو حي يستهون الموت مره * من يمت ألف مرة كل يوم

كل ما قال فيلسوف المعره * تعب كلها الحياة وهذا

واقرأ معي هذا المقطع الذي تجد فيه الشاعر قد نفذ إلى لباب الوجود

-حسب رأيه- فإذا هو الزوال والفناء:

أنت مثلي في الكون للكون كاره * نظرت وردة إلي وقالت

أجتنى بين آسه وبهاره * ويح نفسي من الربيع ففيه

على رغمها بلفحة ناره * ومن الصيف فهو يحرق أكمامي

قاتلي بين وصله ونفاره؟ * والنسيم البليل هل هو إلا

فيجفو والعطر ملء إزاره * يتصابى حتى أسلمه نفسي

وكان آخر ما نظم هذا الشاعر:

التهاما وينهش القلب نهشا* مرحبا بالعذاب يلتهم العين

ناقعا غلة إلى الدم عطشى * مشبعا نهمة إلى الدم حرى

وقد خاطب قلمه أجمل خطاب مرة:

لي منذ امتزجت بي وستبقى * يا يراعي مازلت خير صديق

باكيا من تعاستي حين أشقى * باسما من سعادتي حين أهنا

وأما الشاعر اللبناني الآخر إلياس أبو شبكة (1903 / 1947) بودلير الشرق هذا الشاعر الذي أبدع في وصف الغواية، وتتبع العورة والسقطة، فقد كان الألم دافعه في الإبداع وحاديه في الكتابة اسمعه يقول:

ولم ينكر وجنتيه السقم * من لم يذق في الخبز طعم الألم

من يمنع الأهوال أن تطعمه * من لم يغمس في هواه دمه

ومن لم يسمر في الهوى أنمله * من ليس يرقى ذروة الجلجله

ولن يرى أماله في رؤاه * لن يعرف العمر شعاع الإله

وفي البيت الثالث استلهم الشاعر قصة صلب المسيح أجمل استلهام واللافت في هذا الشاعر البارع في وصف الغواية والمدرك لحقيقة الشعر والحياة معا وهي قول وليم بليك "اذهب وطور قابليتك على رؤية الرؤى حتى تصل بها إلى أفضل ما يمكن أن تكون عليه" أنه عانى ألما جسديا ونفسيا معا عجلا به إلى هاوية العدم وما أجمل قوله:

فعدن ميراث لمن تألما * إن الشقا سلم إلى السما

وأجمل منه هذا المقطع الظاهر فيه التأثر بالرومنطيقية الفرنسية الحزينة:

اجرح القلب واسق شعرك منه * فدم القلب خمرة الأقلام

وإذا أنت لم تعذب وتغمس * قلما في قرارة الآلام

واشق ما شئت فالشقا محرقات * صعدت من مذابح الأرحام

رب جرح صار ينبوع شعر * تلتقي عنده النفوس الظوامي

وزفير أمسى إن قدسته الروح * ضربا من أقدس الأنغام

وعذاب قد فاح منه بخور * خالد في مجامر الأحلام

وكذلك كان شاعر مصري الذي لا يعرفه إلا القليل صالح الشرنوبي (1924-1951)

رفيق صالح جودت، جرته كآبته ومعاناته النفسية وقلقه الوجودي إلى الموت تحت عجلة القطار وهو القائل:

وآمالنا تفنى وتفنى المشاعر * غدا يا خيالي تنتهي ضحكاتنا

ويحكم فينا الموت والموت قادر * وتسلمنا أيدي الحياة إلى البلى

وقد كان الشاعر خليل شيبوب(1891م-1951) صريع الداء مكدود البدن تساقط نفسه أنفسا على حد وصف امرئ القيس لعلته، وزاده الألم النفسي قهرا وعذابا فانفجر يقول:

ذهبت صبوتي وضاعت حياتي * أنا بين الأمراض والحسرات

عالما أن راحتي في مماتي * كم دعوت السماء دعوة يأس

تاعس الحظ قد سئمت حياتي * حبذا الموت يا ظلام فإني

وأما الشاعر السوداني التيجاني بشيريوسف (1912-1937)

فقد كان الألم هو الآخر – وألمه هنا نفسي- كألم صاحبه دافعه إلى الإبداع وسلمه إلى التحليق في سماء الابتكار، وقد كان كسابقيه شهابا خطف الأبصار سناه ثم انتهى رمادا ، اقرأ معي هذا المقطع الدال على معاناته:

بعد خلوصي وصفائي؟ * ثم ماذا جد من

أرى ما أنا راء * أظلمت روحي ماعدت

في صحو سمائي * أيهذا العثير الغائم

وللموت رجائي * للمنايا السود آمالي

وفي قصيدته قلب الفيلسوف يقدم لنا الشاعر ملامح شخص مرهف الحس، شديد الألم، تغطيه أسمال بالية على هيكل مكدود وهو يعني نفسه ومن على شاكلته:

أطل من جبل الأحقاب محتملا * سفر الحياة على مكدود سيماه

عاري المناكب في أعطافه خلق * من العطاف قضى إلا بقاياه

مشى على الجبل المرهوب جانبه * يكاد يلمس مهوى الأرض مرقاه

هنا الحقيقة في جنبي ، هنا قبس * من السموات في قلبي ، هنا الله

أما شاعر العربية الكبير وبلبلها الصداح ونسمتها المنعشة وعبيرها الفواح ، شاعر تونس الخضراء أبو القاسم الشابي (1906 / 1934) فالألم الجسدي وقصور قلبه كانا سبب نكبته ومعراجه إلى سماء الخلود وطريقه إلى الشعر بعد أن امتلك أسبابه وتهيأت له فواتحه، ولسنا نتحدث عن الشابي المجدد والرومانسي وصاحب رائعتي إلى الطغاة وإرادة الحياة وإنما نتحدث عن الشابي المكدود العليل الصارخ من الألم المستشعر نهايته القريبة في شرخ الشباب ونضارة العمر ونكتفي بمقطعين يعبران عن معاناته الجسدية والنفسية من قصيدته "الصباح الجديد" وكأنه يؤمن في هذه القصيدة بتناسخ الأرواح، أو بفكرة البعث بعد الموت واستمرار الحياة إلى الأبد في أطوار وحيوات مختلفة، ولكنها حيلة اللاوعي وغريزة البقاء تسكن لوعته وتهدأ من روعه حتى تحين القاضية ، اسمعه يقول مخاطبا آلامه وجراحه:

أسكني ياجراح * واسكتي يا شجون

مات عهد النواح* وزمان الجنون

وأطل الصباح * من وراء القرون

في فجاج الردى * قد دفنت الألم

ونثرت الدموع * لرياح العدم

واتخذت الحياة * معزفا للنغم

أتغنى عليه * في رحاب الزمان

أما شاعر العراق الكبير ورائد شعر التفعيلة بدر شاكر السياب (1926 / 1964) فكانت معاناته جسدية، جسد ذاوي كأوراق الخريف ونشاز خلقي سبب له الألم وهو الشاعر المفتون بالنساء العاشق للمرأة الراغب في امتلاكها الساعي إلى مواقعتها نزولا عند رغبتها واستجابة لاستعطافها، لقد كان السياب ظاهرة فريدة طواه الموت قبل الأربعين وأخرس صوت الألم فيه ولكن الألم خالد في شعره يصيبنا بفيروسه كلما قرأنا شعره وإن كنا لسنا كالقابض على الجمر، وفي قصيدة" دار جدي" وهي من أجمل قصائده التي توحي بهيبة صاحب الجلالة – الزمن– وتشعرنا بتفاهتنا

وتفاهة الموجودات أمام عرشه الأزلي الأبدي، في هذه القصيدة إشارة إلى مرضه وألمه وآهته وإنه ليؤثر تأثيرا بالغا في وجدان قارئه حين يقول:

وفي ليالي الصيف حين ينعس القمر

وتذبل النجوم في أوائل السحر

أفيق أجمع الندى من الشجر

في قدح ليقتل السعال والهزال

ولما استبد بالشاعر الألم وأعياه الصراخ وجفاه النوم وانتحرت خلاياه يأسا وسكن الموت في سراديب روحه وتلافيف مخه، ورأى هاوية العدم تنفتح لتبتلعه لم يجد غير الله يلوذ به ولربما أدركه اليأس حتى من الله ولكنها حيلة اللاوعي وغريزة البقاء تعمل عملها وتحيي سنتها في مخلوقاتها اقرأ معي قوله:

شهور طوال وهذي الجراح

تمزق جنبي مثل المدى

ولا يهدأ الداء عند الصباح

ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى

وقد جاءه الردى أخيرا فمسح الأوجاع وطوى الآهات وأخرس الأنات ولكنها خالدة في دواوين الشاعر.

هذه لمحة عجلى عن الألم – النفسي والجسدي– وعلاقتهما بالإبداع، استقصيناها عند بعض شعرائنا المحدثين، وإن كانت ثنائية الألم والإبداع ظاهرة موجودة في كل آداب الدنيا قديما وحديثا، وسيظل الألم هو الطريق إلى ذروة الجلجلة على حد وصف شاعرنا إلياس أبي شبكة، ولكن المشكلة أنه ليس في مقدور أي إنسان أن يخلد معاناته ويؤبد ألمه ويفرض على الزمان اسمه وإبداعه وبذلك ينفلت من هاوية النسيان، فالإبداع في الأصل موهبة لها ملكاتها الفطرية في

وجدان صاحبها ويكون الألم عند البعض الوقود الذي يلهب مشاعر الأديب فيسابق الريح ويحرق المراحل ويخلد في شرخ الشباب وفي نضارة الصبا.

النزعة الإنسانية في الأدب المهجري [1]

حظي الأدب المهجري بعناية الدارسين ونقاد الأدب ومازال كذلك، ولهذا الأدب محبوه ومتذوقوه ، فقد كان فتحا في أدبنا الحديث، فتح عيوننا على مباهج الحياة،وروعة المغامرة وإغراء الحرية ، بعد أن ظل أدبنا أحقابا طويلة نائما في مغارة التاريخ مغمضا عينيه على مستجدات الحياة مكتفيا بالاجترار من الكتب القديمة ، وكد الذهن لا في توليد المعاني البكر، بل في تنميق الكلام والولوع بالأسجاع واللهاث وراء التورية وفي مباركة الأوضاع القائمة وهي أوضاع مزرية تميزت بالركود الاجتماعي والتأسن الثقافي والاستبداد السياسي وكانت غاية الأدب أن يصل إلى البلاط مسبحا بحمد الحاكم آناء الليل وأطراف النهار لتحقيق مآرب شخصية مضحيا بمصلحة الجماعة لحساب المصلحة الشخصية . خرج الأدب المهجري إذا من رحم المعاناة مبشرا بعصر الخصوبة وبقيام طائر العنقاء من رماده صحيحا معافى وهو يحمل معول الهدم منقضا على سفاسف الماضي معليا صرحا جديدا من الأدب الخلاق المتميز بصدق الشعور ونزعة التجديد والغيرة على حاضر الأمة ومستقبلها متزودا من الثقافة العربية الأصيلة والغربية

البناءة ، مستفيدا من أرض ترعرع فيها هي الأرض الجديدة – أمريكا الشمالية والجنوبية – حيث للفرد قيمة وللعلم المكانة الأولى – إنها مجتمع الصناعة والتقدم والإبداع والرفاه المادي والمعنوي وكل هذه العوامل مجتمعة وجدت صداها في عقول وضمائر وإنتاج أدباء المهجر الأدبي والفكري .

---

[1] . مجلة الواشنطوني العربي العدد33 .

ونحن في هذا المقال راصدون لقيم إنسانية تضمنها الأدب المهجري تاركين القيم الأخرى كالجمالية والفكرية لمقالات أخرى وإنه لحقيق بنا نحن ورثة هذا التراث الأدبي الضخم أن نتمثله كما يتمثل الجسم الغذاء صانعا منه نسغ الحياة وأسباب الحصانة وعوامل القوة خاصة ونحن نعيش في عصر تميز بالتطرف الديني والنزاع الطائفي وسيطرة الفكر العبثي السلفي أو العدمي التغريبي خاصة ومجتمعنا العربي يحمل في ثناياه اختلافات مذهبية هي في الأصل مصدر ثراء له ولو أنه يراد لها أن تكون عوامل تصدع وفرقة

أضف إلى ذلك انفتاح العالم وتطور المعلوماتية في أرقى تجلياتها – أي الثورة الرقمية — وسيطرة المؤسسات الاقتصادية العابرة للقارات والتي غزت أسواقنا بمنتجاتها الغثة والسمينة وما نحن في حاجة إليه وما نحن في غنى عنه والتي أدت في النهاية إلى تسطيح الفكر والشعور والجري وراء بريق الألفاظ دون أن نكلف أنفسنا عناء البحث عن المضمون،إنها عولمة حولتنا إلى كائنات طفيلية مستقبلة ومستجيبة لكل المثيرات الواردة من الضفة الأخرى ، وكأن صرخة المهجريين في النصف الأول من القرن الماضي ذهبت أدراج الرياح فقد عدنا إلى الدجل على حساب العقلانية وإلى الطائفية على حساب التسامح الديني وإلى التقليد على حساب الاجتهاد وإلى العبودية على حساب الحرية وإلى الشكلانية على حساب المضمون ، وما أحرانا اليوم أن نعود إلى تلك القيم الإنسانية التي تضمنها الأدب المهجري وصدع بها وعاش لأجلها فهي التي ستعصمنا من الغرق في خضم الحضارة الحديثة .فما مجمل القيم الإنسانية التي تضمنها هذا الأدب ؟

لعل أول قيمة من قيم الأدب المهجري هي التسامح الديني ولقد عبر عن هذا المعنى أبلغ تعبير الأديب اللبناني الكبير مارون عبود ، وهو إن لم يكن مهجريا فقد تميز في حياته وفي فكره بهذه الخصيصة ، خصيصة التسامح الديني قال عبود :" سميت ابني محمدا نكالا في أبي الذي أسماني مارون " .

وإن كان فحوى هذه المقولة التأكيد على مبدأ العروبة فاسم محمد أ لصق بالفكر والانتماء العربيين من اسم مارون، إلا أن العروبة الإسلام لصيقان ببعضهما لا يمكن الفصل بينهما وهذا ما عناه كاتب عربي ماروني هو الأستاذ مارون عبود ، وهو بذلك يؤكد انتماءه لحضارة الإسلام ، لقد كان شعراء المهجر وجلهم من المسيحيين يعتبرون الإسلام بعدا روحانيا وفكريا مهما في تكوينهم النفسي والعقلي فضلا عن كونه رابطة قومية لذا تراهم يذكرون الإنجيل إلى

جانب القرآن ومحمدا إلى جانب يسوع في تآلف ومودة . قال الشاعر رياض المعلوف وقد كان مغتربا في البرازيل من قصيدة " الله والشاعر":

يا صاحب الملك الذي لا ينتهي

بدا وسدته الملأ والسرمد

فالشعر في إنجيلنا وكتابنا

والشاعران هما المسيح و أحمد

و تأمل أيها القارئ استخدام الشاعر لضمير الجماعة في قوله" كتابنا " وهو يقصد القرآن الكريم مؤكدا انتماء المسيحيين العرب لحضارة الإسلام.

وأما الشاعر القروي رشيد سليم الخوري المغترب في البرازيل والذي عرف بنزعته القومية الحارة وغيرته على الأمة العربية وقد كرس شعره داعيا إلى الحرية والعزة ،

هاهو في صرخته ضد الباطل يدعو إلى الأخذ بأسباب القوة والتضحية في سبيل عزة الوطن مقتبسا عن القرآن الكريم معنى الآية الكريمة : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل" ولم تثنه مسيحيته عن الانتصار لهذا المبدأ القرآني يقول القروي :

أحبوا بعضكم بعضا وعظنا

بها ذئب فما نجت قطيعا

إذا حاولت رفع الضيم فاضرب

بسيف محمد واهجر يسوعا

وتراه في قصيدة أخرى بمناسبة عيد الفطر يمتدح النبي محمدا- عليه السلام- ويفرح لرؤية الهلال يعانق الصليب بعد أن تنجلي غاشية الاستبداد والاستعمار:

أكرم هذا العيد تكريم شاعر

يتيه بآيات النبي المعظم

ولكنني أصبو إلى عيد أمة

محررة الأعناق من رق أعجمي

إلى علم من نسج عيسى و أحمد

وآمنة في ظله أخت مريم

و يصر الشاعر إلياس فرحات المغترب في البرازيل على انتمائه العربي فوطنه هو الشام والعراق وأرض الكنانة وأرض الجزيرة التي توحي في الوجدان العربي بظهور الدعوة الإسلامية وانتشار الإسلام وهذا المقطع من أشهر ما انتشر من شعر المهجريين:

إنا وإن تكن الشآم ديارنا

فقلوبنا للعرب بالإجمال

نهوى العراق ورافديه وما على

أرض الجزيرة من حصا و رمال

وإذا ذكرت لنا الكنانة خلتنا

نروى بسائغ نيلها السلسال

بنا ومازلنا نشاطر أهلها

وكذلك كان الشاعر السوري ميشال مغربي المغترب في ساو باولو بالبرازيل فهو أيضا يحلم بغد عربي مشرق يتعانق فيه الصليب والهلال ويعمل العرب جميعهم – مسلمون ومسيحيون – لما فيه خير الأمة العربية :

الأم تجمل في عين وليدها

حتى ولو في أخلق الأسمال

حي الحيا دون المواطن موطنا

فيه أرى داري و أنظر آلي

ويظلني علمي الذي في قلبه

يثوي صليبي في جوار هلالي

أما زعيم أدباء المهجر وكبيرهم الذي علمهم السحر جبران خليل جبران فقد تميز بتسامح ديني ظاهر في كتاباته وهو كصحبه يعتبر الاختلاف المذهبي في الشرق مصدر غنى وما ذكر المعبد في كتاباته إلا ذكر الجامع وما ذكر الهيكل إلا ذكر المحراب ولو أن فلسفة جبران وموقفه من الأديان يختلف عن موقف صحبه إلا أن الجامع بينهم جميعا هو نبذ العصبية الطائفية والفرقة على أساس اختلاف الدين، فالدين لله والوطن للجميع .

وتسلمنا قراءة آثار المهجريين إلى اكتشاف خصيصة ثانية تنم عن نزعة إنسانية مكينة في أدبهم أصيلة في أنفسهم وهي الصفح حين الخطأ في حقهم مع الحب الخالص ولسان حالهم يقول مع المثل العربي :" إذا عز أخوك فهن "

يقول الشاعر زكي قنصل المغترب في الأرجنتين:

أنا إن شكوت فدمعتي من جفنكم

وإذا شدوت فصوتكم قيثاري

مرحى بني أمي لأنتم مفزعي

في النائبات وأنتم أظفاري

في ظلكم نبتت خوافي شهرتي

وزها جناحي واستطار غباري

واقرأ هذه الأبيات للشاعر ندرة حداد المغترب في أمريكا وتأمل ما احتوت عليه من تسامح ومغفرة وإنها لكنوز أخلاقية حقيق بنا أن نتمثلها في الحياة أحسن تمثيل :

أنا راض بالعصا يا

أيها الحامل رمحك

وسأرضى خبزك الـ

أسود في الحب وملحك

وسأنسى جرح قلبي

كلما شاهدت جرحك

وإذا أخطأت نحوي

فأنا أطلب صفحك

ونفس النزعة نزعة التسامح تطالعك وأنت تطالع الشاعر مسعود سماحة المغترب في أمريكا تصدر عن الحب المحض للإنسانية :

كأني لم أترك للغير شؤونه

كأني عالجت غير شؤوني

وكم من صديق لم أخنه فخانني

ومؤتمن قد بات غير أمين

إذا جزت سهلا في الزمان فإنما

ستسري بوديان به وحزون

ولإيليا أبي ماضي صاحب " الجداول " و" الخمائل " في هذا المضمار صولات وجولات وهو صاحب القصائد البديعة الداعية إلى الحب الإنساني والتحلي بآداب الاختلاف والاعتصام بمبدأ التسامح وهذه الأبيات خير ما ندلل به على هذه النزعة :

إني إذا نزل البلاء بصاحبي

دافعت عنه بناجذي ومخلبي

وشددت ساعده الضعيف بسا

عدي وسترت مكنبه العري بمنكبي

وأرى مساوئه كأني لا أرى

وأرى محاسنه كأن لم تكتب

وألوم نفسي قبله إن أخطأت

وإذا أساء إلي لم أعتب

ولا يمكن أن نغفل " ناسك الشخروب " ميخائيل نعيمة المغترب في أمريكا قبل التوحد في مغارة بمسقط رأسه " بسكنتا " وله قصيدة رائعة طافحة بالمعاني الإنسانية النابذة للحرب الداعية إلى الأخوة والتسامح وهي من قبيل الشعر المهموس كما وصف هذا اللون من الأدب الناقد الكبير المرحوم الدكتور محمد مندور، ذلك الأدب الخافت الصوت الذي يلج إلى القلب مباشرة ويستقر في قراراته محولا سلوك الإنسان إلى سعي حثيث نحو معارج الإنسانية الحقة يقول نعيمة:

أخي إن ضج بعد الحرب غربي بأعماله

وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله

فلا تهزج لمن سادوا ولا تشمت بمن دانا

بل اركع صامتا مثلي بقلب خاشع دام

لنبكي حظ موتانا

وتأمل أيها القارئ استهلال المقطع بكلمة " أخي" وهي كلمة استهل بها الشاعر كل مقطع من مقاطع القصيدة، وما تفعله في القلب– قلب القارئ– عربيا أو أعجميا كان !

وأما الثورة على الظلم والتنديد بالطبقية واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان فالشعر المهجري خير شعر جاهر بذلك وقد هرب أولئك المهجريون من بطش العثمانيين وآلمهم ما تركوا فيه أوطانهم من جور وفساد وامتصاص الأقوياء لدماء الضعفاء واستشراء الفساد والإقطاع وقد أمدهم وجودهم في العالم الجديد بمعاني العدالة الاجتماعية والمساواة والكرامة الإنسانية وبزاد وفير منها بل امتد نقدهم حتى إلى المجتمع الأمريكي ذاته، وخير أديب ندد بذلك هو فيلسوف " الفريكة" أمين الريحاني حين فضح استغلال البيض للسود وتردي إنسانية الإنسان بهذا الانتهاك الصارخ للكرامة البشرية في بلد تغنى بالحرية واتخذ لها النصب .

وفي مطولة " على بساط الريح" للشاعر الشاب فوزي المعلوف الذي قضى في ريعان العمر تنديد بهذه المظالم يقول فوزي:

أنا عبد الحياة والموت أمشي

مكرها من مهودها لقبوره

عبد ما ضمت الشرائع من جور

يخط القوي كل سطوره

بيراع، دم الضعيف له حبر

ونوح المظلوم صوت صريره

وشارك الشاعر شفيق المعلوف أخاه فوزي هذه الخصيصة فامتد حدبه حتى على الفلاح ورأى على جبينه النور ولم يره على جبين السلطان:

وفى الحياة ديونها

كرما وما وفيت ديونه

عرق الجهاد همى على

عينيه فانطبقت جفونه

هلا نظرت جبينه

كم فيه لؤلؤة تزينه

ضنت عليه بالدموع

عيونه فبكى جبينه

وتعتبر قصيدة " المواكب" لجبران إنجيل الثورة ضد تردي القيم وميوعة الإنسان وتحلل القيم ونشاز النفس الإنسانية فيصير الاستغلال قيمة والظلم مبدأ إنسانيا يقول جبران :

والعدل في الأرض يبكي الجن لوسمعوا

به ويستضحك الأموات لو نظروا

فالسجن والموت للجانين إن صغروا

والمجد والفخر والإثراء إن كبروا

فسارق الزهر مذموم ومحتقر

وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر

وأما الحرية تلك الحورية التي لهج بذكرها الشعراء وضحى في سبيلها الأعيان والعلماء والتي هي الغاية والمبتغى من الوجود الإنساني والتي يؤدي غيابها إلى عبثية الوجود بل عدميته، وهل الإنسان إلا ذلك الكائن الذي يتميز عن غيره من الموجودات بالنزوع إلى الحرية والوعي بها؟، فهي قيمة إنسانية تستحق أن يضحي لأجلها الإنسان، وقد أخذت من اهتمام أدباء المهجر الكثير، وما لجأوا إلى العالم الجديد إلا سعيا لأجلها وهروبا من أغلال الاستبداد وقيود الحاجة التي تحيل الكائن البشري إلى ورقة ذاوية تتقاذفها الرياح ذات اليمين وذات الشمال، بعد أن كان برعما في فنن الوجود يبشر بالإثمار والإيناع .

وكما قال نعمة قازان المغترب في البرازيل:

هي النفس تحيا بإحساسها

وليس على الحس من قدرة

ربيت طليقا على فطرتي

وما أحيلى طفولتي!

ويستثنى من شعراء المهجر هذا الشاعر الذي تجد في شعره قلقا في التعبير ولغة شعرية ساذجة وأخيلة مبتذلة إلا في القليل النادر.

وإذ يتأمل الأديب المهجري من موقعه الجديد في واقع عالمه العربي المتردي في دركات الجهالة، المتخبط في غياهب الاستبداد، يحزنه غياب الحرية فتراه يثور في أدبه محولا شعره أو نثره إلى شواظ من جمر ولهيب من نار عسى أن ينتفض الشعب في سبيل نيل حريته واقرأ هذين البيتين للشاعر السوري نسيب عريضة المغترب في أمريكا يخاطب وطنه:

مشت القرون وكل شعب قد مشى

معا وقومك واقفون ونوم !

لم ترتفع كف لصفعة غاشم

فيهم ولم ينطق بتهديد فم

واقرأ الشاعر القروي تلقه نفسا ثائرة وضميرا معذبا وعقلا حرنا على شيء واحد هو الحرية:

أنت حر فاستوطن البلد الحر

وصاحب من أهله إخوانا

مثلك الكون والزمان فلا تلح

مكانا ولا تسب زمانا

ليس في قضمك الحديد هوان

إن في بثك الشكاة هوانا

ويلفت نظرنا الشاعر الدمشقي جورج صيدح المقيم في الأرجنتين إلى مفهوم أوسع للحرية يتجاوز المفهوم المألوف الساذج يقول صيدح:

غير أني عشت عمري في الشذا

فعرفت الفرق مابين الورود

إنما الشعر انطلاق للذرى

واندفاق نحو أغوار وبيد

إنه البحر الذي أمواجه

تتتالى حرة ضمن الحدود

وهذه حرية الإبداع والتصور والفكر والشعور !

ولا يمكننا أن نغفل شاعرا كبيرا ونعني الدكتور أحمد زكي أبا شادي فما كانت هجرته إلى أمريكا إلا رحلة بحث عن الحرية في وطن جديد اتخذ للحرية تمثالا ضخما في مرفأ مدينة نيويورك:

لجأت إليك يا وطنا تغنى

به الأحرار واعتز النشيد

فإنك منبري الحر المرجى

وبدء نهاري بل عمر جديد

كما يعتذر إيليا أبو ماضي لوطنه لبنان حين هجره لا ملالة بل بحثا عن الحرية وهروبا من الفساد والقمع:

لبنان لا تعذل بنيك إذا هم

ركبوا إلى العلياء كل سفين

لم يهجروك ملالة لكنهم

خلقوا لصيد اللؤلؤ المكنون

لما ولدتهم نسورا حلقوا

لا يقنعون من العلا بالدون

ولا ننسى جبران فهو كعادته يتجاوز في فهمه وإدراكه لحقائق الوجود المألوف والعادي فهو زلزال يهدم يقينيات القارئ وإعصار يجتث جذور المعاني الهرمة في عقولنا ونفوسنا ولعله يبالغ أحيانا إلى درجة بث الفوضى العقلية والحياتية

حين يحمل معول الهدم منقضا على البنى الاجتماعية والتاريخية غير عابئ بالمعطيات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية والتي لا شك يجهل الكثير منها غير أن غيرته على الشرف الإنساني

واستماتته في الدفاع عن حرية الإنسان المغيبة أحقابا هي ما يشفع له تطرفه، يقول جبران بعقل فلسفي ثاقب ونفس بحاثة شكاكة: " إن بلية الأبناء في هبات الآباء ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه و أجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات " .

ويقول أيضا : " أنت تنظر بعين الوهم فترى الناس يرتعشون أمام عاصفة الحياة فتظنهم أحياء وهم أموات منذ الولادة ، ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم " .

ونختم هذا المقال بذكر قيمة إنسانية أخرى حوم حولها الأدب المهجري وما كان له أن يغفلها وهو الأدب الباحث عن دروب الحرية والكادح في سبيل كمال الإنسان ونعني بها نزعة التأمل تلك النزعة التي تنتهي بصاحبها إلى رمي القشور والاكتفاء باللباب

ولا تقنع بالألفاظ وأكثرها براق ورصيدها من الحقيقة الإنسانية قليل ، وقد حوم الأدب المهجري حول مفهوم السعادة ونسبيتها وركز على ما هو جوهري في الوجود الإنساني وما الرفاه المادي إلا وسيلة يفترض أن تزيد من سعادة الإنسانية ككل لا أن تتحول إلى غاية وامتياز للبعض دون الآخر ومظهر من مظاهر الطبقية والاستغلال .إذا فقد حوم الأدب المهجري حول هذه المعاني وامتد حومانه إلى الميتافيزيقا ووقف أمام الموت وقفة الخاشع لمواجهة هذا المصير الحتمي لا على أنه عدمية بل رحلة إلى عالم آخر وليس شرطا أن تكون هذه الرحلة متفقة مع المفاهيم الدينية بل بعضها مستمد من الفلسفة الإشراقية والهندية وكالقول بوحدة الوجود أوالفيض أوتناسخ الأرواح وكلها بهدف تفسير الوجود الإنساني والموت وبث السكينة في النفس الإنسانية الحائرة المعذبة القلقة من مواجهة الموت، وقد قال إيليا أبو ماضي متعمدا الإحالة العلمية والفنية :

إن الحياة قصيدة أعمارنا

أبياتها والموت فيها القافيه

متع لحاظك في النجوم وحسنها

فلسوف تمضي والكواكب باقيه

وهي دعوة إنسانية إلى الاستمتاع ببهاء الكون والاندغام في مظاهر الوجود وتذوق حلاوة الحياة تناسيا للموت والعدمية ، غير أن جورج صوايا المغترب في الأرجنتين تراه في تأمله الإنساني يذهب مذهب أبي العلاء ويتفلسف على شاكلته ناصحا إيانا بنشدان الراحة في الهجوع الأبدي مادامت الدنيا دار أوصاب و مظاهر خادعة وسرابا مضللا وفناء حتميا :

أيها الواجف من طيف الممات

ينشد الغبطة في طول البقـاء

ليس لولا الموت في الكون حياة

فتوجه صامتا نحو السكون !

أيها الهاجع في الوادي الظليل

حاضرا كالحلم في فكر الدهور

بدد الحلم انقضى الليل الطويل

فمتى اليقظة من هذا الهجوع

يذوي المرء ويذبل كالزهور

هل ترى ينعشه ظل الدموع ؟

وندرة حداد الحمصي المغترب في أمريكا ينتهي في تأملاته الإنسانية إلى الإقرار بالحياة الاضطرارية وهاهو ينصحنا بالعيش لأنه لا خيار إلا ذلك متحملين أخف الأضرار :

كم تمنينا صغارا

أن نرى يوما كبارا

ثم صرنا نتمنى

اليوم لوعدنا صغارا

هي دنيا كيفما دا

رت عليها المرء دارا

وكما سن لنا نحيا

ولم نعط الخيارا

واقرأ هذه التأملات الشعرية وما تنطوي عليه من معاني إنسانية تبحث عن الحرية الكاملة ونبالة الحس ستجزم أنها ثمرة فكر وقاد وبصيرة ثاقبة وسوف يأخذك العجب لو علمت أنها لشاب مات يافعا في حدود الثلاثين من عمره وأظنك تعرفه هو فوزي المعلوف :

بين روحي و بين جسمي الأسير

كان بعد ذقت مره

أنا في التراب وهي فوق الأثير

أنا عبد وهي حرة

عبد عصر من التمدن نلهو

ظلة عن لبابه بقشوره

عبد مالي أسعى إليه فأحظى

بعد طول العنا بوطأة نيرة

عبد اسمي أذيب نفسي وجسمي

طمعا في خلوده وظهوره

عبد حبي جعلت قلبي مأوا

هـ فأضرمت أضلعي بسعيره

واقرأ إيليا أبا ماضي ثانية تراه ينصحنا بالحياة والاستمتاع بها ولو في أخلق الأسمال ، ذلك أن السعادة ليست في القصور والرياش ، بل إنها شعور نفسي غامر يفيض من القلب على المحيا مشعا إشعاعا نورانيا :

أيها الشاكي الليالي

إنما الغبطة فكره

ربما استوطنت الكوخ

وما في الكوخ كسره

وخلت منها القصور

العاليات المشمخره

تلمس الغصن المعرى

فإذا في الغصن نضره

وإذا رفت على القفر

استوى ماء وخضره

وإذا مست حصاة

صقلتها فهي دره

وما أروع قول القروي على لسان الطبيعة – وقد انتهى في تأملاته الإنسانية إلى أن الإنسان الحقيقي لم يولد بعد– وكأن رحم الغيب مازالت تحتبل به مؤجلة ميلاده إلى أمد مازال بعيدا حتى تكدح الإنسانية وتجاهد في سبيل الحق والخير والعدل فحينها تستولده من تلك الرحم يقول القروي :

مررت بأترابي التاجرين

فلم ألق إلا العبوس الوقورا

فملت إلى الحقل حيث الصغار

تناغي الطيور وتجني الزهورا

فهل صار كل رفاقي كهولا

وهل أنا وحدي ظللت صغيرا؟

فأسمعني الطير عند الصباح

جواب الطبيعة لي تنشد

بني ولدتك طفلا جديدا

فقل للرفاق الألى تعهد

لقد ملأ الأرض أولادكم

وأنتم إلى الآن لم تولدوا

والخلاصة أن هذا الأدب كان إذا فتحا جديدا في حياتنا الأدبية والفكرية وهو ميراث فني وفكري وإنساني نعتز به ، فقد خرج من رحم المعاناة وجمر الغربة وكدح المعرفة ، وقد جدد وجه أدبنا ونفض عنه غبار الماضي وحقنه بمصل الحيوية والقوة فاستوى يافعا، جلدا، زخارا بالقيم الجمالية والشعورية والإنسانية ، لم تكن لغته لغة القواميس بل تتبنى البساطة فوجد فيها الإيحاء والجمال، وصان عرضه عن التكلف والرياء والمديح

الزائف ، والتزم بغير رعونة الإيديولوجيا وخطابية المنابر وحماسة الصالونات بقضية النهضة والكرامة العربية والإخلاص للأمة والوفاء لماضيها العريق ، ولئن عرف عن بعض أدبائه تساهل في اللغة عن عدم معرفة وخروج على قواعد العروض أحيانا ، ولئن شاع عن البعض الآخر تمرد حد الانحراف والمبالغة المضللة فيشفع لهم جميعا حرصهم على غد عربي مشرق ومودة إنسانية خالصة متسامحة، متضامنة مستمسكة بالسلم ، نابذة للحرب معتصمة بالحرية ، عاشقة للفن ، متذوقة للجمال ، آخذه بسبب القوة والرفاه — أي العلم ، فحسبهم ذلك وحسبنا أن نتمثل هذه القيم في حياتنا ونغرسها في أجيالنا الشابة في وطننا العربي من المحيط إلى الخليج متجاوزين قيود العصبية الدينية والمذهبية، ساعين إلى نهضة أوطاننا وإلى إمداد العالم بالقيم الإنسانية الخالدة ، وهي لباب الحياة ، تلك القيم التي طفح بها الأدب المهجري وعاش لأجلها وهي كذلك لباب هذا الأدب بل لباب الوجود الإنساني.

النهر الخالد: تأملات في شعر ميخائيل نعيمة [1]

يعتبر الأديب والكاتب والناقد والشاعر اللبناني ميخائيل نعيمة حالة فريدة في دنيا الأدب والثقافة العربية الحديثة ليس لغزارة إنتاجه فحسب ، وإنما لعوامل شتى جعلت منه مثالا نادرا للأديب الفذ والمثقف الواعي والشاعر الحي الوجدان والإنسان الطافح بالمودة والتسامح والإخاء ولكأنه وعى في صدر شبابه مقولة أبي حيان التوحيدي :

" الإنسان أشكل عليه الإنسان " فاستبطن ذاته ونزل إلى قرارة نفسه بمبضع الفكر والضمير فاستأصل منها بذور الأنانية والحسد والشره المادي والغرور والكبرياء الزائف ، وتعهد فيها بذور التضحية والشرف وصدق القول والفعل والتواضع والزهد في متاع الدنيا فأينعت تلك البذور دوحة استظل بها في صحراء الحياة القاحلة ودعا إلى ذلك الظل من تاقت نفسه إلى الحقيقة والجمال وكمال الخلق .

وفي حياة الأستاذ ميخائيل نعيمة هدوء وسلاسة وانسياب تلقائي فهو أشبه بالنهر يجري إلى المصب بلا ضوضاء ولا تيه ، وقد أدرك مصبه منذ فجر شبابه إنه مصب الوجود حيث تتوحد الموجودات وتتناغم فتكون وحدة في كثرة ولونا موحدا في أطياف شتى وحياة واحدة في حيوات متعددة وما الإنسان والدودة والحجر والودق إلا مظاهر للوجود الواحد الحي الفاعل .

وبلا شك فمولده في بلد الأديان والتسامح (بسكنتا) بلبنان ودراسته في الناصرة ثم في روسيا القيصرية وأخيرا في أمريكا كانت تلك الرحلة منافذ للروح والعقل والضمير حررته من عصبية الدين والقومية الرعناء بلا رقيب من الفكر والشعور وأدخلته في رحاب الإنسانية الخالدة فجاء أدبه صورة لفكره ولوجدانه بلا تزويق أو أصباغ فهو الأديب المسئول والشاعر الهامس على حد وصف أستاذنا الدكتور محمد مندور لجماعته ، ليس في حياته الخصام والنقد الجارح

---

[1] . مجلة صوت العروبة أمريكا 2007

والكلام النابي على عادة كتابنا في ذلك العهد أو ليس هو القائل : " عجبت لمن يغسل وجهه كل يوم ولا يغسل قلبه مرة في السنة "؟ بلى وأهميته الشعرية تكمن في تحرير الشعر العربي من الخطابية والحماسة الزائفة والرياء الماكر .

صحيح ففي النصف الأول من القرن العشرين ظهرت مدارس شعرية جددت الشعر العربي شكلا ومضمونا وتخلت عن طرائقه القديمة وقصرته على الوجدان وهموم الحياة الحديثة فجماعة "أبولو" و"جماعة الديوان" ولفيف آخر من الشعراء حقق هذا الإنجاز .

أما النتاج الشعري لجماعة "أبولو" فغلبت عليه الغنائية الحزينة وكثر فيه النحيب وطغت عليه السوداوية والاندفاع الصارخ وأما النتاج الشعري لجماعة الديوان

– وأخص العقاد بالتحديد– فجاء في معظمه فلسفة وعمارة منطقية، وغير هاتين المدرستين ممن جرى مجرى حافظ وشوقي فوقع بين مطرقة التصنع والتحذلق البياني وسندان المناسبات.

أما شعر ميخائيل نعيمة فقد تخلص من هذا كله كان كالمنهل أو كانت نفسه غورا مسها بعصاه فانبجست منها عيون رقراقة سلسة تغذي العقل والوجدان توحي إليك كلماتها دون أن ينضب معينها ويهمس لك شاعرها في أذنك حتى يكون قريبا من وجدانك وقلبك دون أن تذهب الكلمات أدراج الرياح إن اعتلى المنابر.

اقرأ معي هذا المقطع من قصيدته"أخي" تجده يقول:

أخي إن ضج بعد الحرب غربي بأعماله

وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله

فلا تهزج لمن سادوا ولا تشمت بمن دانا

بل اركع صامتا مثلي بقلب خاشع دام

لنبكي حظ موتانا.

فهذا المقطع يستعلي على المنابر ويتجافى عن المجامع ، لا تجد فيه أثرا للخطابية ،إنه مقطع يخلو فيه الإنسان إلى نفسه ويقرؤه لنفسه يغذي به وجدانه وعقله ، وفي هذا المقطع دلائل شتى لعل أهمها منزعها الإنساني المتجلي في كلمة" أخي" ونزوعها السلمي وعهدنا بشعرائنا القدامى يتحمسون لساحات الوغى ويهيبون بالمهند والرديني وقراع الكتائب.

إنه شعر يلج من الأذن ليستقر في القلب فيغير ما به وليس بالشعر الذي يردد في المناسبات بالتفخيم ومد الصوت فيلج إلى الأذن الأولى ليخرج من الأذن الثانية وفي قصيدته " صدى الأجراس" هنا نقبض على الخصائص الفنية التي تميز شعر ميخائيل نعيمة فالتصنع والتكلف وانتقاء اللفظ البراق والتفتيش في لسان العرب والقاموس المحيط عن اللفظ الدال على الملكة اللغوية أو كد الذهن في البحث عن استعارات رائعة أو تشبيهات غير مسبوقة والنزوع إلى الأبحر الطويلة النفس (الطويل، الكامل، البسيط) وحشد الشعر بالإحالات العلمية والفلسفية ليست من الخصائص الفنية لشعره.

فالشعر عنده سليقة والسليقة بنت الطبيعة والطبيعة أطياف وأحياء ومشاعر وأفكار قدد اقرأ معي هذا المقطع من قصيدته " صدى الأجراس " لتقع على صحة هذا الرأي:

بالأمس جلست وأفكاري

سرحت تستفسر آثاري

وترود الحاضر والماضي

أملا أن تدرك أسراري

وأفاق الشك وأنصاره

آلام العيش وأوزاره

بالله شكوكي خلني

وحدي ذا الصوت يناديني

ذا صوت صباي يردده

الوادي وشواهق صنيني

العالم مملكتي وأنا

سلطان العالم والدهر

الزهر يعطر أنفاسي

والزهر يولد في رأسي

أشباحا راقصة لخرير

الماء وصوت الأجراس

ما بال سكينتي اضطربت

وجحافل أشباحي هربت؟

قد عاد الشك وأنصاره

آلام العيش وأوزاره

وقد تصرفنا في هذه القصيدة الطويلة لندلل على صحة رأينا في شعره إنه الشعر الهادئ الذي يجد مصبه في وجدان القارئ لا في أذن السامع والشاعر هنا يتعبد في محراب الطبيعة بفرح طفولي ويستذكر شوامخ صنين ويعابث الزهر ويناغي النهر لولا تباريح الشك وتصاريف الحياة ونكد الفكر . وقد كان شعرنا العربي بحاجة إلى هذا النوع من الشعر — شعر القلب والعقل — شعر الاندغام في الطبيعة والوجدان ، فتصير الطبيعة والشاعر واحدا بعد أن كانت موضوعا.

فميخائيل نعيمة ليس الشعر عنده معرفة (أي علما) وليس الشاعر هو الذي يعدد لك الأشياء ويتلاعب بتشبيهاتها، ويقول لك ما هو ذلك الشيء بل الشعر عنده قبسة من نور الوجود ورشفة من محيط الحياة وحبل سري موصول

بمشيمة الكون يحس من خلاله قارئ شعره بإنسانيته تفيض على الوجود وبأخوته حتى للدودة وقد خاطبها مرة في إحدى قصائده بـ "ياأختاه".

ومازلت أذكر أيام الصبا وأيام الدراسة الابتدائية حين كنا تلامذة في الصفوف الابتدائية كيف كنا نحفظ قصيدته " لست أخشى" ونرددها في الأزقة بل ويرددها كل لنفسه وأنا واحد منهم.

كيف استطاع هذا الرجل أن ينفذ إلى قلب الطفولة العميق الغامض وإلى نفسها العجيبة المتقلبة فتأبى الطفولة أن تنسى تلك القصيدة التي منها هذه الأبيات؟ :

سقف بيتي حديد

ركن بيتي حجر

فاعصفي يا رياح

وانتحب يا شجر

واسبحي يا غيوم

واهطلي بالمطر

واقصفي يا رعود

لست أخشى خطر

من سراجي الضئيل

أستمد البصر

كلما الليل طال

والظلام انتشر

وإذا الفجر مات

والنهار انتحر

فاختفي يا نجوم

وانطفئ يا قمر

باب قلبي حصين

من صنوف الكدر

وازحفي يا نحوس

بالشقا والضجر

لست أخشى العذاب

لست أخشى الضرر

وحليفي القضاء

ورفيقي القدر

وقد استخدم الشاعر مجزوء المتدارك ، والشاعر معروف باستخدامه الأبحر النادرة لأنها تحقق مأربه في التجديد .

فلما كبرنا واتسعت مداركنا ودرسنا نظريات الفن والشعر وألممنا بالمذاهب الأدبية وبمستويات الدلالة وحفظنا عشرات القصائد القديمة والمحدثة أدركنا ما في هذه القصيدة من جمال فني ، ففي عهد الطفولة الغض فهمنا مظاهر الطبيعة على حقيقتها المطر، الليل ، الفجر ، القمر ، ركن البيت ، سقف البيت ، وهذه الدلالات تناسب عهد الطفولة وأما دلالاتها الأخرى فهي فلسفية عميقة إنها الحلولية الكونية ، حيث تتماهى ذات الشاعر مع الموجودات الموحدة في كثرتها فتستمد من ذلك الوجود السكينة

والوداعة والرضا بالقدر وتتنعم بإنسانيتها الواعية الخلاقة بلا كبرياء أو جبروت زائف إنها النهر يجري منسابا ثابت الخطى إلى مصب الوجود العظيم.

لهذا نفهم لماذا أعرض ميخائيل نعيمة عن الزواج والنسل والإغراق في المتع الحسية وتعبد في"الشخروب " فلقد وجد هناك بهجة الروح وسلوى الخاطر وتناغمت خفقات قلبه مع حفيف الشجر وانسجمت أنفاسه مع خرير الماء وجاء شعره تعبيرا عن هذا الموقف الفذ والحالة الإنسانية الفريدة التي أضافت إلى شعرنا ما كان ينقصه وسدت ثغرة كان من حق الغير أن يعتبرها مثلبة ونقيصة في أدبنا فتحية إلى ناسك "الشخروب" في رقدته الأبدية ولنا في شعره الغذاء للروح والفرح الطفولي والموقف الصوفي النبيل.

بشارة الخوري [1]

نشوة الفرح وحسرة الزوال

ليس في أدباء لبنان المحدثين من مثل روح لبنان فكان صورته الصادقة مثل الشاعر الكبير بشارة الخوري أو الأخطل الصغير(1885-1968)، فقد كان نسمته المنعشة تهب على القارئ فتنفحه بأريج الخزامى والعرار، فشعره انعكاس لطبيعة لبنان وأطيافها الأخاذة المازجة بين بهرج الألوان وتناسقها في غير نشاز أو تكلف، إنه الصوت الذي يبرعم في وجدان القارئ وينشر أفنانه في روحه على مدى العمر مذكرا إياه بشواهق صنين ومرابع زحلة ودروب كفرشيما وسواحل صيدا وصور حيث زرقة البحر تلقي بأمواجها معانقة الشاطئ الذهبي وقد استلقت عليه الأبكار يتضاحكن ويتغامزن على المار قبالتهن شارد الذهن مفتونا بسحرهن، وقد أشعلن في القلب نارا وبثن في الروح حنينا لمعانقة الجمال والإمساك به حتى لا تحجبه غيوم الزمن وعواديه.

كذلك كان بشارة الخوري شاعرا فذا أدرك طبيعة الشعر وسره فنزه شعره عن أن يكون نظما، وألقى به في أحضان الجمال متعبدا في محرابه، محرقا البخور بين أقدام " أبولون" لعله يبارك شعره ويمنحه إكسير البقاء.

وليس يعني هذا عند الأخطل الصغير التنكر للقضايا الوطنية والقومية وقصر الشعر على وصف لواعج الهوى ونشوة المدام مادام الشعر هو الإمساك باللحظة .والإنقاذ لها من العدمية وإصباغ المعنى عليها تنزيها لها عن العبثية والعماء ،وليس الشعر ما يثير الغرائز فقد تتكفل بذلك أحط الصور وأحط أنواع الموسيقى وفي ذلك إهانة للشعر وتطاول على عصمة الروح الشعرية المصونة عن الإسفاف والتردي ، وما خلق الله الشاعر ليكون شاعرا تحت الطلب يدبج القصائد إرضاء للحاكم وبطانته ويمجد الأيام والوقائع بناء على طلبات سياسية أو إيديولوجية فالشاعر قلب كبير يرفض الإكراهات والإملاءات ويتمرد عليهما ،وكما يفهم الشعر على أنه رؤيا تنزل منه منزلة اللحمة وينزل الإيقاع منزلة السدا لا تفوته أبدا نكبات أمته وأفراحها وتعشق أبناء الوطن للرفاه والتقدم والحرية ، فتراه يدلي بدلوه في القضايا

---

[1] . مجلة ديوان العرب 2008

الوطنية والقومية عن غيرة صادقة وود خالص وشهامة إنسانية بلا تكلف أو رياء حتى لا تسف به الإيديولوجيا وتقصيه عن مملكة الشعر .

وهو لم يطوف في العالم الجديد كما طوف شعراء الرابطة القلمية أو العصبة الأندلسية وأقام في لبنان إلى وفاته إلا أنه أدلى بدلوه في القضايا السياسية لوطنه الصغير لبنان ووطنه الكبير العالم العربي ، يدفعه إلى ذلك حرصه على نهضة الأمة وتحطيم أغلال الاستعمار الأجنبي أوالاستبداد السياسي وإذ أصدر جريدة " البرق الأدبية " الأسبوعية ثم اليومية فقد كان حريصا على نشر الأدب الرفيع والارتقاء بالبيان العربي إلى عصره الزاهر ولم شمل أدباء لبنان لتكون البرق منبرهم الحر، وهو إن تردد على بغداد أو دمشق أو القاهرة وهي حواضر الثقافة العربية فلإلقاء قصيدة أو تأبين

زعيم، يحدوه في ذلك الأمل في وحدة عربية يكون الشعر باني أساسها وموطد دعائمها:

فلولا خلال سنها الشعر ما درى

بناة المعالي كيف تبنى المكارم

و إنه لحقيق بإمارة الشعر التي بويع أميرا عليها في بيروت عام 1961 فقد كان استمرارا لجيل الشعراء الكبار كالبارودي وشوقي وحافظ ومطران كما كان قلبا رؤوما تشغله قضايا أمته فيفرح لفرحها ويحزن لحزنها .

وها هو الشاعر في مرثاته لسعد زغلول (1927/1857) يكشف عن حس قومي ونبالة عروبية ونزعة إنسانية واقرأ له هذا المقطع يرثي زعيم مصر الكبير ومؤسس حزب الوفد لتقع على صحة هذا الرأي :

قالوا دهت مصر دهياء فقلت لهم

هل غيض النيل أم زلزل الهرم ؟

قالوا أشد وأدهى قلت ويحكم

إذن لقد مات سعد وانطوى العلم

لم لا تقولون أن العرب قاطبة

تيتموا كان زغلول أبا لهم ؟

لم لا تقولون أن الغرب مضطرب

لم لاتقولون أن الشرق مضطرم ؟

لطف المسيح مذاب في حناجره

وعزم أحمد في جنبيه يحتدم

صلى عليه النصارى في كنائسهم

والمسلمون سعوا للقبر واستلموا

وفي البيت الأخير ترى الشاعر يذكر النصرانية إلى جانب الإسلام كما كان ذلك دأبه مؤكدا الأخوة العربية حيث يتعانق الهلال والصليب، فلن يكون اختلاف الدين سببا في الخلاف والبغضاء والفرقة فالمسيحية والإسلام دوحتان وارفتان يستظل بهما أهل لبنان ومصر درأ لقيظ السياسة ووعثاء الطائفية في ود كبير وهما دوحتان نبتتا في تربة المشرق فكانتا من مآثره وآيات تفرده وفي ديوان الأستاذ بشارة الخوري

"الهوى والشباب" قصائد كثيرة تميزها سلاسة اللغة مع حرية الشاعر وتمكنه من البيان العربي وأصالة الخيال الذي يتوكأ عليه الشاعر فيسعفه أحيانا بالصور الشعرية الفريدة وأما الموسيقى في ثنايا النص ذاته أو خارجه فهي روح شعره كأنها النخاع الذي يملأ تجويف العظم ويمده بأسباب القوة والبقاء .

ولا شك أن قارئ شعره يقف على حقيقة مفادها أن شعره يحوم حول الجمال أنى ترصده الشاعر في الوجوه أو في الموسيقى أو في النصوص الأدبية ، ولا شك أن طبيعة لبنان قد أيقظت حواسه لتذوق الجمال كما أنه أفاد من إتقانه الفرنسية واطلاعه على عيون الأدب الفرنسي خاصة أدب هوغو ولامارتين، وألفريد دي موسيه وألفريد دي فينه، ورامبو وبودلير ، وفي ديوانه بعض النصوص المعربة عن الشعر الفرنسي التي تكشف تأثره بالثقافة الفرنسية غير أن ميوله العربية أشد وأقوى .

لقد كانت حياة الأخطل الصغير كشاعر وإنسان تترنح بين ثنائية لامناص من الإفصاح عنها إنها ثنائية السرور والحسرة ، فما ذكر الجمال والحب والخمرة والأنس والنشوة إلا أعقبه بذكر الخوف والزمن الحامل معوله لهدم الأحلام وإحراق الرؤى وإصابة الخلايا بالعجز والتلف ، ويدفع الشاعر رغما عنه إلى الحنين إلى طفولته وشبابه حيث القوة و اللامبالاة وشرخ الشباب الفتان :

هل لي إلى تلك المناهل رجعة

فلقد سئمت الماء غير قراح ؟

رجعى يعود بي الزمان كأمسه

صهباء صارخة وليل ضاحي

أشف روحها وأعطي مثلها

روحا وأسلم ليلتي لصباحي

روح كما انحطم الغديرعلى الصفا

شعبا مشعبة إلى أرواح

للحب أكثرها وبعض كثيرها

لرقى الجمال وبعضها للراح

ولعل الشاعر قد كفى القارئ والباحث كليهما مشقة البحث في خصائص شعره وسر حياته لما تلقب بالأخطل الصغير فهو قد طمح في حياته الأدبية إلى أن يضاهي شاعرية الأخطل ويمتلك رؤيته الشعرية وقدرته البيانية ولعل الأخطل الكبير كان قدوة الأخطل الصغير الذي يقول في الكأس والوتر داعيا إلى الصخب ودرء النوم الموحي بالهجوع :

يا صارف الكأس عنا لا تضن بها

ويا أخا الوتر المكسال لا تنم

أدر علينا من الصهباء أفتكها

وخدر العصب المحموم بالنغم

قد يشرب الخمر من تعلو الهموم به

وقد يغني الفتى من شدة الألم

و كأن الإنسان عند الأخطل الصغير لا يعيش إلا لأجل سويعات صفاء يمسح بها الكدر عن قلبه وينتشي بسرور يراه مهيمنا في مجلس أنس ولا يذكر الشاعر الخمرة إلا قرنها بالنغم و كأن نشوة المدام لا تتأتى إلا بنشوة الإيقاع .

والأخطل الصغير شاعر غزلي وهل يغض الشاعر طرفه عن الجمال الكائن في الخد الأسيل والقد المياس والعين النجلاء والصدر المرمري ؟ والمرأة ملهمة الشعراء ودرة الوجود ومعقد السحر والفتنة والقرب منها من نعيم والبعد عنها من جحيم وفي غزل الشاعر كبرياء رجولة وشهامة نفس وأنفة لا ترضى التهتك والفحش، إنه غزل إنساني على الرغم من تصريحه بذكر النهود والصدور والقبلات ، ولا يمكن للشاعر أن يسف بالهوى إلى دركات الغريزة ، وفي ديوانه قصيدة تجري مجرى القصة الشعرية عن فتى عب من اللذة المحرمة وأكل من الشجرة الملعونة في أحضان ساقطة حتى أسلمته الفاحشة إلى الداء العياء و أسلمه هذا إلى ظلمات القبر.

ولم يكن الأخطل الصغير في غزله مثل جميل بن معمر أو قيس بن الملوح يكتفي بامرأة واحدة تختصر في وجدانه مملكة النساء يبثها هيامه ويشكوها سهاده ويستعطفها وصالا ويستجديها نظرة حانية ، بل كان فراشة حوامة تطير من روض إلى روض

وتحط على زهرة وعينها على زهرة أخرى، مادامت الغاية الاستمتاع بفتنة القد وسحر الخد وسعار القبلة المجنونة ، وتتولى الخمرة مباركة الوصال ومضاعفة

النشوة :

فتن الجمال وثورة الأقداح

صبغت أساطير الهوى بجراحي

ولد الهوى والخمر ليلة مولدي

وسيحملان معي على ألواحي

يا ذابح العنقود خضب كفه

بدمائه بوركت من سفاح

أنا لست أرضى للندامى أن أرى

كسل الهوى وتثاؤب الأقداح

وقارئ شعره لا تفوته ميزة تميز شعره وربما حياته ، وما كان الشعر إلا مسفرا عنها وتلك هي أنة التحسر وهي حاضرة في جميع مجالس أنسه جنبا إلى جنب مع الفرح والانتشاء فمهما سعى الشاعر إلى الصفاء و أخلص في طلب السرور ، فالزمن سيذرو ذلك حطاما ولن يجد الشاعر في يده غير الخواء ورماد الذكرى ، وصاحب الجلالة الزمن سيقهر الشاعر بأن يعطب خلاياه ويثقل خطاه، ويتكفل المشيب ببقية الديكور الموحي بالعجز والضعف وما أحسن بلاغة الشاعر في الترميز له بالثلوج في قوله :

إلفان في صيف الهوى وخريفه

عزا على غير الزمان الماحي

دعني وما زرع الزمان بمفرقي

ما كنت أدفن في الثلوج صداحي

من كان من دنياه ينفض راحه

فأنا على دنياي أقبض راحي

إني أفدي كل شمس أصيلة

حذر المغيب بألف شمس صباح

وقد كانت حسرة الزوال قاسما مشتركا بين كثير من الشعراء من طراز الأخطل الصغير ألم يقل امرؤ القيس :

كأني لم أركب جوادا للذة

ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي مرة

ولم أقل لخيلي كري كرة بعد إجفال

وبعده الشاعر الفارسي عمر الخيام :

فجدد مع الكأس عهد غرامك

وحل مرارتها بابتسامك

وعجل فجوقة هذي الطيور

قد لا تطيل الطواف بجامك

فهؤلاء جميعا قد نهبوا اللذات نهبا وسابقوا سيف القضاء وفي النفس خوف من جبروت الزمن وتسليم فطري بانتصاره .

وقد جر صخب الحياة ونعيم الأنس وفتنة الجمال شاعرنا إلى النفور من النوم فعشاق الأنس يمقتونه لولا أنه ضرورة بيولوجية تجدد العافية ، ألم يقل الخيام:

فما أطال النوم عمرا ولا

قصر في الأعمار طول السهر؟

بلى فلا مناص من النفور من النوم لأنه يذكر بالهجوع الأبدي ، ومحاكاة لعالم الموتى والشاعر يريد صخب الأنس وضجيج الحياة يقول الأخطل الصغير :

يا صارف الكأس عنا لا تضن بها

ويا أخا الوتر المكسال لاتنم

وأما الملكة اللغوية وسلاسة التعبير وعذوبة الجرس وخصوبة الخيال فهي من خصائص شعر الأخطل الصغير لا تعاني لغته ضعفا أو قلقا في التعبير ، فقد كان الشعر ينبجس من نفسه بتلقائية كما ينبجس الماء من المنبع ، وعلى الرغم من أن الشاعر مارس شعر التفعيلة ركوبا لموجة التجديد كما ركبها شعراء العراق الكبار ولفيف من شعراء مصر ولبنان إلا أن الأخطل الصغير ظل في شعره الكلاسيكي الأنضج والأكثر إغراء ،وأما شعر التفعيلة الذي مارسه فليس بذي بال بالقياس إلى شعره العمودي ، تماما كما كانت قصائد صلاح عبد الصبور العمودية لا أهمية لها قياسا إلى شعره كما قرأناه في الظل و الصليب وغيره .فالأخطل الصغير مدين للبنان بالسحر الذي لف فيه شاعرنا مذ كان صبيا ويافعا وكهلا ثم هرما والشعر الحديث مدين لشاعرنا بعبقريته الشعرية التي أبدعت رؤى شعرية جميلة ولغة سلسة طيعة وصورا مبتكرة ، تحاشت المديح الزائف ، والتملق الكاذب والطابع النظمي الساذج والتقليد الأعمى، ولئن عانى الشاعر من فجيعة الزمن وحسرة الزوال – زوال ساعات الصفاء ولحظات الأنس– ثم زوال الشاعر نفسه فعزاؤه وعزاؤنا تلك الروح الشعرية الباقية والرؤى الخالدة والقصائد التي لا ينالها الزمن بسيفه المسلط على رقابنا جميعا .

بيدي لا بيدك عمرو [1]

ظاهرة الانتحار عند أدبائنا

وأما العنوان فهو مثل أطلقته ابنة الزباء ملكة الجزيرة وقنسرين لما وقعت في أيدي قصير وعمرو وكان لها خاتم فيه سم فمصته مفضلة أن تقتل نفسها قبل أن يقتلها عمرو.

هكذا يخبرنا صاحب فرائد الأدب في الأمثال والأقوال السائرة عند العرب.

وأما عمرو الذي نعنيه هنا في هذا المقال فهو القضاء أو القدر ويكون المثل بعد التحوير بيدي لا بيدك أيها القضاء ، وهكذا ينجلي المعنى ويتضح المقصد أي ظاهرة انتحار بعض أدبائنا وهي ظاهرة تستحق الالتفات إليها والكتابة عنها لأن الأديب أو المفكر هو صوت الأمة ولسانها وضميرها وعقلها وذهابه خسارة تصيب الأدب والفكر.

كان ميشال فوكو معنيا بالوضعيات الصعبة كالجنون وقد استمعنا إليه في حديث خاص مسجل عبر الفيديو وهو من أرشيف المركز الثقافي جورج بومبيدو في باريس يركز على هذه الوضعيات الصعبة لفهم العقل الإنساني وآلية تصرفه في خضم الحياة الاجتماعية والسياسية المعقدة.

وكان أستاذنا الكبير الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي رحل عن دنيانا منذ عهد قريب معنيا بهذه المآزق والوضعيات الحرجة فكتب " شخصيات قلقة" و" من تاريخ الإلحاد في الإسلام" إسهاما منه في كشف وتجلية المواقف الصعبة والحرجة بل والشاذة في تاريخ الفكر إنصافا للحق وأمانة في ذمة التاريخ.

أما ظاهرة الانتحار عند أدباء الغرب فهي ظاهرة مألوفة يعرفها قارئ العربية جيدا وليس في حاجة إلى أن أذكره بانتحار كوستلر،وهمنغواي، ويسنين ومایاكوفسكي، وكاواباتا، وفرجينيا وولف ، وجاك لندن وغيرهم، إنما تجدر الإشارة إلى انتحار الأدباء اليابانيين ذي الطقوس المعروفة بـ"الهاراكيري" ولقد نقل التلفزيون الياباني في السبعينات على المباشر انتحار الأديب مشيما بأن غرس السيف في صدره بينما تولى شخص أخر قطع رأسه والعجيب أن ذلك كان على المباشر وقد كتب عن هذا الحدث في إحدى مقالاته الأستاذ أحمد بهاء الدين الذي تصادفت زيارته إلى اليابان مع حدث الانتحار هذا.

---

[1] . مجلة العالمية المركز العربي الأمريكي للدراسات والأبحاث والنشر 2008

وللانتحار أسبابه والسبل المؤدية إليه ، فقد يكون الداء وأوجاعه واستحالة البرء منه ذريعة للعبور إلى ضفة العدم، ولكن الشائع في الانتحار عند الأدباء هو رفض المجتمع وقيمه واستحالة التكيف مع نواميسه فيلغي الأديب ذاته ويشطب نفسه من قائمة الأحياء بعد أن يدب اليأس في قلبه ويسكن في سراديب روحه وتلافيف مخه ، وعند بعض الأدباء والمفكرين حالة خاصة تصل بهم إلى الاعتقاد بعبثية الوجود الإنساني وبعماء الكون وانتفاء القصدية في الطبيعة والبشر وهذا يستلزم الوحدة والكآبة وتخلخل التوازن الذهني والنفسي يعجل بصاحبه إلى قعر الهاوية.

على أن الفشل والخيبة وعدم إدراك النجاح المتوخى والشهرة الكاسحة بعد عمل أو عملين أدبيين أو فنيين يصيب صاحبه باليأس وينتهي به إلى الموت الإرادي وهذا ما حدث بالتحديد للأديب الألماني هينرش فون كلايست الذي عاش في زمن غوته ففشل مسرحيته " الإبريق المكسور" عجل به إلى الموت الإرادي .

وكان المعري كعادته في طرق المسكوت عنه والإفصاح عن المكبوت قد تناول ظاهرة الانتحار في لزومياته ورأى بأنها حيلة الأنا في إنقاذ نفسها من تصاريف الحياة لولا الخوف من المجهول وهو خوف لا شعوري ، يقول المعري:

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة

مخشية لاعتراها الناس أفواجا

وكل من ألقت الدنيا عليه أذى

يؤمها تاركا للعيش أمواجا

كأس المنية أولى بي وأروح لي

من أن أعالج إثراء وإحواجا

وأغرب حادثة انتحار في أدبنا الحديث ما رواه الأديب الأستاذ إدوارد الخراط عن الشاعر الشاب المصري منير رمزي وهو من جيل الأستاذ الخراط وكان حينها أي في الأربعينات طالبا جامعيا، رهيف الحس، رحب الخيال ، سيال القلم ، آنس من نفسه القدرة على كتابة الشعر فاستجاب لمواهبه فنظم الشعر ولا شك أنه كان شعرا رومانسيا ، يصف خفقات القلوب ولواعج الهوى وألم السهاد والبعاد، وكان ذلك عهد صعود "أبولو" وشعراء الرومنطيقية الكبار رامي

وناجي وصالح جودت وأبي شادي وغيرهم وكان منهم منير رمزي الذي أحب فتاة جامعية ونظم فيها الشعر ولما كان حييا خجولا لم يجد القدرة على الحديث معها حتى شجعه الأصدقاء ولعل الأستاذ الخراط واحد منهم فلما لم تأبه الفتاة لكلامه ولا وضعت لحبه اعتبارا ولا لشعره قيمة قضى على نفسه ومات في ميعة الصبا.

أما الشاعر أحمد عاصي وأحسب أن مجلة الفيصل السعودية وفي عدد من أعدادها الصادرة في الثمانينات تناولت قصة حياته وتفاصيل موته منتحرا.

وكان أحمد عاصي كئيب النفس يحمل في وجدانه معاناة الوجود واليأس من الحياة وتباريحها، ولربما لم يحقق أحمد عاصي ما طمح إليه من شهرة كاسحة ودوي يخترق الآذان، خاصة والإنسان في حياته الأولى وفي صدر شبابه يتعشق الشهرة تعشق الفراش للنور ويسعى لشيوع الذكر سعيا غير كليل ، فقد يكون ذلك سببا لاختيار الشاعر الموت مختنقا ، بعد أن اكترى غرفة في أحد الفنادق وفي ليلة الرحيل تناول مخدرا أو منوما بعد أن فتح أنبوب الغاز يتسرب بهدوء وهكذا مات هذا الشاعر الشاب مختنقا بالغاز.

ويقص علينا الأستاذ صالح جودت في كتابه الصادر عن دار المعارف في سلسلة " اقرأ" وأذكر أن عنوان الكتيب هو " بلابل من الشرق" والأستاذ صالح جودت شاعر معروف كان من جماعة "أبولو" وكان صديقا لناجي وعلي محمود طه ،أقول يقص علينا قصة الشاعر صالح الشرنوبي(1951/1924) وكان شاعرا نزح من قرية من قرى مصر إلى القاهرة ، وعرف هذا الشاعر بليونته وتسامحه حتى أنه كان يتأبط ذراع راهب من رهبان الكنيسة وهما يمشيان سويا في شوارع القاهرة وهو القائل :

غدا يا خيالي تنتهي ضحكاتنا

وآمالنا تفنى وتفنى المشاعر

وتسلمنا أيدي الحياة إلى البلى

ويحكم فينا الموت والموت قادر

وقد كان شاعرا يائسا من الحياة ، يحمل هم الوجود وتصاريف الفكر وأعبائه فضل إنهاء حياته بإلقاء نفسه تحت عجلة القطار على طريقة الشاعر التشيكي جوزيف أتيلا بعد أن ترك في جيبه ورقة كتبها إلى أهله أوصاهم فيها بطبع ديوانه الشعري، هكذا يخبرنا صديقه الشاعر صالح جودت في كتابه الآنف الذكر.

أما الكاتب إسماعيل أحمد أدهم(1940/1911) فهو حالة خاصة ، درس الرياضيات العليا في روسيا وجاء إلى مصر وهو من أصول تركية يعلم بالجامعة ويكتب في الأدب وعرف بخصومته الشديدة لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ، ولربما أراد الشهرة لنفسه بافتعال الخصام ومعارضة النابهين والمشهورين، غير أن إسماعيل أدهم كان مضطرب الفكر متقلب النفس، ميالا إلى الإلحاد ولربما كان إلحاده انتقاما من الله بنفي وجوده وانتهاك محرماته أكثر مما هو جدل عقلي واستدلال منطقي وهو ما ندعوه بالإلحاد النفسي، وقد كتب كتابا بعنوان " لماذا أنا ملحد؟"،وحاول النيل من طه حسين بالتشهير به وتسفيه آرائه في الشعر الجاهلي واتخاذه مطية للصعود، أضف إلى ذلك كله مرضه بالربو ومعاناته من هذا الداء العضال كل هذه الأسباب اجتمعت فأقنعته بالتخلص من حياته فأغرق نفسه في البحر في مدينة الإسكندرية.

ولازال قراء العربية وأنصار الشعر الحديث والمتحمسون للشاعر الأردني تيسير سبول وهو من رواد الشعر الحديث في الأردن أقول لازالوا يذكرون انتحاره يأسا من الحياة العربية وإخفاقات الواقع ونكد السياسة وعربدة إسرائيل بعد نكسة حزيران 67 واحتلال الجولان والضفة الغربية وسيناء وهو الشاعر القومي الطموح المتغني بأمجاد قومه، المتوثب لنهضة عربية تعيد بهاء صورة الأمس ، وإلى حرب تستأصل فيها الصهيونية ، ولكن الطموح الكامن في روح الشاعر لم يجد الواقع الذي يتجسد فيه هذا الطموح ، فرحل تيسير سبول بيده لا بيد القضاء.

ويأتي في قائمة المنتحرين الشاعر اللبناني الكبير خليل حاوي (1982/1925) الشاعر والأستاذ الجامعي ، صاحب السمعة الذائعة والشهرة المدوية وهو شاعر كبير من رواد الشعر الحديث استملك أدواته وأتقن فنه فصار من الكبار من فئة صلاح عبد الصبور وأمل دنقل والسياب والملائكة والبياتي، واللافت في هذا الشاعر خريج الجامعة الإنجليزية والمتمكن من الثقافة العربية ميله إلى الوحدة والكآبة في سني عمره الأخيرة وكأنه استشعر راحة اليأس واستلذ مرارة الكآبة بعد عمر حافل خفق فيه القلب للأمجاد القومية، وتوثبت الروح للنهضة المنشودة واستشرف الشاعر قيام طائر العنقاء من رماده صحيحا معافى،مبشرا بعصر الخصوبة والربيع ونهاية الكابوس باندحار العدو – إسرائيل– ولكن الأيام

أظهرت للشاعر غير الذي تمثله في خاطره، وتمناه في حلمه، فانطوى على نفسه وكان آخر دواوينه الشعرية يومئ بهذه الكآبة والإخفاق واليأس الوجودي ولا أدل على ذلك من عنوان الديوان ذاته " نهر الرماد" وهو عنوان يوحي بالخيبة والعقم بعد أن تحولت الجذوة الملتهبة نورا ونارا رمادا واقرأ هذا المقطع من هذا الديوان لتستشعر اليأس وتعرف الكآبة وتقدر الإخفاق:

خلني للبحر للريح لموت

ينشر الأكفان زرقا للغريق

مبحر ماتت بعينيه منارات الطريق

مات ذاك الضوء في عينيه مات

لا البطولات تنجيه ولا ذل الصلاة

وأحص مفردات الكآبة واليأس والخيبة والقرف من الوجود في هذا المقطع من مثل :

(موت ، الأكفان، الغريق ، ماتت ...) وأدرك هذا اليأس الذي سكن في روع الشاعر، بعد أن بدأ المشوار حاملا صليبه إلى ذروة الجلجلة، أو بدأ كأبطال السير الشعبية وانتهى كأبطال التراجيديا اليونانية إنه كملاح صلاح عبد الصبور في " الظل والصليب":

يا شجر الصفصاف إن ألف غصن من غصونك الكثيفة

تنبت في الصحراء لو سكبت دمعتين

تصلبني يا شجر الصفصاف لو فكرت

تصلبني يا شجر الصفصاف لو ذكرت

تصلبني يا شجر الصفصاف لو حملت ظلي فوق كتفي

وانطلقت

ومن الواضح الجلي أن دلالة الصفصاف هنا هي الخصاء الذهني والعقم النفسي .

انتهى خليل حاوي كملاح عبد الصبور وهوى إلى قاع العدم ولكن ملاح عبد الصبور مات من غير جرح، من غير دم بينما مات حاوي منتحرا ببندقيته بعد أن ملأت الدماء غرفته . وهكذا أسدل الستار على حياة شاعر كبير مشى إلى النهاية بيديه وتحدى الموت الذي كان يدب نحوه بأن حث هو الخطى إليه !

وفي الواقع فإن القائمة لا تتسع للكثيرين من الأدباء الذين أنهوا حياتهم بإرادتهم ويضيق المقام كما لا يتسع المقال لذكر الجميع من شعرائنا وكتابنا الذين رحلوا بأيديهم لا بيد عمرو.

بين ضفتين : الإحساس بالرحيل المبكر عند الشابي والسياب [1]

يمثل الشاعران الكبيران أبو القاسم الشابي وبدر شاكر السياب علامتين فارقتين في أدبنا الحديث فقد حققا من النجاح وأحرزا من التفوق ما لم يحرزه شاعر آخر على الرغم من حياتهما القصيرة فقد ولد الشابي بقرية "الشابية" ناحية توزر عام 1906 وتوفي عام 1934، بينما ولد بدر شاكر السياب في "جيكور" قرب البصرة عام 1926 وتوفي بالكويت عام1964 .

وكأن الرسالة التي بدأها الشابي منضويا تحت جناح جماعة " أبولو " التي أسسها الدكتور أحمد زكي أبو شادي، كانت تلك الرسالة تحمل هم التجديد وقلق الإحياء وهاجس البعث لأدبنا العربي بعد أن نام أحقابا طويلة في مغارات التاريخ مغمضا جفنيه عن مباهج الحياة، مخلصا ضميره من هم النهضة والتقدم مكتفيا بالاجترار والتقليد والرياء والتصنع وفي تصيد الولائم والمناسبات ومباركة السلاطين والأمراء.

كان شعر الشابي الذي يوحي عنوان ديوانه بالحركة والنماء والخصوبة"أغاني الحياة " كما يوحي بالبهجة والفرح والتبشير بقيام طائر العنقاء من رماده صحيحا معافى.

فالشابي إذا شاعر رائد مجدد مطبوع على قول الشعر، رحب الخيال، حار العاطفة صادق النبرة ، مستملك أدوات الشعر من سلامة المبنى وسلاسته ومستوفي عناصر ومقومات الصورة الشعرية، وهو إن لم يتثقف بثقافة أروبية عن طريق إتقان لغة أجنبية، لم يعقه ذلك عن الاطلاع على ما عرب من آداب الغرب وثقافته.

وإذ كان الشاعر يهم بمغادرة الدنيا في نضارة الصبا ويفاعة الشباب بعد أن أعجزه داء تضخم القلب، وعجزت خلايا جسده عن تجديد نفسها ومواصلة مشوار الحياة الذي كان مليئا بالتوهج والبريق والطموح كان في جيكور يولد شاعرآخر هو السياب، جاء إلى الدنيا ليواصل البشارة وكأنه أحد حواريي المسيح، وفي إصحاحه وثبة جديدة وقفزة عملاقة، تجعل شعرنا الحديث كشعر الدنيا حيا فاعلا خليقا بأن يقرأ، وأن يؤثر في الناس بمضامينه الفكرية وقيمه الجمالية.

---

[1] . مجلة ديوان العرب 2008.

لئن كان الشابي قد ألقى بالشعر في أحضان الحياة، بعد أن كان في أجداث الماضي، ولئن كانت نزعته الرومنطيقية برحابة خيالها واستلهامها من الطبيعة وروعة الجرس الموسيقي المنبعث من استخدام البحور القصيرة التفعيلات

واستعمال المجزوء من تلك الأبحر إمعانا في الثورة على الماضي ونبذا لروح التقليد وتماشيا مع روح العصر وفلسفته، فقد دفع السياب بالشعر دفعة قوية هي أشبه بالطفرة التي يحدثنا عنها علماء الأحياء، فقد كان إبداعه شعر التفعيلة تذليلا لدروب الشعر واستئصالا لكل الفطريات التي تعيش على حساب الصورة الشعرية وتشوه معالمها، وقد ساعد السياب في ذلك انتماؤه لبلد معروف بروح الثورة والتمرد الكامنين في أبنائه من جهة وتأثره الواضح بالثقافة الغربية خاصة الإنجليزية حيث كان يقرأ بها مباشرة شعر إليوت، ولاشك أنه أدرك الفرق بين شعرنا وشعرهم ونمط تفكيرهم ونمط تفكيرنا، وهو فرق كبير يوضح حجم المعاناة وجسامة المهمة، وثقل الرسالة .

وفي الواقع لم يكن الشابي وحده في حلبة الصراع فجماعة "الديوان"، وشعراء "أبولو" و"الرابطة القلمية" كلهم تعاونوا على إقامة صرح أدب جديد، وكذلك الشأن بالنسبة للسياب فقد كان إلى جانبه يؤدي نفس المهمة نازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وأحمد عبد المعطي حجازي وصلاح عبد الصبور وغيرهم، ولكن ذلك لا يمنع من أن يكون الشابي رائدا والسياب كذلك وإنما هي مقارنة بينهما في أسلوب تصوير المعاناة وبناء الصورة الشعرية التي تسكنها روح الإحساس بالرحيل عن الدنيا ، وانتهاء المهمة بعد أن جاء كل منهما بخيال شاعر وحلم طفل ، وأن المشوار طويل وفي العمر ما يكفي للإبداع والتغني بمباهج الحياة والاستمتاع بطيبات الدنيا ولاشك أن المرأة درتها ، غير أن القدر أطفأ جذوة الحياة في الشاعرين ، وحكم على خلايا جسديهما بالتلف والانحلال لولا أن شعرهما اكتسى برداء الخلود، وبريق البقاء ، وإشعاع الدوام.

وفي قصيدة الشابي " الصباح الجديد" قناعة بالرحيل المبكر، واستشعار بالنهاية الوشيكة وليس لديه الكثير مما يريد أن يقوله لذا استخدم الشاعر هنا المجزوء، لتجئ الأبيات خطفات فكر وومضات نفس تستعد للعبور إلى شاطئ العدمية ولكن الأنا يسكن من روعها – وهي مفطورة على حب البقاء – ما في اللاوعي من إحساس باستمرار الحياة وتوالد الحياة من الموت وكأنها الفكرة القائلة بتناسخ الأرواح ولقد كان عنوان القصيدة رمزيا يوحي بالبدء فالصباح هو بداية اليوم:

وأطل الصباح

من وراء القرون

وفي القصيدة ما يؤكد اطمئنان الشاعر إلى أن موته هو ميلاد جديد وحياة أخرى استنسلت من رحم الموت ذاته إلى الأبد:

إن سحر الحياة

خالد لا يزول

فعلام الشكاة

من ظلام يحول؟

ثم يأتي الصباح

وتمر الفصول

سوف يأتي ربيع

إن تقضى ربيع

والشاعر كعادته في بناء صورته الشعرية يستلهم الطبيعة ويستوحي من عناصرها على عادة شعراء الرومنطيقية، فالصباح والفصول والربيع ما هي إلا إيحاءات بالبعث والميلاد من جديد، لأن الحياة في عقيدة الشاعر خالدة والإنسان يحياها في أشكال وألوان شتى ولكن من غير عدمية واضمحلال.

وفي هذه القصيدة حضور قوي لمعاناة الشاعر من المرض وتباريحه وأوجاع أعراضه وما يستتبع ذلك من سهاد وآهات وعذاب نفسي يشعر الأنا بالدونية:

أسكني يا جراح

واسكتي يا شجون

مات عهد النواح

وزمان الجنون

في فجاج الردى

قد دفنت الألم

ونثرت الدموع

لرياح العدم

وأذبت الأسى

في جمال الوجود

والكلمات هنا على بساطتها وتلقائيتها موحية بمرارة الألم، وقسوة العذاب والصورة الشعرية تستكمل تفاصيلها بمفردات الطبيعة التي كان الشاعر يحاول الاندغام فيها اندغاما وليس جعلها موضوعا . وفي هذه القصيدة تأتي الصورة الشعرية فريدة دالة على عبقرية الشاعر في الخلق والابتكار وكونه يحرث في أرض بكر ويخلق في سماوات جديدة.

وخيال القارئ يستجيب هنا لخيال الشاعر ويمعن في الإبحار معه إلى ضفة الموت والصورة الشعرية هنا فيها الحركة كجري الزورق، ونشر القلاع، فضلا عن دلالة الخضم العظيم على رحابة الأفق– أفق الحياة والموت – على السواء:

من وراء الظلام

وهدير المياه

قد دعاني الصباح

وربيع الحياه

قد جرى زورقي

في الخضم العظيم

ونشرت القلاع

فالوداع الوداع

أما السياب ففي قصيدته " دار جدي" وهي من أجمل قصائده وأشدها إيحاء بسلطان صاحب الجلالة الزمن وما يفعله في الموجودات حية وجامدة فينخرها ويذروها هباء منثورا.

إنها قصيدة التذكار والحنين ، وهي حالة سكنت في وعي الشاعر وفي لاوعيه وهو كصاحبه الشابي يعاني أوجاع الألم وتباريح الداء العضال، وشبح الفناء ماثل له في كل زاوية وحيثما قلب بصره، لقد كان الموت يسكن في روح الشاعر ولا شك أنه كان مدركا أن رحيله بات وشيكا، غير أن السياب يتميز عن الشابي بقلقه الوجودي واضطرابه العقائدي وتردده بين الشك واليقين ، والإيمان والإلحاد فقد بدأ شيوعيا وانتهى قوميا وقبل رحيله أسلم نفسه للوحدة يبكي شبابه ويرثي عمره الفاني كأنه بروميثيوس استخرجت كبده ينهشها النسر، وهو يتحسر على طيبات الدنيا وفي صميمها المرأة التي اشتهاها الشاعر وتمنى لو تشمم عطرها وسحقها بأسنانه أو مصها فذابت كلها في دمه،إنه الحب بالحواس الذي كان حاضرا في شعر الشاعر دائما.

وفي قصيدته " دار جدي" وهي قصيدة توحي بحنين الشاعر إلى طفولته وفي الصميم إلى صحته وعافيته حيث كان يلهو ويمرح في صحة وعافية ، لا يتمثل له الموت في زاوية من زوايا دار جده، لكن القصيدة تبدأ موحية بالأسى وعطالة الحياة وتهدم حيويتها ورثاثة كينونتها، إنه الزمن قاهر الموجودات والذي سيقهر الشاعر بعد أن قهره الداء العضال:

مطفأة هي النوافذ الكثار

وباب جدي موصد وبيته انتظار

وأطرق الباب فمن يجيب يفتح ؟

تجيبني الطفولة ، الشباب منذ صار

تجيبني الجرار جف ماؤها فليس تنضح

"بويب" غير أنها تذرذر الغبار!

مطفأة هي الشموس فيه والنجوم

إنه مطلع يرثي بشكل غير مباشر الوجود الحي، وتأتي دلالة الغبار تثير في النفس الإحساس بالعبثية، فالزمن قاهر الوجود هو علة الفناء والسيف المسلط على رقاب الجميع:

فنحن لا نلم بالردى من القبور

فأوجه العجائز

أفصح في الحديث عن مناجل العصور

من القبور فيه والجنائز

وحين تقفر البيوت من بناتها

وساكنيها، من أغانيها ومن شكاتها

تحس كيف يسحق الزمان إذ يدور !

ولأن الشاعر على الرغم من تصارع الحياة والموت في بدنه وعلى الرغم من كونه يحس إحساسا غريزيا أن الموت هو المنتصر فإن غريزة البقاء وقلق الأنا وتشبث اللاوعي بالحياة حيث تقبع الشهوة ، على الرغم من كل ذلك فإن الشاعر لديه ما يقوله ويتشبث به ولذا استخدم تفعيلة سباعية "مستفعلن" ، وجاء السطر طويلا عكس قصيدة الصباح

الجديد حيث استسلم الشاعر للموت لأنه نقلة إلى حياة جديدة وفجر ليوم جديد، فجاء البيت قصيرا جدا في القصيدة ومن المجزوء.

وفي قصيدة السياب حلولية كونية لقد حل هو في دار جده وأصبح الموضوع والذات واحدا فجسده متهدم كتهدم دار جده والفناء القار في تلك الدار قار في خلايا بدنه، وعفونة الزوايا ورائحة التراب في السقف وعلى الجدران لها ما يماثلها في بدن الشاعر من رائحة الدواء الذي لم يجد نفعا ورائحة المرض ذاته ، إنه الفناء يستدرج الشاعر إلى قرار العدم:

وهل بكيت أن تضعضع البناء

وأقفر الفناء أم بكيت ساكنيه؟

أم أنني رأيت في خرابك الفناء

محدقا إلي منك ، من دمي

مكشرا من الحجار؟ آه أي برعم

يرب فيك ؟ برعم الردى ،غدا أموت

ولن يظل من قواي ما يظل من خرائب البيوت

لا أنشق الضياء، لا أعضعض الهواء

لا أعصر النهار ، أو يمصني المساء.

ولكأن الشاعر بغريزة البقاء المتأصلة فيه وتشبث وعيه ولاوعيه بالوجود واشتهاء حواسه للحياة ولطيباتها وهو في طور الشباب لكأنه يحسد خرائب البيوت على ما تبقى منها من أطلال أما هو فسيتعفن ثم يتحلل بدنه ويصير هباء أو عدما ولا تبقى منه ذرة تستنشق الهواء أو ترى صخب الحياة.

وقد عرف ولع الشاعر بالأساطير خاصة الإغريقية التي قرأ عنها في الأدب الغربي ورأى كيف يوظفها شعراء الإنجليز لأنها تكثف المعنى ويظل إيحاؤها مستمرا فضلا عن فعلها في الوعي واللاوعي الإنسانيين، والسياب في توظيفه أساطير الإغريق بين قدرة الشعر العربي الحديث على مواكبة الشعر الغربي، شكلا ومضمونا وعلى أن الأدب في النهاية تلاقح العقول وتماهي الأحاسيس، وهو موقف إنساني واحد على الرغم من اختلاف اللغة والحضارة وهو يوظف تلك الأساطير بلا إسفاف أو حشو ليدلل على غزارة ثقافته ، ولكن بوعي واقتصاد، وفي هذه القصيدة تحديدا وظف أسطورة من أساطير الإغريق أسطورة الشاعر الغنائي " أورفيوس" وهو من شعراء ملحمة هوميروس الذي نزل إلى عالم الموتى ليستعيد زوجته فسحر الآلهة بروعة إنشاده ولما فشل في تحقيق رغبات الآلهة فقد زوجته إلى الأبد.

غير أن السياب القلق الشاك يدرك أنه لن تحدث المعجزة التي تعيد إليه صحته وتستأصل مرضه ولكن الأنا قلقة خائفة واللاوعي مرعوب من فكرة الموت الحتمي لولا أن بعض هدوئه يعود إليه لأن عروسه التي افتقدها أورفيوس في عالم الموتى وفشل في استردادها على الرغم من روعة إنشاده سيظل هذا الإنشاد مقابلا موضوعيا للفناء وهو بديمومته وسرمديته يتعالى على الموت ذاته ويدحضه. وما عروس السياب إلا خلود فنه وبقاء اسمه، لئن قضى عليه الزمن وهم الموت بالإجهاز عليه ، فقد قضى هو على الزمن ، وهزم الموت بخلود شعره الذي يبقى بقاء الكلمة وخلود الحرف:

وبالغناء يا صباي، يا عظام، يا رميم

كسوتك الرواء والضياء

وقد أمعن الشاعر في مخاصمة الزمن وانتهى إلى أنه مجرد ظاهرة شكلية وطلاء على حقيقة الوجود وماهية الموجودات، فالأرض لا تدور، والشمس بغيابها تستريح فقط ، والمرء لا يقتله الزمن، لأن الحس خالد والشعور أبدي والحياة وجدان حي وقلب مشبع برغبة الحياة والإحساس بها وهذه أشياء لا ينال منها الزمن:

وكل ضاحك فمن فؤاده، وكل ناطق فمن فؤاده

وكل نائح فمن فؤاده، والأرض لا تدور

والمرء لا يموت إن لم يفترسه في الظلام ذيب

أو يختطفه مارد، والمرء لا يشيب

فهكذا الشيوخ منذ يولدون

الشعر الأبيض والعصي والذقون

وإذا كانت هذه هي الصورة التي ينتهي إليها الوليد، الذي تمثله الشاعر شيخا بذقن وعصا وكانت حقيقة لا مراء فيها تشعرنا بسطوة الزمن وسلطانه، كان المعادل الموضوعي لهذا المأزق الوجودي هو الحياة الشاعرة المنفعلة التي تسري كالنهر خالدة وما الضحك والنواح إلا مظاهر لها وهذه لا تشيب ولا ينال منها الزمن.

لكأن الشاعر أقام القيامة على الزمن خصمه اللدود ، وأدخله قفص الاتهام ثم حكم عليه في النهاية بالبراءة لا بالإعدام فجريرته مفتعلة لا حقيقية والمقطع الأخير في القصيدة هو المؤثر وهو المقطع الذي يتقاطع مع بعض مقاطع " الصباح الجديد" لأبي القاسم الشابي، إنه مقطع عاد فيه الشاعر إلى الحديث عن علته ومعاناته وعجزه البدني وعطالته الحركية، وما أشد إيحاء " السعال" و"الهزال" بالضمور والدبيب نحو قعر الهاوية ، ولئن كان السهاد هو سهاد المرض وتباريح الداء، فإن خيال الشاعر مازال يعمل وغريزة البقاء فيه تصارع موج الفناء بجهد وإصرار عظيمين ولعله آمن بمقولة أبقراط " الطبيعة هي الشافية من الأمراض" فلم لا يجمع قطرات الندى من أوراق الشجر ويشربها لتزيل السعال وتبعث الشاعر كطائر العنقاء من رماده صحيحا معافى بعد أن فشل الطب في مداواته؟:

وفي ليالي الصيف حين ينعس القمر

وتذبل النجوم في أوائل السحر

أفيق أجمع الندى من الشجر

في قدح ليقتل السعال والهزال

وها هو خيال الشاعر يجنح به إلى الآفاق وينسيه نوعا ما عاهته ويسكن من روع الأنا وفجيعة اللاوعي بالفناء ، ها هو الشاعر قد صار سندباد في حل وترحال، ليس على الأرض وفي غياهب البحار ولكن في السماء وفي آفاق الفضاء الرحبة:

وفي المساء كنت أستحم بالنجوم

عيناي تلتقطهن نجمة فنجمة وأركب الهلال

سفينة كأني سندباد في ارتحال

شراعي الغيوم ومرفأي المحال

وأخيرا سيستسلم الشاعر لحقيقته الموضوعية ويصدع بقرب موته، لقد صار كالشجرة التي ذبلت أوراقها وجفت أغصانها والميت فيها أكثر من الحي:

أهكذا السنون تذهب؟

أهكذا الحياة تنضب؟

أحس أنني أذوب، أتعب

أموت كالشجر !

إن في قصيدة الشابي اليقين والاطمئنان والتلقائية والمعاني الفطرية البسيطة كما فيها المعاناة والتباريح التي تؤثر في وجدان القارئ، وفي قصيدة السياب الثورة ، والتردد والشك والمعاني الفلسفية المركبة، وفيها كذلك الحديث عن الداء وتباريحه والفرق بينهما هو الفرق في عمر الأدب العربي وفي نضجه بين عهد "أبولو" وعهد" شعر التفعيلة" وما أحدثه من ثورة في أدبنا الحديث.

تأملات في عالم حنا مينه الروائي [1]

[1] . مجلة المعرفة الدمشقية ،التبيين مجلة الجاحظية/ الجزائرالعدد28السنة2007

كان سوفوكليس عميد أدباء اليونان يقول أنه وصحبه كتاب الإغريق إنما يلتقطون ما يتساقط من فتاة مائدة هوميروس ومعنى ذلك أن سوفوكليس ويوريبدس وإسخيلوس وهم كبار كتاب الإغريق يكتبون على هدي من أدب هوميروس ويتخذونه المثل الأعلى ويستوحون من آثاره الخالدة المعاني البكر والجمال الباقي على مر الزمان. وقياسا على قول سوفوكليس هذا فإنه يجوز لنا أن نقول أن كتاب الرواية عندنا وهم كثر لا يحصيهم عد ولا يشملهم حصر إنما يلتقطون ما يتساقط من مائدتين لا مائدة واحدة كمائدة

هوميروس، وهاتان المائدتان إحداهما للأستاذ نجيب محفوظ والأخرى للأستاذ حنا مينه.

فهذان الكاتبان أخلصا لفنهما إخلاصا منقطع النظير ولم يخوضا في غيره بهمة ودأب عجيبين فكون كل منهما عالما روائيا متميزا شامخا يعلو على كل العوالم الروائية التي كونها كتاب آخرون- وما أكثرهم- ونحن في هذا المقال نقف متأملين في عالم حنا مينه الروائي مستكشفين آفاقه الرحبة ومعماره الفني ونظرته الإنسانية التي تميز أدبه وحياته.

وفي آخر ما أدلى به الكاتب من تصريحات ذكر أنه إذا كان نزار قباني غزا البيوت العربية بشعره فإن ثمانين في المئة منها لا تخلو من رواية من رواياته.

ولهذا القول معنيان أولهما أن فن الرواية هو الفن الذي نشطت سوقه وراجت بضاعته واستولى على عقل ووجدان القارئ العربي بعكس الشعر الذي تراجع نفوذه وقل مقدروه ومتذوقوه لندرة مبدعيه وفشلهم في جذب القارئ ومد جسور التواصل معه.

وأما المعنى الثاني فيخص كاتبنا وهو تقدير من القارئ العربي لهذا الكاتب العربي واهتمامه بما يكتب واطلاعه على ما يبدع وهو عرفان قلما حظي به كاتب عربي معاصر.

في رواية " الثلج يأتي من النافذة " يستبطن البطل فياض نفسه، وينزل إلى قرارة ضميره ليميز بين الغث والسمين وفي رحلة الكشف هذه التي بدأها بقناعته أن يكون حديدة تلقى

في المصهر ثم يطرقها الحداد، وهذا يعني مصارعة الحياة والكدح والنزول إلى قاع المجتمع ومزاولة الأشغال الشاقة لتتطهر اليد من نعومة القلم وحده ، ولتنجلي الغاشية عن البصيرة بعد أن أنعمت النظر في صفحات الكتب، غير أن النضال

القسري والمفتعل سرعان ما يضمحل ويتلاشى تماما كالطلاء، إنما النضال فعل طبيعي إنساني تلقائي صادر عن ذات واعية ملتزمة لا تكلف ولا قسرية في تصرفاتها.

وفي حياة الأستاذ حنا مينه وفي أدبه من الوعي والاحترافية ما جنبه من الوقوع في هذا المأزق الوجودي ، فهو لم يكن كاتبا من كتاب الأبراج العاجية ولا مناضلا يتكلف النضال ويفتعل الكدح، وهو مدين للحياة القاسية الخشنة والمدمية التي عاشها والتي تضمنتها سيرته الذاتية " بقايا صور" و" المستنقع" بما حققه من إبداع اشتمل على المقومات الجمالية للفن الروائي والنظرة الواقعية والرؤية الإنسانية وهي ميزات جعلته من كبار كتاب العصر ومثقفيه.

لكأن هذه الحياة الخشنة كانت المشيمة التي تغذت منها خلايا روحه وعقله وحبله السري موصول دائما بالواقع وبالحياة الرحبة خاصة وهي في أشد حالاتها بؤسا وعدمية ولا إنسانية.

وهكذا تتظافر الرؤية الإنسانية والواقعية للحياة والثقافة النظرية واستملاك الأدوات الفنية في شخص الكاتب فتجعل منه روائيا قديرا وجديرا بأن يثير فضول القارئ ويستفزه ثم يضمن صداقته الدائمة لأن الفن عنده صار هو الحياة كما أن الحياة صارت هي المادة الخام لفنه.

ولا شك أن الأستاذ حنا مينه قد وقف في حياته وقفات للتأمل ، واستبطن الذات ووعى التاريخ في حاضره وماضيه ومستقبله وأدرك جدليته، ولا شك أنها كانت تجربة أشبه بتجارب المتصوفة في رحلتهم نحو التطهر والعرفان وإن كان هؤلاء ينتهون إلى هجرة الزمان والمكان ونبذ الحياة بينما انتهى هو إلى الاندغام في الزمان والمكان واحتضان الحياة وتمثل الهم الإنساني وتبنيه كقضية يعيش الكاتب لأجلها.

وعالم حنا مينه الروائي هو عالم الإنسان في صراعه مع الطبيعة ، والإنسان في صراعه مع المجتمع، وفي صراعه مع التاريخ.

فإذا كان التاريخ هو صيرورة وتقدم ، فإنما ذلك بفضل الفعل الإنساني ووعيه لا منة غيبية وتكون حركة الجماعة هي تناغم وتناسق تستولد رحم التاريخ وتستنسل منها تاريخا جديدا متصلا منفصلا ومنفصلا متصلا ، والكاتب يعي هذا جيدا وهو ذو نزعة يسارية قارة في أدبه وفي حياته.

غير أن الإنسان ثمرة الوجود وأثمن ما جادت به الحياة يجد ما يعرقل وعيه ويشل طاقاته ويجهز على روح التغيير الخبيئة في نفسه وفي سراديب لاوعيه وأول المعيقات الطبيعة ذاتها وفي روايته " الشراع والعاصفة" وهي رواية تمجد الفعل الإنساني وتبارك روح التحدي والمغامرة لأجل الآخرين الكامنة في شخص الطروسي ، فالبحر إذا صار رمزا وواقعا مثار تحدي، ومصهرا تنصهر فيه الإرادة الإنسانية متخلصة من الأدران فتغدو أكثر قوة وديمومة والإنسان الحقيقي هو الذي يمارس إنسانيته بلا تكلف أو رياء فهو كالماء ينبجس تلقائيا من جوف الأرض، والاستجابة لنداء الضمير في مساعدة الآخرين وهم في لحظة حرجة – حتى ولو كانوا من المسيئين إلينا– هي صفات الطروسي وحنا مينه من الذين يسمون بالجنس في أدبهم عن طريق الرؤية الإنسانية والطبيعية الذي تراه بها أبطاله بلا إسفاف أو بهيمية، فيغدو العمل الجنسي في أدبه فعلا تلقائيا طبيعيا تماما كارتواء الأرض من مطر السماء فتصبح ريانة خضراء ويانعة فالجنس والمطر كلاهما فعلان طبيعيان ذريعتان إلى النماء والخصب بلا كبت قاهر مرائي أو تهتك مخل بالشرف والإنسانية ، وأفضل الأعمال الأدبية التي تتجلى فيها هذه الخاصة ثلاثيته " حكاية بحار" "الدقل" " المرفأ البعيد " .

ولنا أن نفهم البحر في هذه الرواية على أنه البحر باصطخاب موجه ورائحة صخوره، ولنا أن نذوق ماءه الأجاج ونتعرف إلى الصاري والشراع والشختورة– والكاتب ممن رسخوا أدب البحر في إنتاجنا الأدبي بعد أن اقتصر على البيداء في شعرنا القديم وعلى الريف والمدينة في رواياتنا الحديثة ، ولنا أن نذهب بعيدا في فهم هذه الرواية فالبحر هو الطبيعة ككل في تحديها للإنسان وعرقلتها بحتمياتها ومفاجاءاتها للتطور الإنساني، وما الفعل الإنساني إلا مغازلة فمراودة فمواقعة للطبيعة بهتك مخاطرها وإزالة عراقيلها وما التقدم الحضاري إلا فعل الإنسان في الطبيعة بروحه المتحدية وعمله الخلاق لتعود حياة البشر أكثر أمنا وسعادة وتطورا.

وأما المتحدي الثاني للإنسان والمعيق لصيرورة التاريخ وتطوره فهو المجتمع بأعرافه البالية ودجله المؤفين وانتهازية ساسته وإقطاعييه، إن هذا النوع من المجتمع يشكل تحديا للذات الواعية الطامحة إلى الحرية والعدالة والمساواة ومن ثمة يبدو الفعل في المجتمع أشبه بالحرث في الماء أو كما يقول المسيح إلقاء البذرة على الصخر لأن قوانين المجتمع الجائرة، وشلله الفكري وعطالته الروحية وتقاليده المؤفينة كل هذا يشكل تحديا لتطور التاريخ ربما أشد خطرا من تحدي الطبيعة ، ولكن لا يأس فالواحد يصير اثنين والاثنان ثلاثة وهلم جرا والتغيير في الأجيال يتم ببطء والصراع محتدم ومن جدل التاريخ وصراع المتناقضات تتولد الأفكار البكر وتتجسد المعاني التقدمية أفعالا ثورية خلاقة فتشمخر الحضارة وتتوطد دعائم المدنية الحقة.

ومن مؤلفات الأستاذ حنا مينه التي تتناول هذا الجانب " الثلج يأتي من النافذة " وقد تناولناها آنفا، ثم "الياطر" فالبطل الذي هرب الى الأدغال فرارا من جريمته ومن الناس وخوفا على نفسه بعد أن قتل اليوناني " زاخرياس" ، هرب كأوديب فارا من قدره ثم لاقاه في النهاية، وكما يقول سارتر على لسان "أورست" في الذباب "إن أجبن القتلة من شعر بالندم " والحياة التي عاشها وحيدا في الأدغال يأكل السمك ويتظلل الأشجار ويلتحف السماء وكأنه حي بن يقظان يكتشف ذاته لا السماء، إن هذه الحياة قد أشعرته بالملل وبالعدمية الوجودية فقد خلق من أجل أن يعطي، ومن ثمة سيعود إلى البلدة التي هجرها للدفاع عنها وحمايتها من الحوت العظيم الذي يهددها وهي نهاية رمزية توحي بعودة القطرة إلى النهر وعودة الفرد إلى أحضان الجماعة للعمل سويا .

أما رواية " الشمس في يوم غائم " فهي رواية تصب في هذا المصب أي صراع الإنسان مع المجتمع البالي وأحكامه الجائرة وقوانينه اللاإنسانية ، إنما رحلة كشف قام بها البطل مدركا في النهاية تفاهة الحياة الإقطاعية وعقمها وبلادة ناسها إضافة إلى انتهازيتها واستغلالها للتعساء والضعفاء الذين وجد في أحضانهم الأمان والفرح ومعنى الحياة الحقيقي ، وهذا المجتمع المنقسم الى فئتين، فئة الإقطاعيين وفئة الكادحين يمثل في النهاية المجتمع ككل ويمنع تقدمه والنضال إنما يسعى إلى توحيد الفئتين ليغدو المجتمع متجانسا.

وهذه الرواية من أمتع ما كتب الأستاذ حنا مينه والجانب الرمزي فيها لا يعاني إسفافا أو تهلهلا فرقص الفتى المستوحى من الصورة ، صورة رمزية للواقع والمثال فيصير الواقع مثالا والمثال واقعا بالحركة والفعل الحي الذي تشارك فيه الأعضاء والوجدان ، إنه عمل الروح والبدن معا ، والخياط المقتول على يد الإقطاع ما هو إلا الحياة في نضارتها وعفويتها وطيبتها وعطائها اللامحدود إنه الإنسان الحقيقي المناضل بلا عنوان ولا نبرة خطابية ، أو روح ثورية مفتعلة ومقتله على يد قوى الشر والظلام لن يطفئ الشمعة ولن يذهب ببصيص الأمل واليوم الغائم ستنقشع غيومه وما أشد عنوان الرواية إيحاء رمزيا بانتصار القيم الإنسانية على الرذائل والمظالم .

إن قارئ هذه الرواية ينجذب إليها انجذابا شديدا لأنه يحس بنبض قلب الكاتب وعرق أصابعه وخلجات نفسه بل بنبض قلوب شخصيات الرواية وخلجات نفوسهم ، عكس رواية " الثلج يأتي من النافذة " التي يطغى عليها الطابع التجريدي والنبرة التعليمية مما يبعث بعض الملل في نفس القارئ في بعض صفحات الرواية ، لقد كانت الإيديولوجيا

طاغية في هذه الرواية على قيمها الجمالية ومعمارها الفني ولم تكن خبيئة فيهما أو على الأقل مسايرة لهما ، وهو ما تفاداه الكاتب في روايته الرائعة " الشمس في يوم غائم ".

وأما الصراع مع التاريخ فقد تضمنته رواية " المصابيح الزرق " وإذا كان الاستعمار هو قدر الشعوب العربية ، فهو في الواقع سرطان يفتك بالروح والبدن معا ، ويترك الأوطان في دياجير الجهالة والعماء ، بل يعيدها إلى عصور ما قبل التاريخ والنضال ضد الاستعمار وتحدي وسائله القمعية وفلسفته العنصرية ، وروحه التدميرية واجب الإنسانية وله الأسبقية والأولوية على صراع المجتمع و الطبيعة .

إن رواية " المصابيح الزرق" تعود بنا إلى البلد " سوريا " أثناء الحرب العالمية يوم كانت تحت الانتداب الفرنسي ، وما لاقاه الشعب من ضيم وهوان وماعاناه من مرض وفقر وجهالة ، وتنجح الرواية نجاحا منقطع النظير في جذب القارئ ، لكأنه يعيش تلك المرحلة ويشترك مع ناسها الفقراء التعساء في جدهم وهزلهم ويشم رائحة العفن في الأقبية ورائحة الأبدان التي تزكم الأنوف ، ويتقزز من بركه المنتنة ، ومن معيشتها المضنية في ذلك الحي الفقير ، لكن العبودية تنتهي حين يعي العبد وضعه كما يقول ماركس ويسعى للتخلص من نير الظلم بالكفاح ونشر الوعي السياسي بين أبناء الشعب ، وليتحمل المناضل السجن والمنفى والتشريد ، فالوطن قضية والتضحية لأجله واجب ، وهذا ما انبثق في وعي الفتى " فارس" الذي مات على يد الفرنسيين تعذيبا وتنكيلا ، تاركا غصة في حلق والده سرعان ما تحولت إلى راحة وسلوى لأن شهادته حفل زفاف، ولأن فارس بفكرته الثورية وتضحيته زرع في رحم البلد آلاف الفتيان ممن يحملون لواءه ويواصلون رسالته حتى النصر .

هذا ما تقوله الرواية وهي رائعة حقا، لا تقع في فخ الخطابية ولا المباشرة، وبتركيزها على الحي الفقير واستقصاء مظاهر بؤسه واكتشاف قيمه الخالدة كالتعاون والفرح والتفاؤل وروح الدعابة تنجح في وصل القارئ بعقل الكاتب ووجدانه.

إن روايات الأستاذ حنا مينه شرائح من الحياة الإنسانية في سعيها الخالد نحو الحق والعدل والخير وتمجيد للفعل الإنساني الذي تكون تلك القيم هي غايته فالحياة أخذ وعطاء ولهي عند أستاذنا – الذي نتمنى له مزيدا من العمر الحي الفاعل الخلاق — عطاء متواصل لا محدود .

رباعيات الخيام [1]

روعة الانتشاء ولوعة الفناء

غدونا لذي الأفلاك لعبة لاعب

أقول مقالا لست فيه بكاذب

على نطع هذا الكون قد لعبت بنا

[1] . بانوراما سورية 2009.

وعدنا لصندوق الفنا بالتعاقب

عمر بن إبراهيم الخيام

إذا كان المعري في الشعر العربي هو " شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء" ذلك أنه ضمن شعره آراءه الفلسفية في الحياة وخلاصة تأملاته وقراءاته في الفكر الفلسفي وقد جمع ذلك كله في "اللزوميات"، فحق لشاعر نيسابور وعالمها عمر الخيام أن يدعى شاعر العلماء وعالم الشعراء، فقد جمع بين العلم الدقيق والفن الأصيل وزاوج بين التأمل في العدد والتأمل في الوجود، فجاء في شعره كما جاء في علمه فرادة إبداع وأصالة فكر وصدق فراسة وحرارة وجدان، وحق لزبدة إبداعه الشعري المعروفة بـ "الرباعيات" أن تنال مرتبة الخلود ومرتبة العالمية ، ذلك أنها خير ما أبدعته فارس من الشعر الجامع بين عمق الفكرة وجمال العبارة وصدق الشعور وحق لعمر الخيام أن يستوي بين شعراء فارس شاعرا فذا من كبار شعراء الإنسانية وأن تكون رباعياته زادا فكريا وجماليا وإنسانيا خير ما تهديه فارس إلى العالم .

وحياة الخيام غامضة لا نعرف عنها الكثير وأول شك ينتاب الباحث هو تحديد تاريخ ميلاده وقد تضاربت الروايات في ذلك ومن المرجح أنه ولد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وقد عاش في زمن السلاجقة

وهو عصر تميز بالإحن والدسائس والاغتيالات،وأما لقب الخيام الذي اشتهر به فقيل أن والده كان صانع خيام، ولقد عرف الخيام منذ حداثة عهده بالألمعية والذكاء، فحفظ القرآن الكريم وأتقن علوم اللغة والدين وآنس من نفسه الميل إلى الرياضيات والفلك فأبدع فيهما وبهما طار ذكره في البلاد الإسلامية وقربه الملوك والرؤساء وكان السلطان ملك شاه السلجوقي ينزله منزلة الندماء والخاقان شمس الملوك ببخارى يعظمه ويجلسه معه على سريره وأما أصدقاؤه في شبابه فهما "نظام الملك"

و"حسن الصباح" الداعية الفاطمي الذي فر إلى "ألموت" وهي قلعة أسس فيها حكم" الإسماعيليين" الذين قضى عليهم "هولاكو" عام 1256 م ولما استوزر " نظام الملك " جعل لصديقه عمر عشرة آلاف دينارا من دخل نيسابور إجلالا لمقامه وتقديرا لعلمه، ووفاء لميثاق الصداقة بينهما ، ثم اغتيل نظام الملك وانقطع دخل الخيام وقدحت العامة في دينه ورمته بالزندقة فلزم التقية، واختلف مؤرخو زمانه في عقيدته وسيرته قال فيه البيهقي: " أنه تلو ابن سينا في أجزاء علوم الحكمة وعرفه بالإمام وحجة الحق غير أنه أضاف أنه كان سيء الخلق ضيق العطن وكان يتخلل بخلال من

ذهب، أما ابن الأثير في الكامل فذكر أنه أحد المنجمين عملوا الرصد للسلطان ملك شاه السلجوقي سنة 467 هـ وقال عنه القفطي في تاريخ حكماء الإسلام :" إمام خراسان وعلامة الزمان يعلم علم يونان، ويحث على طلب الواحد الديان، بتطهير الحركات البدنية لتنزيه النفس الإنسانية" وأما وفاة الخيام فمنهم من يجعلها سنة 515 هـ الموافق لـ1121 م ومنهم من يجعلها سنة 526هـ الموافق لـ 1132 م ومن مآثر الخيام العلمية " شرح ما يشكل من هندسة إقليدس" و"مقالة في الجبر والمقابلة" ، إضافة إلى أرصاده وأزياجه الفلكية.

وقد قامت شهرة الخيام على الرباعيات وهي تلك المقطوعات الشعرية المقسمة إلى أربعة أبيات ضمنها فلسفته في الوجود والملاحظ في الرباعيات هو اتفاق البيت الأول والثاني والرابع في الروي واستقلال البيت الثالث برويه وهو ما يشبه كثيرا الدوبيت الرباعي الفارسي الأصل.

ولئن اختلف نقاد الأدب ودارسو حياة الخيام في صحة نسبة الرباعيات إليه أو بعضها، فمن قائل أنها ليست لعمر الخيام الرياضي، وإنما لشاعر آخر بهذا الاسم، إلى ناقد آخر يزعم أن بعضها تصح نسبتها إليه، وبعضها الآخر مدسوس عليه خصوصا ما تعلق بالإشارة إلى الغيب والقدر والإيمان والبعث، وقد تعمد كثيرون تشويه صورة الخيام غيرة وحسدا فنظموا شعرا ونسبوه إليه حتى تثور عليه العامة وينتهي أمره إلى الحاكم الذي سيأمر بقتله رميا بالزندقة، وفي أدبنا نظير لذلك، فالمعري دس عليه الكثيرون شعرا لم يقله يثور فيه على الأديان بل يسفهها وينتقد الرسل ويشكك في عالم الغيب غير أن المعري برئ من ذلك ، ومن قائل أن كثيرا من محبي الخيام والمتحمسين له كلما وجدوا شعرا على شاكلة الرباعيات وخفي عليهم قائله نسبوه إليه عن حسن نية.

ولاشك أن استقصاء الأمر صعب وتتبع مسارب التاريخ المظلمة في ظل غياب الوثائق التاريخية التي تنير حلكاته يجعل من الأمر شبه مستحيل !

ولقد رأى نقاد الأدب عندنا وشعراؤنا المحدثون الرأي الأول أي صحة نسبة بعض الرباعيات إلى الخيام وإنكار البعض الآخر وتحمسوا لها تحمسا منقطع النظير، والحق أن الرباعيات تحفة فنية وكنز أدبي حقيق بالخلود وحقيق بالعالمية لأن مضمونها إنساني، على الرغم من تأخر اكتشاف ذلك ولسكوت فيتزجرالد Edward Fitzgeraldالإنجليزي دالة على الخيام فهو الذي اكتشفها ودرسها وتحمس لها وترجمها إلى الإنجليزية فأحدثت دويا كبيرا تجاوز إنجلترا إلى أروبا وأمريكا ، بل أسس فيتزجرالد ناديا في لندن سماه " نادي الخيام " ضم كل محبي الخيام وشعره ، ولم يكتف بذلك

بل سافر إلى مسقط رأس الخيام وزار قبره وأحضر معه زهرة من الزهور الحافة من حول القبر وغرسها في ناديه بلندن حتى تنفحهم بأريج الشاعر وأريج رباعياته ، ودعك من الأسطورة التي روج لها الكثيرون من محبي الخيام والتي تزعم أن الخيام تنبأ في حياته بنمو نوع معين من الزهور حول قبره ، وهذا اللون من القصص نعرف المغزى منه، فالشخصية التاريخية يخلق محبوها أساطير حولها حتى يستلوا مشاعر الإعجاب من الناس ويخلقوا هالة من القداسة لأن النفس المحبة تنزع إلى أن تشاركها الأنفس مشاعرها ، غير أن الناقد الحصيف لا يفوته ذلك ،وباكتشاف فيتزجرالد للخيام وترجمته لرباعياته تنبه أدباؤنا ونقادنا إلى قيمة الرباعيات ومضمونها الإنساني وغناها الشعوري وقيمها الفنية والجمالية وتحمسوا لنقلها إلى لغة الضاد ومنهم من عربها عن الإنجليزية كمحمد السباعي ومنهم من عربها عن الفارسية كالشاعر المصري أحمد رامي الذي سافر إلى باريس لدراسة اللغة الفارسية عامين منقبا وباحثا في الأدب الفارسي ورباعيات الخيام تحديدا ، وعقب عودته عين أمينا بدار الكتب المصرية وكان قد تهيأ له زاد أدبي فأسقط كثيرا من الرباعيات وعرب ما وثق أنه تصح نسبته إلى الخيام وقد شاعت هذه الترجمة بعد أن غنت أم كلثوم بعضا منها .

وربما كان في ترجمة رامي بعض التصرف غير أنه سعى جهده حتى لا يتقول على الخيام ما لم يقله وأن يخرج عن روح الرباعيات ساعيا جهده في ذات الوقت أن تكون الرباعيات في العربية تحفة بيانية وإنسانية وغير السباعي ورامي من الذين ترجموا الرباعيات الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي وأحمد الصافي النجفي وقد عرباها عن الفارسية، ووديع البستاني والشاعر البحريني إبراهيم العريض الذي توفي حديثا وقد عرباها عن الإنجليزية ، وليست هذه هي كل الترجمات إنما المشهور منها وستبقى بسحرها ومضمونها الإنساني وحيرتها الوجودية مصدر إغراء للأدباء العرب على مر الأجيال وكر الدهور بنقلها كرة أخرى إلى العربية إمعانا في الدقة والقرب من روحها وروح مبتكرها .

فرباعيات الخيام إذا ترنيمة حزينة تنعى إلينا زوال الإنسان وهيمنة الزمن وقهره للموجودات وانقلاب لحظات المتعة شقوة وهيمنة الزمن وقهره للموجودات وانقلاب لحظات الإنسان مجرد ذكرى شأن الجذوة تشع نارا ونورا ثم تخبو رمادا والإنسان لا حول له ولا قوة أمام هذا القهر الكوني المتجلي في الموت الذي يطال بسيفه الإنسان ثمرة الوجود ومكمن العبقرية وسر الحياة ومستودع المشاعر فيغدو ذلك الكائن رهين اللحد والدود والظلام الأبدي كأن لم يكن بالأمس ذلك الشاعر أو العالم أو الحاكم أو الفقيه أو الثري الذي ملأ الأسماع و الأبصار ، وتغدو لحظات صفوه

وأنسه مجرد ذكرى، فما الذي ينقذ الإنسان من هذا المأزق الوجودي ؟ لا شيء غير طلب النشوة التي تهيؤها الخمرة والبهجة التي ينشرها مجلس أنس وذلك عزاؤه وذريعته إلى تناسي فجيعة الموت مادام ليس في الإمكان تفادي قبضته . قال الخيام (من ترجمة إبراهيم العريض من المتقارب) :

فهات حبيبي لي الكأس هات

سأنسى لها كل ماض وآت

غدا ويح نفسي غدا قد أعود

وأعرقهم في البلى من لداتي

ويقول أيضا:

أفق يا نديم استهل الصباح

و باكر صبوحك نخب الملاح

فمكثك بين الندامى قليل

ولا رجعة لك بعد الرواح

وليست فجيعة الزوال مشاعر حوم حولها الخيام لوحده فطرفة بن العبد الشاعر الجاهلي الذي قتل في سن السادسة والعشرين تناول ذلك في

شعره :

ألا أيهذا الزاجري أن أحضر الوغى

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي ؟

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي

فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ويقول كذلك :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى

لكالطول المرخى وثنياه باليد

متى ما يشأ يوما يقده لحتفه

ومن يك في حبل المنية ينقد

غير أن الخيام يمتاز عن طرفة وغيره ممن تناولوا فجيعة الرحيل بإبداع معمار فني ضمنه فلسفته الوجودية من المقطع الأول إلى المقطع الأخير دون أن ينصرف إلى أشياء أخرى أو يتناقض مع نفسه وذلك هو امتيازه الكبير.

وللخمرة حضور قوي في الرباعيات بل هي محورها الأساسي أليست مهوى القلوب ومطلب الأنفس الشاعرة وملجأ المعذبين يتوسلون بها عرائس الشعر علها تجود عليهم بآيات العبقرية بل حتى المتصوفة وهم رهط من الناس انقطع إلى العبادة والتأمل والمجاهدة طلبا للعرفان وقد عرف هذا الرهط بالتقوى وقيام الليل وما ذاقوا خمرة في حياتهم قط، لم يجدوا غير الكرمة والخمرة والكأس يكنون بها عن الحب الإلهي والانتشاء به، متناسين دنياهم منقطعين عن العالم متوحدين في الأباطح والقلل،ألم يقل ابن الفارض مكنيا بالخمرة عن الحب الإلهي:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة

سكرنا بها من قبل أن تخلق الكرم

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا

ونور ولا نار وروح ولا جسم !

وقالوا شربت الإثم كلا وإنما

شربت التي في تركها عندي الإثـم !

أما خمرة الخيام فهي بنت الكروم وقعيدة الدنان، هي خمرة حقيقية وليست مجازية هي سلوى الراحل وعزاؤه وذريعته إلى النسيان بها تقر عينه وتنتشي نفسه، ويسكن رأسه فلا جرم أن يطلبها ملحا في طلبها قبل ساعة الرحيل:

سيحيا لحبك قلبي المعنى

لجورك مادام وعدك منا

لطرفك يسقي مع الخمر خمرا

فيبدع فنا وأبدع فنا

ثم يضيف:

فجدد مع الكأس عهد غرامك

وحل مرارتها بابتسامك

وعجل فجوقة هذي الطيور

قد لا تطيل الطواف بجامك

وأما المقاطع التي تغنت بها سيدة الغناء العربي وكوكب الشرق الراحلة السيدة أم كلثوم ومن ترجمة صديق عمرها الشاعر الكبير أحمد رامي فمن البيت الأول يبدأ حديث الخمرة والزوال غير أن أم كلثوم وصاحبة العصمة كما كانت تدعى ، والتي كانت تتمنع عن الغناء في مكان تدور فيه الصهباء وهي المعروفة بعفافها وتقواها وحرصها على أداء الصلاة، وقد تميزت عن جل المغنيين في زمنها بثقافة أدبية عريقة، وذوق فني عالي غذته بقراءة دواوين فحول الشعراء وأمهات كتب الأدب كالأغاني والعقد الفريد وخزانة الأدب وغيرها من كتب الأدب، ولم تشأ أن تذكر الخمرة فيما تغنت به من شعر

الخيام فغيرت كلمة" الحان" إلى كلمة " الغيب" وعدلت عن كلمة " الطلى" إلى " المنى" فغنته وفقا لسلوكها وشخصيتها .

قال الخيام من ترجمة رامي من بحر السريع كما تغنت به أم كلثوم:

سمعت صوتا هاتفا في السحر

نادى من الغيب غفاة البشر

هبوا املأوا كأس ا لمنى قبل أن

تفعم كأس العمر كف القدر

وأما ترجمة العريض عن النص الإنجليزي لهذا المقطع بالذات فجاءت هكذا (من المتقارب) :

لقد صاح بي هاتف في السبات

أفيقوا لرشف الطلى ياغفاة

فما حقق العمر مثل الحباب

ولا جدد العمر مثل السقاة

وبين المقطعين اختلاف في إصابة المعنى الذي أراده الخيام والراجح أن رامي الأقرب إلى إصابة المعنى باعتباره عربه عن الفارسية رأسا، غير أن هذا يخلق إشكالية في الأدب تذهب حد اتهام الترجمة بالخيانة أي خيانة النص الأصلي والخروج عن معانيه الدقيقة وذلك راجع لاختلاف روح اللغة المترجم عنها والمترجم إليها، وقد كان الجاحظ يرى أن الشعر لا يترجم بهذا المعنى !

لقد كان الخيام إذا عقلا باحثا في علة الوجود ونفسا لا تركن إلى يقين، وأراد أن يتجاوز في فهمه للوجود النصوص الدينية معتمدا على تفكيره الحر وثقافته الفلسفية التي استمدها من الفكر اليوناني وربما الهندي وهو من الذين يحق عليهم قول أبي الطيب :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وفي الرباعيات إشارة إلى مكابدة المعرفة وجحيم الشك والمجاهدة في سبيل اليقين لولا أن العمر لا يفي بذلك (من السريع):

أحس في النفس دبيب الفناء

ولم أجن من العيش إلا الشقاء

يا حسرتا إن حان حيني ولم يتح

لعقلي حل لغز القضاء

وهو في شعره يسمح لعقله بأن يوغل في التفكير في مسائل الغيب وتقليب الأمر على وجوهه كمجيء الإنسان إلى الدنيا اضطرارا والغاية منه، لكن التفكير لا ينتهي بالشاعر إلى يقين:

قال الخيام(من ترجمة رامي من السريع):

لبست ثوب العيش لم أستشر

وحرت فيه بين شتى الفكر

وسوف أنضو الثوب عني يوما ولم

أدرك لماذا جئت، أين المفر؟

فليطلب الشاعر شيئا من العزاء في حضرة الكأس ،ألا إن لحظات النشوة بدل من خلود فما أغلاها من بدل والخمرة تثير في النفس قابليات صوفية، فقد نص وليم جيمس على أن قوة الكحول راجعة بلا شك إلى قدرته على إثارة القابليات الصوفية وهي ذلك المد من الطوفان الذي ينبثق من الدفء الداخلي والنشاط الحي وهي مستعصية في أوقات الصحو لارتباطها بالمتطلبات والشكوك والانطباعات الذاتية وقوة الكحول تأتي من قدرته على شل هذه

الديدان الماصة للحيوية، تاركة الحرارة الحيوية لتتجمع وتشكل نوعا من الخزان الداخلي الذي هو في مضمونه تركيز للطاقات للوصول إلى لحظة "الذاتية الداخلية" .

والخيام الشاعر كما يحتفي بالخمرة يحتفي بالجمال ذلك أن قدرة الخمرة في إحداث التركيز تتيح للشاعر طرح كل همومه وأحزانه ووساوسه والتأمل في الجمال والإحساس به وتذوقه في الطبيعة والإنسان، وقد عشق الخيام الفتاة" نسرين" والتي اقتبست من الزهر اسمه وشذاه وجماله لولا أن عصفت بها ريح المنون في مقتبل العمر فأورثت الشاعر حسرة وعمقت فيه الإحساس بجبروت القدر وقهره وعدم استجابته لرغائب النفس وأحلامها، وفي أحضان الجمال يسهو الشاعر قليلا عن لوعة الفناء ومن ترجمة العريض من (المتقارب) يقول الشاعر :

ويا ليت شعري أ تلك الزهور

عرائس نعمى جلتها الستور

فمن قبلة الشمس هذا الحياء

ومن لؤلؤ الطل ذاك السرور؟

وجوهر الجمال هو النزوع إليه وتعشقه تعشق الفراش للنور والهيام به لأن في الحب سلوى عن زوال الموجود:

قال الخيام من ترجمة رامي(من السريع):

أولى بهذا القلب أن يخفقا

وفي ضرام العشق أن يحرقا

ما أضيع اليوم الذي مربي

من غير أن أهوى وأن أعشقا !

وفي الرباعيات ظاهرة لا يمكن إغفالها تتعلق بنقد الناس والتنديد بالنفاق وتعلق الناس بالمظاهر مهملين الجوهر، ويبدو أن الشاعر عانى من ألسنة الناس وخاصة عوامهم كما عانى من مطاردة الفقهاء له الذين ربما رموه بالمروق عن الدين

والفسق والعربدة، ولذا صب الخيام جام غضبه على هؤلاء الناس متهما إياهم بالنفاق، واقرأ ذلك كله في هذين البيتين من ترجمة جميل صدقي الزهاوي(من الخفيف):

قال شيخ لمومس أنت سكرى

كل آن بصاحب لك وجد

قالت إني حقا كما قلت لكن

أنت حقا كما للناس تبدو؟

قال إني حقا كما قلت لكن

أنت حقا كما للناس تبدو؟

ومع تصريح الشاعر بطلب المتعة والنشوة تناسيا لأوصاب الوجود وجحيم الشك وعذاب الفكر وسلاطة ألسنة الناس ظل في عقله الباطن يحمل تبعة الإحساس بالذنب وهو المسلم الذي يتلو من القرآن آيات تنص على حرمة الخمر واعتبارها من الموبقات، وعن العذاب الذي أعده الله لمتعاطيها إن لم يكفوا عنها،غير أن الشاعر سيجازف بطلبها إلى آخر رمق من حياته معتمدا على إيمانه بالله وبوحدانيته وعلى فعله المعروف وإحسانه إلى الفقراء ليسلم من النقمة وفوق ذلك كله ملتمسا عفو الله الذي أوصى عباده أن لا يسرفوا على أنفسهم لأن الله يغفر الذنوب جميعا.

قال الخيام من ترجمة مصطفى وهبي التل(من الطويل):

إلهي قل لي من خلا من خطيئة

وكيف ترى عاش البرئ من الذنب ؟

إذا كنت تجزي الذنب بمثله

فما الفرق بينك وبيني يا ربي؟

فليسع الشاعر إلى الحان طالبا لحظات الصفو مع ندمائه، ملتمسا السعادة من دنان بنت الحان وليشفع له إيمانه بالله ووحدانيته، كما قال من ترجمة العريض(من المتقارب):

لئن قمت في البعث صفر اليدين

وعطل سفري من كل زين

فيشفع لي أنني لم أكن

لأشرك بالله طرفة عين

وذلك ما حدا بالشاعر إلى اختتام رباعياته بتلك الأبيات التي تنم عن حرارة إيمانية وتسليم بوحدانية الله وأمل في عفوه متوسمة عطفه ورحمته:

يا عالم الأسرار علم اليقين

يا كاشف الضر عن البائسين

فئنا إلى ظلك فاقبل عن

عبادك توبة التائبين

وهي عودة إلى شاطئ الإيمان بعد التيه في أقيانوس التفكير وفيافي التأمل والبحران وما يلقى صاحبه من مكابدة ومجاهدة وعذاب نفسي كبير ولربما استعان الشاعر بيقين الرياضيات على شكوك الإنسانيات ولربما أعطته نتائج الرياضيات بعض الراحة والعزاء فأوغل في هذا العلم إيغالا منقطع النظير فتوصل إلى نتائج قيدت باسمه كحل معادلة من الدرجة الثالثة بواسطة قطع المخروط، وطبق الرياضة على الفلك ذلك العلم الذي يعني في لاوعيه المطلق والسامي والعالم الحر بلا حدود وهي مفاهيم يتعشقها الخيام، وله في الفلك بحوث جديرة بالإعجاب والتقدير، ولربما استعان الشاعر بالخمرة كما يرى وليم جيمس حتى يصل إلى مرتبة الذاتية الداخلية ويشل في نفسه وعقله كل الديدان الماصة للحيوية فيندغم بنشوة الخمرة في الوجود فتصبح الذات والموضوع واحدا، خاصة إذا رأى الإنسان أن المعرفة لا تنتهي بالإنسان إلى معرفة كل ما يجهله لأن العمر ذاته قصير ألم يقل المتنبي ذات مرة:

ومن تفكر في الدنيا ومهجته

أقامه الفكر بين العجز والتعب !

ومن ثمة يغدو الإحساس بالوجود وبمحاولة الاندغام فيه ومعالجته بالذوق خير ما يسعف المتأمل إذا استعصى عليه تحويل الوجود إلى موضوع يشبعه بحثا ودرسا واستقصاء .

كذلك كان الخيام في علمه وفي شعره وفي سيرة حياته عقلا جبارا لايني يفكر ويدرس ويستقصي، وقلبا إنسانيا رقيقا انطوى على أنبل المشاعر، ونفسا إنسانية كذلك رهيفة نأت عن النفاق والأنانية والكذب والحسد والشره وهي من أرذل الصفات التي ندد الخيام بها.

ولقد أهدى إلينا فتى نيسابور" الرباعيات " وهي في رأينا أجود آثاره وأجل أعماله،ذلك أن العلم الرياضي والفلكي اللذين مارسهما الشاعر تجاوزهما العلم الحديث ولم تعد لهما من قيمة– اللهم إلا تتبع تاريخيهما وآلية تطوريهما — ولقد أهدى إلينا شعراؤنا وأدباؤنا رباعيات الخيام في حلة عربية قشيبة فكانت في العربية كما كانت في الفارسية آية من آيات البيان والفكر والشعور .

رومنطيقية القلب الحزين [1]

الوصف عند خليل مطران " قصيدة الأسد الباكي نموذجا"

أقحم شعر الوصف في أدبنا العربي ضمن الشعر الغنائي أو الوجداني أو الذاتي وهو الشعر الذي يعبر فيه الشاعر عن ذاته أو "أناه " و بلفظ موجز رؤيا الذات أو موقفها من العالم و الوجود بخلاف الشعر الموضوعي أو التمثيلي حيث يعبر فيه الشاعر عن ذات الأمة ، غير أن شعر الوصف في أدبنا العربي القديم ظل وصفا ميكانيكيا لا تندغم الذات فيه في الموضوع أولا تتصل وشائج القرابة بين الذات الشاعرة وموضوعها ، فيظل الوصف خارجيا ترى فيه أثر كد الذهن في خلق القرائن أو إدراكها بين المقتبس منه(المشبه به) والمقتبس له (المشبه)عن طريق التشبيه الصريح أو الاستعارة وترى التفنن في ذلك ومحاولة السبق في ابتكار التشبيهات

والاستعارات ولكن من غير أن يصير الشاعر قلب الوجود وروحه فلا يسع العالم حينها إلا أن يكون مظهرا لتلك الذات، ذلك أن الوصف بغير هذا المعنى يكون أقرب إلى العلم منه إلى الفن لأن ميكانيكيته تحيد به عن روح الشعر التي هي في الصميم رؤيا وذلك لأنك في الشعر لا تطلب الحقائق الموضوعية وإنما تطلب كيانا شعريا في تفاعله مع الوجود ورؤيته له، وذلك الكيان الشعري هو أشبه بالبناء المشمخر الذي تدخله لأول مرة مكتشفا سراديبه وردهاته وغرفه متذوقا جماله واقعا على فرادته وأنت واثق أنك لم تقع على مثله من قبل على كثرة ما دخلت إلى الدور والقصور وبالمختصر فالشعر هو الرؤيا والفرادة معا لأن الروح الشعرية لا تقبل الاستنساخ ، والتقليد إعدام لها وتجني على روح

[1] . مجلة أقلام الكويت العدد 73 السنة2006.

الشعر، وقد غاب هذا المفهوم العميق للشعر عن أذهان أسلافنا ونقادنا القدامى فانصرفوا إلى النقد الفقهي أو تتبع السرقات الأدبية واكتشاف مصادرها لولا محاولات من هنا ومن هناك تخرج من تلك الصحراء منقذة أناها ملقية بها في إصرار في مملكة الشعر المعروفة بحدودها المتعالية على سواها من الممالك ولعل امرأ القيس أفضل الشعراء الذين فروا بجلدهم من صحراء التيه لائذين بمملكة الشعر وترى الوصف عنده لصيقا في معظم الأحوال بذاته ويغدو الوجود بمظاهره ملونا بلون ذاته وخير مثال على ذلك هو وصفه لليل:

وليل كموج البحر أرخى سدوله

علي بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه

وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل

بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فالليل هنا ليس ليلي وليلك أو ليل الكائنات الذي تسكن فيه إلى بعضها البعض وليس بليل موضوعي نستمتع فيه بجمال النجوم وروعة السكون بل هو ليل خاص ملون بلون الذات الحزينة الخائفة منه والذي ترى فيه غولا يناور ويتهجم محاولا إزهاق روح الشاعر وسكينته وأنت إذا أردت مثلا للوصف الموضوعي أو الذي أسميناه ميكانيكيا فلن تعدمه لأنه الكثرة الطاغية في شعر الوصف في أدبنا القديم فمنه قول امرئ القيس في وصف سرعة جواده :

مكر مفر ، مقبل مدبر معا

كجلمود صخر حطه السيل من عل

أو قول طرفة في وصفه الطلل :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

أو كقول الأعشى في وصف مشية حبيبته:

كأن مشيتها من بيت جارتها

مر السحابة لا ريث ولا عجل

أو كقول المتنبي في وصف جثث الأعداء:

نثرتهم فوق الأحيدب نثرة

كما نثرت فوق العروس الدراهم

أو كقول أبي تمام في نفس الغرض :

تسعون ألفا كآساد الشرى

نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

وتستطيع أن تجد لذلك أمثلة كثيرة في شعر البارودي وإسماعيل صبري وحافظ وشوقي ولا يتسع المقام للاستطراد في ضرب الأمثلة.

غير أن الشعر الحديث وفي تأثره بالشعر الغربي الفرنسي والإنجليزي خاصة وفي العب من نظريات النقد عند أعلامه في الغرب تنبه إلى ذلك وأدرك بعض الشعراء أن الشعر في حقيقته رؤيا وكان هذا أهم مظهر من مظاهر التجديد قبل النظر في الأوزان والقوافي لا أثر فيه للتقليد أو الاستنساخ ولعل شاعرنا الكبير خليل مطران أبرز الشعراء المحدثين الذين أدركوا ذلك ونفذوا ببصيرتهم إلى حقيقة الشعر ولبابه.

وخليل مطران(1872- 1943) شاعر القطرين العربي الصميم سليل الغساسنة ملوك الشام وكان أخر ملك منهم جبلة بن الأيهم الذي أسلم وقد قال الشاعر مشيرا إلى نسبه العريق هذا:

ألا يا بني غسان من ولد يعرب

وأجدادكم أجدادي العظماء

وبقيت بقية منهم لم تسلم محتفظة بنصرانيتها، ونزحت إلى لبنان بعض العائلات منها كعائلة مطران التي تمذهبت بالأرثوذكسية في البدء ثم تكثلكت وأما اللقب الذي لحق بهم فذلك أن أحد أجداد الشاعر كان مطران كنيسة ببعلبك، وقد تعرضت عائلة الشاعر للاضطهاد وإلى مصادرة الأملاك التابعة لهم في وادي البقاع من قبل الولاة التابعين للباب العالي في استانبول فنزحت إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة وفيها عاش الشاعر ونبه ذكره مشتغلا بالصحافة في جريدة " الأهرام" ثم أصدر عام 1900 "المجلة العربية" وعام 1902 أصدر " الجوائب" .

والشاعر أحد أركان النهضة الشعرية في العصر الحديث جمع بين الملكة الشعرية والملكة اللغوية ودقة التصوير والدفق العاطفي والتمكن من الأدب العربي قديمه وحديثه إضافة إلى إتقانه اللغتين الفرنسية والإنجليزية ومطالعته للأدبين الفرنسي والإنجليزي خاصة الرومنطيقي منه كشعر ووردزورث وشلي وجون كيتس وبايرون وألفريد دي موسيه وفرلين ورامبو وهوغو ولامارتين وغيرهم ثم فوق ذلك كله حس إنساني رفيع ونبالة خلق وصفاء ضمير واستقامة نفس فلا يذكر غيره إلا بالخير كما ترفع عن النقد الجارح والقذف والحسد وأخلاقه شهد له بها معاصروه، ويكفي دليلا على رهافة حسه ووفائه أنه دخل مرة إلى حديقة في القاهرة فلقي فتاة في عمر الزهور أعجب بها وخفق لها فؤاده بمشاعر الوداد فحام حولها حومان النحل حول الزهر من 1897 إلى 1903 غير أن الفتاة ماتت مصدورة فحزن الشاعر لموتها وصمم على حياة العزوبية وكتب في رثاء الراحلة قصيدة يقول في مطلعها:

سررت في العمر مره

وكنت أنت المسره

فقد كان مطران إذا رجل عفة واستقامة عانى من شظف العيش وكدح بشرف مترفعا عن سفاسف الأمور وفي نظراته حزن تكشف عن ألم دفين وحسرة متمكنة من النفس لعلها حسرة الزوال وانفضاض المجالس وبطلان الحياة وتهافت ملذاتها ورغائبها ثم سلطة القدر وسيفه المسلط على الإنسان إذ لا يمكن الإنسان من نيل رغائبه ولعل موت حبيبته أسوأ مؤشر على ذلك. وفي شعر مطران هدوء وسلاسة فهو غير شوقي المقتفي أثر الشعراء الكبار كالمتنبي وأبي تمام والبحتري وهو غير حافظ صاحب المزاج الحاد وقد كانت كلماته المنتقاة موحية بذلك ، مجلجلة بتأثير من طفولته

المشردة وكهولته التعيسة من غير زوج وولد وكأنه أراد للناس حياة غير حياته فثار على الخصاصة سليلة الفقر والطبقية .

أما خليل مطران فهو كالنهر إذ استوى في سهل يجري هادئا متمهلا بلا صخب أو ضوضاء متأملا الوجود بنظرة حانية لا يخفى على المتأمل انكسارها ونفس يغلفها شعور بالأسى ولكنها هادئة لا تثور كالبركان وتقذف بحممها في شعرها فتحرق القارئ معها .

لقد كان الشاعر الإنجليزي ووردزورث ينصح الشعراء أن يتمهلوا فلا ينبغي أن يمسك الشاعر بقلمه كلما خفق قلبه أو اضطرمت مشاعره، أي أن يكون الشعر استجابة عارضة لمؤثر خارجي بل يجب عليه أن يتأنى ويترك المشاعر تهدأ والزمن يفعل فعله ليذهب الزبد جفاء وما ينفع الناس والفن يبقى وتنجلي الغاشية عن الأشياء لأن العاطفة القوية تلفها كالضباب، وهي قوية صاخبة معربدة تلمع كالشهاب فجأة ثم تخبو رويدا رويدا وتنتهي رمادا.

وقد سلم مطران من هذه الآفة التي تسئ إلى الشعر فصانه عن أن يكون زبدا أو رمادا.

وفي قصيدته" الأسد الباكي" وهي من عيون الشعر الحديث ولا تعني الحداثة أن يكون الشعر على نسق شعر التفعيلة والكثير منه رغاء، إنما الحداثة هي الوعي بالزمن والاندغام في العصر في علاقته الجدلية بالماضي منفصلا متصلا ومتصلا منفصلا وبإضافة شيء إلى المعمار الإنساني لا بكلمة تلوكها الألسن وتمجها القلوب الإنسانية الحقة.

ولقد كتب الشاعر هذه القصيدة إثر أزمة خانقة عاشها الشاعر وطوحت به ذلك أنه فشل في مشروع من مشاريع حياته حيث عمل من عام 1909 إلى عام 1912 بالتجارة وربح وخسر ثم قام بصفقة مضاربة خسر فيها أمواله واعتزل بعين شمس يائسا ولم يعد إلى القاهرة إلا بعد توسل الأحباب والأصحاب.

والعنوان ذاته موحي بعمق الأزمة فالأسد على سبيل الاستعارة دال على معاني الرجولة وصفاتها الجوهرية كالقوة الروحية والشهامة والترفع عن الصغائر وتأتي الصفة لاحقة بالموصوف لتوحي بالعجز تحت وطأة الظروف وقسوة الزمن فيأبى الشاعر أن يريق ماء وجهه ويتزلف وينافق استجلابا للسلامة أو الرفاه ولا يسعفه غير الدمع أبلغ تعبير عن عمق الجرح وهو في حد ذاته لغة قوامها كيمياء الجسد لا اللفظ السالك مجرى الطعام وسخونته وشفافيته البلورية هما آية الصدق مع النفس والعالم ، والحق أن خصيصة الوصف الحلولي هذه لم يكن مطران وحده هو ممثلها في شعرنا الحديث فقد

تخلص هذا الشعر في صيغته الحداثية من آفة الذات والموضوع فهما واحد وليس العالم إلا حلول الشاعر فيه وتلونه بلونه فهو ليس عالما حياديا بل مزاجيا وفي وسع علم النفس أن يمدنا بمفاتيح تفتح أبواب الفهم وتنير حلكات الطريق ولعل الإسقاط خير ما يسعفنا به هذا العلم من مكتشفاته في دنيا النفس القريبة البعيدة، ذلك أن عالم اللاوعي وعظمة خطره في الحياة الإنسانية واستعصائه على المراقبة والتحري فهو كالحزب السري ينشط في الخفاء ويجيد المكر والتلاعب ولا يحب العلن لتعوده على حياة الخفاء فيجئ الوصف أحيانا فيه إشارات من العقل الباطن بل هو كضربات الفرشاة التي تكمل رسم اللوحة وكثيرا ما تكون تلك الضربات حاسمة، وهنا تحديدا يتجلى معنى التمايه بين الذات والموضوع وهو ما عنيناه بالاندغام، ولا تقف الصورة الشعرية عند هذا الحد فالرؤيا الشعرية تتمرد على الواقع وتخرق المألوف ولا تساوم في حريتها وشفافيتها واندفاعها نحو الآفاق بقوة عجيبة يضفي عليها الحلم مسحة رومنطقية أو صوفية ويزيدها الرمز أحيانا إيحائية أو ضبابية تحافظ بها على رونقها، وخير مثال على هذا الوصف الذي أسميناه بالحلولي هذا المقطع للسياب في وصف مصباح الإضاءة الليلية في دروب المبغى البغدادي:

وكأن مصباحيه من ضجر

كفان مدهما لي العار

كفان بل ثغران قد صبغا

بدم تدفق منه تيار

فإذا كان هذا المقطع يعكس حالة الشبقية التي كانت تعذب الشاعر حد

الفناء ، فإن الوصف هنا تجاوز الحدود المألوفة ففيه حركية الكفين والثغرين والتشبيه هنا خلاق فهو من قبيل تشبيه الجامد بالحي ثم تأتي دلالة العار وهي دلالة دينية أخلاقية في ذات الوقت موحية بالإحساس بالذنب وارتكاب المعصية، غير أن النزوة الجسدية والقوة الشهوانية أقوى وأغلب فتلون الوجود كله بلونها القاني .

وأما في قصيدة خليل مطران فكثيرا ما نقع على هذا الوصف الذي أسميناه بالوصف الحلولي حيث يتأنسن الوجود بفعل رؤية الشاعر التي ترى الوجود حيا، فاعلا ، ديناميكيا بمظاهره لا مجرد أحجام وكتل وأرقام فترى الشاعر يحاوره محاولا الوقوف على خفاياه كاشفا إياها كقوله:

شاك إلى البحر اضطراب خواطري

فيجيبني برياحه الهوجاء

واللمسة الرومنطيقية واضحة هنا خاصة في قوله " برياحه الهوجاء" إلا أن البحر هنا صار يجسد جبروت الطبيعة وقهرها وهو موقف للذات المغلوبة التي صارت ترى الوجود وكأنه تآمر عليها، فلتحمل صليبها إلى ذروة الجلجلة وحيدة في معاناتها ولو كلفها ذلك حياتها !

ثم يأتي الوصف متتابعا متلاحقا فالشاعر ود لو أن قلبه كالصخر لا يتألم ولا ينزف وكأنه حسد الصخرة على بلادتها وعدم إحساسها ولو أن السقم والبرحاء نفذا إلى أعماقها فهدت صلادتها وخففت من غلواء الداء وتباريحه على الشاعر .

لقد غدت الطبيعة والشاعر هنا واحدا ولم تعد موضوعا وهذا ما يضفي على التشبيهات ديناميكية ويخرجها عن رتابة التشبيهات الكلاسيكية:

ثاو على صخر أصم وليت لي

قلبا كهذي الصخرة الصماء !

ينتابها موج كموج مكارهي

ويفتها كالسقم في أعضائي

أما البحر ذاته فعاد إليه الشاعر ليضفي عليه سمة الإنسان فألحقه بزمرة اليائسين، وأي يأس؟ إنه يأس الشاعر ذاته الذي أسقطه على الوجود فتلون كله بلون أسود ، وكأن مفتاح الرؤيا تجلى في معنى لفظة "كن أيها الوجود" فكان كما أراده الشاعر وجودا ذاتيا لا حقيقة له إلا في قرارة نفس الشاعر.

ويمكن فهم ذلك كله بالعودة إلى علم النفس حيث تبحث الذات إذا وقعت في كمين عن نظراء لها أصيبوا بما أصيبت به لتخف الغلواء وهو ما يجسده القول المأثور " إذا عمت خفت" وقد عمت البلوى هنا الوجود كله فالصخرة بلواها في بلادتها والبحر في كمده والوجود كله سأمان والأفق معتكر:

والأفق معتكر قريح جفنه

يغضي على الغمرات والأقذاء

ولن تجد في الشعر العربي قديمه وحديثه شاعرا أبدع في وصف الغروب شأن خليل مطران وفي الواقع فوصفه استبطان للذات وكشف لخفاياها بترصد عناصر اللوحة الطبيعية المتجلية في غروب الشمس ، ولقد رأى فيه الشاعر عبرة، وأي عبرة؟ لعلها عبرة الاضمحلال والزوال وقديما قال الشاعر:

منع البقاء تقلب الشمس

وطلوعها من حيث لا تمسي

وطلوعها حمراء صافية

وغروبها صفراء كالورس

اليوم أعلم ما يجيء به

ومضى بفصل قضائه أمس

غير أن الشاعر يرى الظلام طمسا لليقين وذهابا بالنور الذي تمثل

جنازته، فالظلام يذكر بالهجوع الأبدي لولا أن الشمس تشرق غدا والحياة تبدأ دورتها من جديد لكن وحشة الروح وكآبة النفس ظلمة دامسة لن تشرق عليها شمس السرور وحق للشاعر أن يتألم لها:

يا للغروب وما به من عبرة

للمستهام وعبرة للرائي !

أوليس نزعا للنهار وصرعة

للشمس بين جنازة الأضواء؟

أوليس طمسا لليقين ومبعثا

للشك بين غلا ئل الظلماء؟

أوليس محوا للوجود إلى مدى

وإبادة لمعالم الأشياء؟

حتى يكون النور تجديدا لها

ويكون شبه البعث عود ذكاء

ولا غرض للاستفهام هنا إلا الإثبات.

أما السحاب فقد تلون بلون الدم والدم في عرف الرومنطيقيين رمز المعاناة والتباريح فلا بأس أن يشبه به خواطره الحزينة مادام قد رأى الوجود كله بتأثير من نفسه كئيبا:

وخواطري تبدو تجاه ناظري

كلمى كدامية السحاب إزائي

وولع الشاعر بالحمرة يمتد حتى إلى الدمعة وقد عهدناها بلورية شفافة عند الرومنطيقيين ولكنها عند الشاعر غدت حمراء:

والشمس في شفق يسيل نضاره

فوق العقيق على ذرى سوداء

مرت خلال غما متين تحدرا

وتقطعت كالدمعة الحمراء

وقد خان الشاعر التوفيق هنا فكيف نسلم معه بحمرة الدمعة، هل نقول أنها اختلطت بالدم الذي كان الشاعر ينزف به مما به من تباريح ؟ وهو يريد وصف احتجاب جزء من قرص الشمس وراء السحاب الأحمر !

وترى الشاعر في النهاية أقام مناحة وجودية وتأبينا كونيا له ، ومادام الشاعر هو قلب الوجود وإذا كان القلب تعيسا حزينا فلن يضخ إلى الوجود إلا الكآبة واليأس، فبكت الطبيعة لبكائه والزمن جسد للشاعر معنى الزوال بهذا المشهد الرومنطيقي الحزين الجامع بين لوعة المعنى ودلالة اللون:

فكأن آخر دمعة للكون قد

مزجت بأدمعي لرثائي

وكأني آنست يومي زائلا

فرأيت في المرآة كيف مسائي !

وأما البحر الذي اختاره الشاعر لقصيدته فهو الكامل وهو يتسع بتفعيلاته الست المتكررة "متفاعلن" السباعية لتضمن المعنى والشجن والدفق العاطفي ويزيده إضمار " متفاعلن" جرسا موسيقيا عذبا تستلذه الأذن ويعلق بالقلب وأما الضرب بإضمار متفاعلن وحذف النون مع إسكان اللام لتغدو " مستفعل" فهو أعذب ما في الكامل على كثرة أعاريضه وأضربه وحتى البارودي في رثائه لزوجته تخير هذا الضرب.

لقد كنا نعد الوصف في الشعر مهارة ذهنية ولغوية معا تظهر براعة الشاعر فيه في تمثل المشبه به وكلما كان فريدا غير مسبوق وكانت علاقته بالمشبه وطيدة كلما كان الشاعر ذا عبقرية مفلقة فجاء مطران وزاد على هذا بأن أنسن الطبيعة واندغم فيها ووصفها من خلال وجدانه على سبيل التمايه أي أن تغدوا الذات والموضوع واحدا وهو بذلك مدين بلا شك للرومنطيقية الغربية التي اغتذى بلبانها وتمثل " الرؤيا" التي نص عليها وليم بليك، وقد ساعده على ذلك إضافة إلى الدفق الوجداني وقوة المخيلة وخصبها امتلاك الأداة أي اللغة التي طوعها لأغراضه البيانية ولا عجب فمن يزعم أن الغساسنة أجداده لا جرم أنه يمتلك ناصية اللغة وقد أفلح الشاعر في ذلك إلى حد بعيد وستبقى قصيدته " الأسد الباكي" خير ما يمثل مذهبه الجديد في فن الوصف على الرغم من مسحة الكآبة البادية عليها .

زكي نجيب محمود وإخفاقات النهضة العربية[1]

إن المأزق الحضاري الذي وقعت فيه الأمة العربية منذ سقوط بغداد على يد المغول سنة 656 هـ/1258 م ودخول الأمة عصر الظلمات وما انجر عن ذلك من تردي الأوضاع السياسية، وتقهقر الحياة الاجتماعية، وأكثر النواحي التي تتجلى فيها الأزمة هي الناحية الثقافية، لقد كفت الأمة عن الإبداع واكتفت بثقافة الاجترار وشاعت ثقافة المتون والحواشي والتعليقات، وفي خضم هذه الأزمة غيب العقل وكف عن أداء مهامه، واكتفى المسلمون بالتقليد في حياتهم الدينية، وكفوا عن النظر إلى الطبيعة لإدراك أسرارها واستجلاء نواميسها وترويضها لمصلحتهم واستعاضوا عن ذلك كله بالنظر في الكتب القديمة وكأنها الكلام الذي لا يعلى عليه، والثقافة الحقة، وترتب على ذلك أن لازمتهم عقدة نقص إزاء الماضي ورموزه فهو الكمال وهم النقص وهو الحقيقة وهم الباطل، وحتى الأدب الذي هو مظهر من مظاهر النشاط الفردي البحت حيث يعبر الإنسان – خاصة في الشعر– عن "أناه" دخل في الركاكة والإسفاف في القول، وأهمل المضمون لحساب الشكل، وأصبحت الكلمة المأثورة عن ابن العميد في التزامه السجع، وهي لو أنه رأى سجعة تنمق كلامه للزمها ولو تزلزل المشرق

والمغرب أصبحت هذه الكلمة مثار إعجاب الناس وتقديرهم، وهي لعمري ميزة من ميزات الرداءة وسمة من سمات الانحطاط ، وزاد الطين بلة انتصار الغزالي في سجاله وجداله مع ابن رشد – وهو انتصار موهوم – صنعته الدهماء والعامة، إن هذا النصر الزائف قضى على روح الإبداع وألجم العقل ، وجعل ثقافتنا ثقافة كلام وأسجاع وولوع بالغيبيات أكثر من اللازم ، وإهمال تام للطبيعة وديناميكيتها بكشف أسرارها واستجلاء غوامضها وتجذرت في الأمة روح الزهد فالدنيا دار خسار وتباب، والعاقل هو الذي يدير ظهره لدنياه مقبلا على آخرته ووجدت هذه الأفكار المريضة ترجمتها وتجسدها في تجذر التصوف وشيوع طرقه وتأله رموزه عند العامة، وأصبح شعرهم

وكلامهم حجة الله البالغة وأفعالهم آية الرشد والكمال ، ونظرة واحدة على تراث هذا العصر تؤكد أن العصر هو عصر الكلام والأسجاع والولوع بالماضي لا عصر الأفعال والمضمون والتعلق بالحاضر ولعل الاستثناء الوحيد في هذا العصر

[1] . جائزة الاستحقاق من دار ناجي نعمان بيروت أيار2008.

هو ظهور مفكر واحد من طراز ابن خلدون ولعل الأثر الوحيد الخليق بالنظر الجدير بالاعتبار هو مقدمته وأما ما سوى ذلك فاجترار وكلام في كلام .

ولقد دام هذا العصر إلى الحملة الفرنسية على مصر 1801/1798 بقيادة نابليون بونابرت الذي جلب العلماء والمهندسين والأطباء وعلماء الكيمياء، ولقد قارن بعضهم بين ما وصل إليه الفرنسيون من نظافة بدن وهندام وما أحرزوه من علم (كحيل الكيمياء وتجاربها التي كان يجريها العلماء أمام الملأ) وبين ما يميز حياتهم من ضعف ووسخ وجهالة وعماء فأدركوا الفرق ومما يبعث على الأسى ويحز في النفس اشتغال البعض الآخر بالبحث في اسم نابليون أهو معرب أم مبني ؟

في هذا التاريخ أي عام 1798 دخلنا عصر بحث المشكلة بإدراك نقصنا وتخلفنا بعد أن ظننا أننا الكمال والنهضة وبفضل مطبعة "بولاق" التي جلبها نابليون وبفضل البعثات العلمية إلى الغرب خاصة فرنسا ظهر لأول مرة جيل من المفكرين المعنيين بهم النهضة ومشكلة التخلف من طراز رفاعة رافع الطهطاوي ويعقوب صروف وعلي مبارك وخير الدين باشا وصولا إلى طه حسين وعلي عبد الرازق وسلامة موسى.

وفي هذا الجيل عاش واجتهد وفكر وقدر الدكتور زكي نجيب محمود الذي ولد عام 1905 ولقد كانت صحبته للعقاد ودراسته في إنجلترا (قسم الفلسفة) حيث نال الدكتوراه أضف إلى ذلك الهم الذي لازمه والمشكلة التي عني بها وهي مشكلة التخلف المتجلية في الرجعية، والتقليد وإهمال العقل والولوع بالكلام على حساب الفعل، واستبداد السياسة وغياب الحريات ، وإهمال الطبيعة ومباهجها ومجاهلها بالركون إلى الزهد والولوع بالتصوف، والميل إلى الجانب الديني على حساب الجانب الدنيوي، وترك روح المغامرة وبهجة الاكتشاف لحساب روح الجمود والاكتفاء بالاجترار من الكتب القديمة، كل هذه التجليات لمشكلة التخلف كانت في صميم تفكير الدكتور زكي نجيب محمود.

لقد اعتنق هذا المفكر الوضعية المنطقية ، وهي مجال تخصصه وكانت أطروحته لنيل الدكتوراه عن المنطق الوضعي وتتلخص فلسفة الدكتور زكي نجيب محمود في كون مشكلة التخلف التي يعاني منها المجتمع العربي سببها الرئيسي هو إهمال العلم – ونقول العلم- بالمفهوم الكونتي- أي العلم كما مارسه جاليليو ونيوتن وكبلر ، وهو العلم الذي يقصر نشاطه الغالب على الطبيعة حيث يحيا الإنسان وحيث يجب عليه فهم آلية عمل الطبيعة بنواميسها الخالدة ومن ثمة

الاستفادة من تلك القوانين في اختراع ما ييسر حياة الإنسان ويجعلها حياة رخية ميسورة ، وهي ميزة مرحلة الوضعية في تاريخ الفكر البشري كما شرح ذلك أو جست كونت.

لقد كان عصر الأنوار في أروبا بداية لنهاية مرحلة من مراحل التاريخ البشري، وتجد هذه النهاية دلالتها في نظرية كوبرنيك (الهليوسنترزم) أي مركزية الشمس لا مركزية الأرض للكون(الجيوسنترزم) وكان هذا انقلابا معرفيا جعل الإنسان محورا للكون وسيدا على الطبيعة يستخدم عقله وحده في اكتشاف مناهج البحث العلمي ومن ثمة تطبيق هذه المناهج على الطبيعة والإنسان والتراث ، والعقل هنا حر ، مرن، خلاق لا حد لقدراته ولا رادع لآفاقه، يكتشف ويصل إلى الحقيقة بحرية وديناميكية لا نظير لهما وبلا وصاية كهنوتية. إن هذا العلم كما عرفته أروبا ومارسته هو الذي أخرجها من الظلمات إلى النور ويسر حياتها ، بأن قضى على الكهنوت واستأصل الاستبداد السياسي والقهر الفكري وأصبح كل موضوع قابلا للبحث وللمتابعة العقلية بموضوعية وأمانة فكرية ليس في الطبيعة وحدها بل وفي الإنسان وتراثه القديم (المقدس والوضعي) معا.

وولع الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود بالعلم لا حد له فهو حاضر في مقابلاته ودروسه ومؤلفاته– العلم كما شرحناه سابقا– فغيابه حسب رأيه أدى إلى الكارثة والعلم كما تفهمه الوضعية المنطقية وكما يفهمه زكي نجيب محمود كل لا يتجزأ، ففي الطبيعة علم ،وفي التاريخ علم وفي دراسة نصوص الأدب وتحقيقها علم ،وفي السياسة علم وفي دراسة الحياة الاجتماعية علم،لأن العلم هو النظر إلى الشيء كما هو بموضوعية لكشف غامضه وفهم آلية عمله، فتحقيق نص أدبي قديم هو علم تماما كدراسة ظاهرة طبيعية فالروح العلمية في كليهما واحدة وإنما تتباين المناهج والطرائق.

ونظرة على قائمة مؤلفاته تؤكد هذه الحقيقة: مجتمع جديد أو الكارثة ، تجديد الفكر العربي، في حياتنا العقلية، المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، عن الحرية أتحدث، المنطق الوضعي.....الخ

وقد نجح زكي نجيب محمود في أسلوب كتابته فهو من السهل الممتنع قوامه الألفاظ الدقيقة المعنى ، والبعد عن الحشو والإطناب وتجدر الإشارة إلى أن الوضعية المنطقية ترى في اللغة خادما للفكر وأن اللغة السليمة هي التي تعبر عن المعنى بمفردات قليلة، وهذه ميزة أسلوب فيلسوفنا وكاتبنا ، فما عرف في أسلوبه حشو أو إطناب أو خروج عن الموضوع وما عرف عنه التكلف والاهتمام بجودة الصياغة وأناقة التعبير، فهمه كان منصبا على المعنى لا الشكل والمعنى

هو القول الثقيل الذي أراد إيصاله إلينا، على أن هذا لا يعني إهمال اللغة بالخروج على قواعدها– جهلا أو تعمدا– وإنما لكل مقام مقال.

وهو في دراساته النقدية لأدبنا الحديث يكشف عن ذوق فني كما لا يخفي إعجابه بشعر النابغة الذبياني، وهو أول من أطلق على العقاد لقب شاعر الجلال، ولا يخفي إعجابه بالنزعة التجديدية في شعراء الرومانسية الشباب كالهمشري والشابي والتيجاني بشير يوسف، وهو لا يجاري بعض النقاد أو الشعراء في التخلي عن الوزن،فالشعر موسيقى في الصميم وهو يأخذ على أحمد عبد المعطي حجازي إهماله الوزن في بعض قصائده في ديوانه الأول وقد اعتبرها خسارة كأن المعنى سكب على الأرض سكبا بغير قالب يحفظه، وهو مع شعر التفعيلة ولكن كما مارسه الكبار السياب، والملائكة وعبد الصبور وغيرهم وكل هذه الآراء في كتابه القيم " مع الشعراء".

وفي كتابه المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري عاد الدكتور زكي نجيب محمود إلى دراسة التراث العربي فوجد أنه تراث مطبوع بطابع اللامعقول، موسوم بسمة التنجيم، روحه روح الاجترار لا روح الابتكار وميزته ميزة التقليد لا التجديد إنه تراث عمي عن رؤية الكون والتأمل في الطبيعة بحرية وروح مغامرة واكتفى بتوليد الكلام من الكلام في شكل حواشي وتعليقات يحتل الجانب الديني– فقها وتصوفا– الحيز الأكبر، وتغيب الدنيا بأسرارها ومجاهلها ومباهجها عن أبصار أسلافنا، وانتقلت عدواهم إلينا ، فواصلنا السبات وأسلمنا قيادنا لغيرنا يمارس البحث والتفكير والاكتشاف نيابة عنا مع أننا نحن الذين أعطينا العالم ابن رشد والبيروني وابن الهيثم وابن سينا والتوحيدي وابن خلدون.

لقد كان الدكتور زكي نجيب محمود مفكرا تصدى لمشكلة التخلف والرجعية، وكان عمله أشبه بالطبيب الذي أجرى الفحوص وقام بالتحاليل واستقصى الأعراض فعزل الداء وسمى الميكروب وأوصى بنوع العلاج الذي يستأصل الداء ويجلب العافية ,كان كذلك في عمله الأكاديمي بالجامعة وفي محاضراته وفي مقالاته وفي مؤلفاته، وهو نموذج للمثقف الملتزم بقضية الشعب والوطن المخلص في العمل بلا محاباة أو رياء.

ومما يؤسف له أعمق الأسف أننا مازلنا في موقعنا من خط سير التاريخ نقدم رجلا ونؤخر أخرى ، ضعفت ثقتنا بأنفسنا إزاء أسلافنا، وعدنا إلى الدجل ، والولوع بالكلام والجري وراء السراب، وإطلاق لقب العالم على من لا يستحقه، وفي الطبع اللامنتهي لكتب السحر والشعوذة وتفسير الأحلام .

وكان مما آلم الدكتور زكي نجيب محمود رسالة وصلته من طالب سفه فيها فلسفته ووضعيته المنطقية لأنه نجح بفضل حرز كتبه له أحد الشيوخ، ومرة أخرى حين تمنى لو يقدر فيقوم ليغرس الأشجار حتى يرى سريعا ثمرة عمله فتقر عينه بعد عمر قضاه باحثا وعالما وكاتبا مخلصا لعقيدته وأمته فعزل الداء ولكن الأمة لم تلق بالا لنصيحته مصرة على غيها مدعية أن الداء هو غير الذي عزل الكاتب مواصلة تمددها على خط الزوال كما قال الشاعر صلاح عبد الصبور.

زمن السأم [1]

تأملات في قصيدة " الظل والصليب "لصلاح عبد الصبور

لطالما اتهم شعرنا القديم بأنه شعر خالي من الفكرة قياسا إلى الشعر العالمي وتحديدا الشعر الأروبي ذلك أن النقاد والدارسين خاصة المستشرقين أخذوا عليه مآخذ تلخص في كون شعرنا القديم سقط في فخ التقليد فإذا كان امرؤ القيس قد وقف على الأطلال فبكى واستبكى حسب كثير من الشعراء أن هذا هو طريق الشعر وحده وأن الشاعر الذي لا يبكي على الأطلال ليس بشاعر ، وأن القصيدة التي لا تستهل بذكر الطلل ليست بقصيدة ، حتى ولو كان الشاعر ما عرف طللا في حياته ، وأخذ على شعرنا أنه شعر الانفعال الحاد والعاطفة المشبوبة كأنها فرس جموح لا تسلس القياد للعقل ، وشأن العاطفة الحادة في الفن كشأن الشهاب يلمع فجأة نارا ونورا ثم يخبو ضوئه وينتهي رمادا ، والشعر رؤيا ذاتية وصياغة جديدة للعالم قوامها العاطفة الهادئة والفكرة المتأملة بغير مبالغة تشط عن حقائق الوجود أو تنكر في صلف ما هو من يقينيات الطبيعة والحياة ، وأما سقوط شعرنا في فخ الخطابية فذلك شأن لا ينكر ومن شأن الروح الخطابية أن تسطح الفكر والشعور وتجنح بصاحبها إلى الرياء، وتدفعه رغما عنه إلى كد الذهن في استقصاء الألفاظ المدوية والعبارات الرنانة والاستعارات البديعة والتشبيهات غير المسبوقة حتى يوصف صاحبها بالبليغ وبالشاعر المقوال ويستل من النفوس الإعجاب ومن القلوب المودة ومن خزائن السلطان المال الوفير .

غير أننا لا نسرف على أنفسنا بأن نتبنى وجهة النظر هذه جملة وتفصيلا دون أن نفهم البنى الاجتماعية والتاريخية للواقع العربي القديم الذي أنتج هذا المفهوم للشعر وبغير هذا الفهم سنكون ظالمين لتراثنا متهمين بالتقصير في فهمه ، وأول المفاتيح التي تفتح مغاليق الفهم الجغرافيا العربية ذاتها ونعني بذلك الطبيعة الصحراوية التي قدرت على العرب الحل والترحال وتمزيق الكيان العربي إلى قبائل متحاربة بحثا عن الرزق وخوفا من فواجع القدر ، وقد جر ذلك العربي إلى تلمس القوة في سببين: السيف واللسان وليس العقل فالكلمة البراقة الحماسية من شأنها أن تلهب الحماسة إلى القتال ولو كان عدوانا أو تبعث في النفس الإعجاب ولو كان افتراء ويلخص ذلك كله قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا

---

[1] . مجلة صهيل 2007.

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ملأنا البر حتى ضاق عنا

وظهر البحرنملؤه سفينا

إذا بلغ الفطام لنا صبي

تخر له الجبابر ساجدينا

إن غياب الأفكار الكبرى عن العالم العربي قبل الإسلام ذات الأصل الديني والتي هي وراء نشوء الحضارات الكبرى في التاريخ حتى حضارة روما وأثينا القديمتان إذ تبدوان وضعيتين وما ذلك بصحيح لأن الروح الوثنية المسلمة بكمال الآلهة في معتقدات وأساطير الحضارتين والتي هي دينية في الصميم كانت الجامعة بين أفراد المجتمعين الإغريقي والروماني والباعث على الإبداع والإنتاج الفكري .

إن غياب هذه الأفكار عن العالم العربي هو الذي قضى على الاتحاد العربي وحكم بالفرقة وبالبغضاء، ولم يعرف للعرب من الإنتاج الأدبي والفكري إلا الأدب الحماسي في الشعر تحديدا ذلك أن الحياة العربية الفكرية كانت شفهية فالمعول على الحفظ والذاكرة والرواية وآليات ذلك كل الموسيقى الخارجية للنص وطلاوة اللفظ واندفاع العاطفة وبراعة الصور البيانية وفي النثر يزيد السجع ليحل محل الموسيقى الخارجية للنص في الشعر ، وهذا كله للتستر على فقر المعنى ، وذلك أن الهدف من النص الأدبي القديم هو إثارة الحماسة واستلال الإعجاب والإبهار ولو أن ذلك كله يخبو بعد الفراغ من سماع تلك النصوص الأدبية .

كذلك كان شعرنا القديم في ملمحه العام إلا من استثناءات قليلة تتمرد على هذا الطابع العام القسري مشكلة جدولا صغيرا رقراقا يصب في محيط الشعر الإنساني العالمي، إلى أن جاء العصر الحديث فانفتح العالم العربي على الثقافة العالمية وعب منها مغذيا عقله ووجدانه بما فاته من ثقافة آبائه وأجداده ، فكان إبداع الشعر الحديث ، تداركا لنقائص الشعر القديم ومحاولة الاندغام في الشعر العالمي بتبني النظرية الشعرية الغربية والإبداع على ضوئها، فكان شعر السياب والملائكة والبياتي وصلاح عبد الصبور الذي سنقف متأملين في قصيدته الرائعة " الظل و الصليب " .

وستظل هذه القصيدة فاصلا بين عهدين من الشعر عهد النبرة الخطابية واستظهار القدرات البلاغية وإثارة الانفعال وعهد التأمل العميق يلفه شعور إنساني هادئ ، وآية ذلك كله أن هذه القصيدة تتمرد على الذاكرة وعهدنا بالشعر القديم يسعى إليها فتحتضنه أما هذه القصيدة وكثير من أمثالها في شعرنا الحديث فتغريك بالوحدة لتخلو إلى نفسك أو تراودك هي على الخلوة مغرية إياك بقراءتها وإعادة قراءتها لتغذي وجدانك وعقلك بمضمون إنساني رفيع يقصر عنه الشعر القديم ، ذلك أن هذه القصيدة قد سلمت من عيوب الشعر القديم متنزهة عن النظمية والتكلف اللغوي والشطط البلاغي مختفية بالتجربة الإنسانية والمضمون الوجودي مشكلة لوحدها ساقية تصب في محيط الشعر الإنساني العالمي .

أما السأم فمضمون وجودي بل إنساني ، إنه شعور برتابة الأشياء وتبلد نواميس الكون ، وعطالة الحياة الإنسانية بل خصاء العقل وجدب النفس ولم تعد الميتافيزيقا بعوالمها الإنسانية وإغراءاتها الغيبية بقادرة على تدمير هذا الشعور في أنفس رهيفة جبلت على البحث العميق والاستقصاء الدقيق والتمرد على المألوف ،مؤثرة كرامتها الإنسانية مضحية بنصيبها من الأمان في عالمي الغيب والشهادة تاركة ذلك لغيرها من عامة الناس .

ولعل الفيلسوف الدانمركي الوجودي "كيرغارد" خير من عبر عن هذا المضمون الوجودي في قوله: " كان الآلهة ضجرين ولهذا خلقوا الإنسان، وكان آدم ضجرا لأنه كان وحيدا ولهذا خلقت حواء ، وكان آدم ضجرا وحده ، أما الآن فقد ضجر هو وحواء ثم شعر آدم بالضجر هو وحواء وقابيل وهابيل وازداد سكان العالم فصار الناس يضجرون ضجرا اجتماعيا وشعروا بأن عليهم أن يمتعوا أنفسهم فبنوا برجا عاليا ليصلوا بواسطته إلى السماء وكانت هذه الفكرة ذاتها تزداد إثارة لضجرهم كلما ازداد البرج ارتفاعا حتى أرعبهم أن يروا أن الضجر صار صاحب اليد الطولى في العالم" .

ولكن أترى سأم عبد الصبور سأما وجوديا عاما يتماهى مع سأم كيركغارد وسأم الروائي ألبرتو مورافيا صاحب رواية السأم أم هو سأم خاص رهين الواقع العربي المتردي في دياجير الجهالة والعماء والاستبداد السياسي وتأسن الوضع الثقافي الذي استسلم للشعارات اليمينية واليسارية الجوفاء وإلى التقليد وانسحاب عفونة الماضي على طراوة الحاضر ؟ وفي القصيدة ما يؤكد هذا المنحى بدليل قوله :

هذا زمن السأم

نفخ الأراجيل سأم

دبيب فخذ امرأة مابين أليتي رجل

سأم

وفي السطر الثاني ما يؤكد خصوصية هذا السأم فنفخ الأراجيل عادة شرقية لولا أن الشاعر يعود فيقول:

لا عمق للألم

لأنه كالزيت فوق صفحة السأم

لا طعم للندم

لأنهم لا يحملون الوزر إلا لحظة

ويهبط السأم

يغسلهم من رأسهم إلى القدم

طهارة بيضاء تنبت في مغاور الندم

تدفن فيها جثث الأفكار والأحزان

ترابها

يقوم هيكل الإنسان

إنسان هذا العصر والأوان

وفي السطر الأخير ينجلي هذا السأم إنه سأم وجودي إنساني عام ينسحب حتى على حميميات الإنسان كممارسة الحب بدليل قوله:

إنسان هذا العصر والأوان.

فهذا السأم إذا حالة وجودية تتضمن القرف من الوجود والإحساس بعماء الكون وتبلد الموجودات تنسحب على الشرق كما تنسحب على الغرب وتتماهى مع سأم كيركغارد وموراڤيا، والجلي أن عبد الصبور قد درس الوجودية السارترية وتمثلها أحسن تمثيل، ألم يقل ساتر على لسان أورست في الذباب"أن أجبن القتلة من شعر بالندم"فهذا المقطع ينفذ إلى لباب الوجودية ويلخصها في التركيز على الشعور بالندم الذي يشظي ويسفه الفعل الإنساني ويرجعه حرثا في الماء أوإلقاء بذرة على الصخرة ولأن الندم سليل الخوف الشرعي ترى الإنسان يلوذ به فارا من عذاب الخوف على حساب الحرية الإنسانية العميقة الشاملة، وحتى لا يضبط الإنسان متلبسا بجريمة الوزر، وأي وزر؟ لعله الوزر الذي ارتكبه آدم أول مرة حين أكل من الشجرة محاولا إثبات وجوده بتمرده، لكن آدم قد ندم وسنها شريعة في عقبه، فكل تفكير حر، وكل خروج عن السياج الدوغمائي وكل تمرد على الأعراف والرتابة في القوانين والأطر الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية هو"وزر" يحمله صاحبه لحظة ثم يهن عظمه وتثقل خطاه ويعيش رهابا نفسيا ذريعا ينتهي به إلى التطهر من هذا الدرن بالندم

إنه زمن يرفضه عبد الصبور ويرفض الاندغام فيه بل يتأمله كموضوع مفضلا دور الراصد على الهامش مستخدما دلالة فنية أو ربما حيلة لاشعورية باستخدام اسم الإشارة" هذا " والتي تعني حالة الانفصال أو الطلاق بين الذات والموضوع (الزمن) .

وفي تفكير عبد الصبور مرونة وحرص على الحرية في الفكر والتعبير فتراه يوظف مضامين إنجيلية وهي خصيصة يشاركه فيها معظم رواد الشعر الحديث .

فهو يستلهم قصة يسوع حين حمل صليبه ومشى إلى ذروة "الجلجلة" مؤثرا الحرن على أفكاره والدفاع عنها إلى آخر لحظة في حياته ولو اقتضى الأمر الموت في سبيل الموقف الحر .

فعبد الصبور بهذه الرؤية المستلهمة قصة المسيح يؤكد بعدا مهما في الإنسان هو الحياة لأجل قضية أو موقف ولعل المثقف في طليعة المعنيين بذلك خاصة إذا تعفنت الحياة و أصابها الجدب والخصاء واستبد الإنسان بالإنسان وهو ما يدعوه " سارتر" بالالتزام وما يعبر عنه عبد الصبور تعبيرا فنيا جميلا بالمجد والأمد .

وأما " الظل " فدلالته رمزية إيحائية مضامينه الإنسانية والشعورية والفكرية لا تنتهي ، فالإنسان ليس كيس لحم كما يقول سارتر ، بل هو صاحب قضية وموقف من الوجود والإنسان وإذا تنازل عن هذا الموقف فقد شرفه وإنسانيته وتحول إلى كيس لحم والموقف الفريد في الفكر والشعور و النضال من أجله هو ما يعبر عنه الشاعر تعبيرا فنيا ورمزيا بالظل و إذا تنازل عنه الإنسان لحساب الرفاه المادي أو الفرار من الخوف تنازل عن كرامته الإنسانية و إذا أصر عليه لقي حتفه حقيقة أو رمزا يقول الشاعر :

أنا الذي أحيا بلا أبعاد

أنا الذي أحيا بلا آماد

أنا الذي أحيا بلا ظل... بلا صليب

الظل لص يسرق السعادة ومن يعيش بظله يمشي إلى الصليب في نهاية الطريق.

وهناك ملاحظة لا ينبغي أن تفوتنا فإذا كان عبد الصبور الشاعر الذي أبى أن يساير التيار متحملا الوزر ذلك الإنسان الذي رافع ضد القهر السياسي والفكري الذي راح الحلاج ضحيته وحاول في مسرحيته أن ينتصر له، ترى لماذا إذا يصر على استخدام الضمير " أنا " إذ ينعى الجبن في مواجهة المصير وعدم الصمود على ذروة الجلجلة وهو الذي انتهى كأبطال التراجيديا اليونانية ،غير أن الشاعر يتميز بالصدق مع نفسه ومع القارئ مفضلا أن يعمم هذا الموقف المتخاذل على جيله غير مستثني ولو نفسه اقرأ قوله :

أنا رجعت من بحار الفكر دون فكر

قابلني الفكر ولكني رجعت دون فكر

أنا رجعت من بحار الموت دون موت

حين أتاني الموت لم يجد لدي ما يميته

وعدت دون موت

وفي خاتمة المقطع الأول تأتي لفظة " الصفصاف " في محلها من القصيدة، دلالاتها الفكرية والفنية لا تنتهي ولعبد الصبور قدرة كبيرة في اقتناص هذا النوع من الألفاظ وتوظيفها في شعره وفي عنق الحسناء يستحسن العقد كما يقول المتنبي.

فالصفصاف شجرة تتميز بالضخامة وكثرة الأغصان والتدافع إلى عنان السماء لتبدو أطول من غيرها على سبيل المباهاة لكنها غير مثمرة فهي رمز للجدب والخصاء وللشاعر القدرة على استنبات ألف غصن من غصونها الكثيفة في الصحراء وتأمل هذه اللفظة وما توحي به من عقم ، فإذا كان في مقدور الشاعر أن يعيش كشجرة الصفصاف سامقة مشمخرة عن خواء وكذلك كان له لو قبل بنمط الحياة والفكر واندمج فيهما إيثارا للسلامة غير أنه يأبى ذلك يقول الشاعر :

يا شجر الصفصاف إن ألف غصن من غصونك الكثيفة

تنبت في الصحراء لو سكبت دمعتين

تصلبني يا شجر الصفصاف لو فكرت

تصلبني يا شجر الصفصاف لو ذكرت

تصلبني يا شجر الصفصاف لو حملت ظلي فوق كتفي

وانطلقت.

أما المقطع الثاني فقد تضمن أربعة أسطر تعمق فيها الشاعر مسألة الخصوصية الفردية ومسألة الالتزام وعلاقة الفرد بالمجتمع وهو صاحب ديوان" الناس في بلادي" ذلك أن الإنسان يعيش في بيئة اجتماعية وهو كائن اجتماعي بطبعه يعنيه تقدم المجتمع ورفاهه كما يعنيه تخلفه وعطالته، له ماله وعليه ما عليه ، غير أن الأوامر والنواهي من لدن المؤسسات الرسمية (السياسية والدينية والثقافية) تشجب مبدأ التدخل في حياة الجماعة حفاظا على طابعها التدجيني مقهورة ومستعبدة بأفكارها كما يقول فوكو وهي إذ تشجب ذلك تعمد إلى انتهاك خصوصية الفرد بمحاولة تجريده

حتى من وسائل الإدراك أي حواسه لكي يتم تدجينه وإدخاله إلى داخل السياج الدوغمائي رافضة تميزه و تمرده ولو بمقاييسه الذاتية وهو ما عبر عنه الشاعر بقوله"مرآتي"

يقول عبد الصبور :

قلتم لي لا تدسس أنفك فيما يعني جارك

لكني أسألكم أن تعطوني أنفي

وجهي في مرآتي مجدوع الأنف ؟

ويأتي المقطع الثالث في محله من القصيدة إنه مقطع يتعمق الذات العربية باحثا في سراديبها مكتشفا تضاريسها وهو ليس من قبيل السادية التي تستلذ جلد الآخرين بالتعالي عليهم وتتفيه حياتهم ، بل هو ربما من قبيل المازوشية حيث تستمرأ النفس المرارة وتستلذ الألم يأسا وخيبة ، والشاعر يبادر بإعلان الهزيمة وخواء الروح وغياب الطموح و أول لفظة يجدر بنا الوقوف على دلالاتها الفنية والحضارية هي لفظة " الملاح " ذلك القائد الطليعي الذي يخوض بسفينته عباب البحار مصارعا موجها قاهرا رعبها سالكا مسالك النجاة بركابها ، إنه السندباد الذي يكتشف العوالم مستحليا حلاوة الكشف مبتهجا بنشوة المعرفة ملبيا نداء إنسانيا عميقا فيه هو نداء المغامرة حتى لا تتأسن الذات وتركد الروح ، وأما الملاح فهو كما أسلفنا القائد الطليعي لعله المثقف أو رجل الدولة أو الزعيم الذي في يده مفاتيح النصر وفي عقله مشروع الأمة ودستور الرقي والتمدن ، وأما البحر فهو الحياة الصاخبة أي الدنيا التي نعيش فيها مذللين صعابها بثمرات عقولنا وكدح سواعدنا غير أن ملاحنا وجد الراحة في اليأس وعاف دور السندباد وخاف من أن يكون بروميثيوس العربي الذي يسرق نار المعرفة وينير بها دنيانا حتى تنجلي الغاشية عن أمتنا ويجنح بنا إلى شاطئ الحضارة والرقي.

فملاحنا مازال كائنا ميتافيزيقيا من العصر الوسيط يرفض تبني فلسفة العصر والدخول إلى ساحة أنواره وهو في نظرته إلى السماء يعاني ازدواجية فهي تارة في صفه إن توسم فيها الخير وتارة ضده إن ظن منها العسر، إنه موقف ميتافيزيقي ضبابي غير حاسم ، على العكس من المجتمعات الراقية التي جعلت الحضارة ذات بعد أفقي ومضمون إنساني خالص، أما ملاحنا فيكتفي بالبعد الرأسي متخليا عن دوره في الكشف

والإبداع والجهد والمغامرة ، مستسلما إلى أحلامه الميتافيزيقية ، إنه مسكون بالخوف بل الرعب هاجسه الأساسي وهو الذي يمنعه من ارتكاب الوزر ، مؤثرا السلامة ، لائذا بالإحسان في صيغته الساذجة دفعا للإحساس بالذنب ، مطلقا الزمان الذي يأبى في صلف أن يندغم فيه لحساب الماضي وما أشد إيحاء كلمة " الزوال" في هذا المقطع التي توحي بالتلاشي رويدا رويدا :

ملاحنا ينتف شعر الذقن في جنون

يدعو إله النقمة المجنون أن يلين قلبه، ولا يلين

يدعو إله النعمة الأمين أن يرعاه حتى يؤدي الصلاة

حتى يؤتي الزكاة ، حتى ينحر القربان ، حتى يبتني

بحر ماله كنيسة ومسجدا وخان للفقراء التاعسين

من صعاليك الزمان .

وانظر إلى كلمة " الصعاليك" والتي تعني الشعب أو العوام فهم في وعي ولا وعي الملاح مجرد قطيع من الصعاليك الهمج الخارجين على القانون وهي نظرة استعلائية راصدة لهم من البرج العاجي، والإحسان إليهم إنما يكون بتأكيد قصورهم وتثبيت عطالتهم وذلك ببناء مسجد أو كنيسة أو خان أو إطعامهم إمعانا في إذلالهم وتحسيسهم بالمسكنة لا الارتقاء بإنسانيتهم

والدخول بهم إلى عصر الأنوار .

ومن العناصر الأساسية في استكمال صورة الوجدان العربي من الداخل

– وهذه القصيدة تعد " بورتريه" له – يأتي العنصر الجنسي ، وللعربي حنين إليه وعذاب لأجله وفيه حد الشبقية تلك الأجواء التي رسمتها "ألف ليلة وليلة " و" الروض العاطر" وأشار إليه لفيف من الشعراء العرب

والمرأة في الوجدان العربي مصدر متعة وفتنة ومبعث شرور اجتماعي كما أنها مصدر عذاب وحرمان جنسي وملاحنا المسكون برغائب جنسية شبقية يحب الجنس ويستقذره في ذات الوقت ، أي أنه يملك شخصية" الدون جوان " التي تهوى المغامرة وصيد النساء لمجرد الاستمتاع ثم تبعات ذلك من الإحساس بالذنب وارتكاب الدنس ثم محاولة التطهر منه بصيانة العرض فهو لا يفهم من الشرف غير غشاء البكارة ، إنها شخصية السيد " أحمد عبد الجواد " في " ثلاثية " نجيب محفوظ ، وهكذا وقع الملاح فريسة لعقدة " الفصام" وهي حالة مرضية في الوجدان العربي ناتجة عن ضبابية الموقف و لا علمية الفكرة وتعدي على قوانين الطبيعة

وانتهاك نواميس الضبط البيولوجي في الجنسين وقد أدى هذا إلى الاعتداء على الأنوثة ذاتا ومعنى والاحتفاء بالرجولة ولو كانت فظة لا واعية

وأعطت للذكر سلطات واهمة في ممارسة قهره على الأنوثة أنى وجدها في الإنسان و الكائنات وإصباغ المعاني الموحية بالعجز والعطالة عليها وعلى كل ما لا يحب من مظاهر الطبيعة والحياة ، مكتفيا هو من الأنوثة المتجلية في المرأة بجانبها الجسدي مقتصرا في علاقته الشوهاء بها على الجانب الغريزي وهذا المفهوم المريض سيؤدي إلى حف الرجل نفسه بقافلة من النساء لإشباع نزواته .

وتؤدي هذه الدلالات كلها في النص كلمة" البكر " وكلمة " حجاب " بالنسبة للبنت خضرة، وأما إيثار الذكورة على الأنوثة فهذه العقيدة تفصح عنها دلالات الأسماء ، ولعله من عبث الأقدار أن يجنب الملاح ثلاثة ذكور مقابل بنت واحدة بل حتى الأسماء التي تسمى بها ذكوره لها خلفيات في قرارة اللاوعي فمحمد وأحمد أسماء ذات مضامين دينية وهي توحي بهيبة الدين وسلطانه القوي على العربي ولو كان مثقفا وتثير في النفس حنينا غامضا إلى معانقة الماضي واحتضانه ، ولعلها تكفير عن عقدة الذنب، تلك العقدة التي يحسها الملاح مؤلمة نتيجة عيشه بطريقة مخالفة للنصوص الدينية وفي الصميم حالة الشبقية التي تطوح به ذات اليمين وذات الشمال ثم تأتي دلالة الاسم " سيد" وهي موحية بهيبة الرجولة وسلطانها المغري الخفي وهي تصم المجتمع العربي عموما بالتحيز للذكورة وإضفاء السلطة والهيبة والجلال عليها مقابل إضفاء صفة العبودية والانحطاط والعجز البدني والدنس المتجلي خاصة في " العادة الشهرية " على الأنوثة لتتأكد على مر التاريخ تبعية المرأة للرجل وقصورها البدني والعقلي والنفسي يقول عبد الصبور :

ينشده أبناءه وأهله الأدنين

والوسادة التي لوى عليها فخذ زوجه أولدها محمد وأحمد وسيدا

وخضرة البكر التي لم يفترع حجابها إنس ولا شيطان .

ثم إن الملاح مات رمزيا قبل الموت البيولوجي حين اكتفى من الدنيا بالاستسلام لواقعها والإيمان بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، حين رفض تميزه الإنساني بالوثبة الحضارية والفعل الخلاق بل نظر إلى ثمرات المعرفة وأطايب المدنية نظرة الثعلب إلى العنب فلما استعصى عليه ادعى أنه حصرم وهي حيلة نفسية تجنح بصاحبها إلى إيثار السلامة تعبيرا عن العجز بل وخداع النفس بتتفيه الأشياء وهو ما عبر عنه الشاعر بالملح والقصدير :

أشار بالأصابع الملوية الأعناق نحو المشرق البعيد

ثم قال :

هذي جبال الملح والقصدير

فكل مركب تجيئها تدور

تحطمها الصخور

ملاحنا أسلم سؤر الروح قبل أن نلامس الجبل

وطار قلبه من الوجل

كان سليم الجسم دون جرح دون خدش، دون دم

حين هوت حبالنا بجسمه الضئيل نحو القاع

ولم يعش لينتصر

ولم يعش لينهزم !

فهو ملاح زائف إذا لأن جسمه ضئيل والعادة في الملاح أن يكون قوي البنيان هرقلي القامة مفتول العضلات ومقابلاتها الحضارية الوعي الحضاري والالتزام والإخلاص للقضية والرغبة الملحة في خلاص الناس ، مع الاستعداد للمغامرة، أما المشرق البعيد ، فالموصوف هو النهضة والصفة هي الاستحالة أو الاستعصاء في أحسن الأحوال.

إذا مات الملاح حتف الأنف ، من غير شهادة بمقارعة الخطوب وفضل خلاصه الفردي بالجنوح إلى السكينة والرتابة .

ولقد تحول الخوف إلى مارد خرج من قمقمه وأدخل فيه ملاحنا ورماه إلى هاوية العدم حيث العماء والظلام .

ولما تخلى الملاح عن دوره الريادي ترك ركاب سفينته في فوضى وعبثية وجود وعماء مصير وانتفاء قصدية وأسلم مركبه لهبات الريح تتلاعب بها ذات اليمين وذات الشمال مكتفيا ربما بالتوسل إلى السماء أن تكتب له السلامة . فقد مسخت القيم إذا وحال الباطل حقا والقبح جمالا والجهل علما والتقليد شريعة والتخلف رقيا ومدنية ولم تعد الحياة إلا مسرحا للجثث العفنة ، جثث الحيوانات والناس على السواء وهو تعبير رمزي يفصح عنه المثل القديم " اختلط الحابل بالنابل "

يقول عبد الصبور مختتما المقطع والقصيدة :

هذا زمن الحق الضائع

لا يعرف فيه مقتول من قاتله ومن قتله

ورؤوس الناس على جثث الحيوانات

ورؤوس الحيوانات على جثث الناس

فتحسس رأسك !

فتحسس رأسك !

و أما اللغة فجاءت بسيطة من المألوف المتداول غير أنها لا تفقد صفة الشاعرية والإيحاء وقد أفصح الشاعر عن موقفه من اللغة في ديوانه

" الناس في بلادي " إصرارا منه على النزول إلى القاع محتفيا بهمومه متعاليا على البلاط وشعر المناسبات مصرا على أن الشاعر الذي هو في صميمه إنسان من نتاج القاع وليس القمة.

وأما الموسيقى الداخلية فتنمو متصاعدة بتأزم الموقف وحدة اللحظة ثم تخبو رويدا رويدا تاركة المجال للتأمل العميق ثم تتصاعد متسقة مع الموقف الجديد،فيطول السطر ويقصر، وأما المضمون الإنساني والوجودي فلا نعرف قصيدة حديثة نعت إلينا الواقع العربي بمثل هذه المرثية الحزينة، وستظل هذه القصيدة شاهدا فكريا وإنسانيا وفنيا ووجدانيا على نكبتنا الحضارية وعطالتنا الفكرية.

ولئن رحل "بروميثيوس" مصر في أوج العطاء مثخنا بالجراح، منهوش الكبد، مسمر الأنامل على قمة الجلجلة فقد برعمت هذه القصيدة في ضمائر بعضنا كما ستبرعم في ضمائر من هم في ضمير الغيب لعل الربيع في دورة من دوراته يعيد الجدب خصبا والصحراء جنة وشجرة الصفصاف شجرة خوخ وينقلب الملاح سندباد يخوض بنا آفاق البحار ويحلق بنا في أقطار السماوات لندخل التاريخ من جديد كغيرنا من أمم العالم الناهضة.

شاعر الجلال عباس محمود العقاد [1]

[1] . مجلة ديوان العرب كانون الأول2007.

يعتبر العقاد ظاهرة أدبية وفكرية خارقة في دنيا الفكر والأدب فهو كالجاحظ أديب موسوعي لم يقصر نشاطه على حقل من حقول المعرفة وإنما سعى إلى الثقافة ككل ونظر إليها على أنها كل لا يتجزأ.

والذي يبهر في هذا الكاتب عصاميته فهو إن اكتفى في تعلمه النظامي بنيل الشهادة الابتدائية فقد كدح في سبيل المعرفة كدحا وأخلص في طلبها مضحيا بالزوجة والولد ومتاع الدنيا مكتفيا بما يسد الرمق ويحفظ ماء الوجه.

وأما الصفة الثانية الباهرة فيه فهي حبه للحرية وإيمانه بأنها أساس صلاح الفرد وتعلقه بالحرية دفعه إلى الذود عن كرامته والاعتزاز بنفسه حتى لكأنه أحد آلهة الإغريق. ولقد كان لويس عوض على حق حين قال :

" صورة العقاد عندي لا تختلف عن صورة هرقل الجبار الذي يسحق بهراوته الأفاعي والتنانين والمردة وكل قوى الشر في العالم" .

مارس العقاد النقد والتراجم والمقال وأخرج كتبا آية في تحري الدقة العلمية والحقيقة مستعينا بقلمه السيال وبثقافته الجبارة في شتى شؤون المعرفة.

فلقد عرف العقاد "بالعبقريات" وبقصة "سارة" و"بالديوان في الأدب والنقد" وبسيرته الذاتية "أنا" وبهذه المؤلفات شاع بين الباحثين والأساتذة والطلبة.

غير أن الثابت أن الذي كان يحز في نفس الأستاذ العقاد– رحمه الله– أنه

لم يشع كشاعر وأن شهرة حافظ وشوقي كانت تؤلمه أعمق الألم ، ولاغرو

في ذلك فالعقاد يرى أن الشعر مقتبس من نفس الرحمن وأن الشاعر الفذ بين الناس رحمن أوليس هو القائل ؟:

والشعر من نفس الرحمن مقتبس

والشاعر الفذ بين الناس رحمن

بلى فالشاعر تفضي إليه ألسنة الدنيا بأسرارها فهو روح الوجود وضميره والشاعر أعلى درجة من غيره ومن وصل إلى هذه المرتبة فقد حقق أعظم مأرب في الحياة.

ولقد أخرج العقاد عدة دواوين شعرية وأعطاها عناوين تتماشى وسني عمره " يقظة الصباح" ،"وهج الظهيرة" ،" أعاصير مغرب" ،" أشجان الليل" وديوان آخر رصد فيه وقائع الحياة اليومية على عادة شعراء الغرب جعل عنوانه " عابر سبيل".

ويجدر بنا قبل التطرق إلى شعر العقاد أن نعرف موقفه من الشعر فلقد عرف الكاتب الشاعر بخصومته العنيفة لأنصار شعر التفعيلة ولما كان عضوا بالمجلس الأعلى للآداب والفنون ومقررا للجنة الشعر كان يحيل قصائد التفعيلة على لجنة النثر للاختصاص ، فلقد حارب هذا النوع من الشعر وكان يسميه الشعر السائب . فهو من المحافظين على عمود الشعر دون الخروج على الأوزان الخليلية فالوزن والقافية هما حدا الشعر وما يميزه عن النثر، والشاعر الفذ هو الذي يعبر عن أفكاره وأحاسيسه محافظا على الوزن والقافية دون أن يحد الوزن من قدرته التعبيرية

إن الشعر عند العقاد فن محكوم بالقيود وهو مناورة بها يتميز الشاعر عن الشويعر والشعرور.

ولم يقف العقاد عائقا أمام سنة التطور فالتجديد في الشعر ضرورة من ضرورات العصر وقد مارسه أجدادنا فأبدعوا الموشحات والأزجال والمجزوء ومخلع البسيط ونوعوا القوافي حتى تتأتى المرونة في التعبير وتتحقق المتعة الفنية ويتحاشى السأم من الرتابة المملة في الوحدة، وهكذا مارس العقاد التجديد في الشعر بتنويع القافية واستعمال المجزوء والاستعانة بالبحور الخفيفة كالرمل والخفيف والمتقارب والمديد ، وأضاف الى ذلك قصر الشعر على الوجدان وقد كان شعار مدرسة

الديوان بيت لعبد الرحمن شكري:

ألا يا طائر الفردو

س إن الشعر وجدان

وتحاشى المديح الزائف والرياء الكاذب والمبالغة الحمقاء وفي ديوان

"عابر سبيل" قصر الشعر على هموم الحياة اليومية كقصيدة الكواء، ليلة العيد وفي هذا الديوان بالذات قصيدة في طفل صغير شرب على وجه الخطأ الجعة فاستمرأها واستحلاها فيقول العقاد على لسان الطفل – وهو إمعان في الواقعية الشعرية والصدق الفني– :

(البيلا ، البيلا) عوض البيرة البيرة لأن كثيرا من الصغار ينطقون الراء لاما .

وهكذا فقارئ شعر العقاد يقف أمام عمارة نحتت أحجارها بأزميل وأحجارها من جرانيت أسوان لا يبهرك الجمال في تلك العمارة بقدر

ما يبهرك الجلال .

فالعقاد كما يرى تلميذه زكي نجيب محمود شاعر الجلال ، ولنا في تفسير نزوع الشاعر هذا المنزع رأي مستمد من التركيبة النفسية للعقاد المنبهرة بالبطولة الممجدة للأبطال ولعل قامته الهرقلية وعصاميته الأسطورية زادتا في تقديره لنفسه ومواهبه ومن ثمة إعجابه بشخصه وهو موقف يؤدي بصاحبه إلى العزلة في جبل الأولمب مع آلهة الإغريق ويصبح الجليل والعظيم هو ما ينزع إليه ذلك الشخص، ولسنا ننفي صفة الجمال الفني عن شعره ففي بعض قصائده لمحات فنية جميلة ، اقرأ شعره في وصف الشاعر واكتناه أغوار نفسه واستمتع بكلماتها الفنية الجميلة:

يجني المودة مما لا حياة له

إذا جفاه من الأحياء خوان

ويحسب النجم ألحاظا تساهره

والودق يبكيه دمع منه هتان

إذا تجهم وجه الناس ضاحكه

ثغر الورود ومال السرو والبان

تفضي له ألسن الدنيا بما علمت

كأنما هو في الدنيا سليمان

والشعر ألسنة تفضي الحياة بها

إلى الحياة بما يطويه كتمان

لولا القريض لكانت وهي فاتنة

خرساء ليس لها بالقول تبيان

مادام في الكون ركن في الحياة يرى

ففي صحائفه للشعر ديوان

وفي قصيدة " العقاب الهرم " وهي قصيدة موحية بمعاني العظمة المقهورة بالزمن، إنها قصة عقاب هرم فعجز عن الصيد وصارت فرائسه تمرح أمامه نظرا لعجزة، وينسحب هذا المعنى على الأشخاص العظماء والدول الكبرى إنه الجلال عندما يشيخ، يقول الشاعر عن العقاب:

يهم ويعييه النهوض فيجثم

ويعزم إلا ريشه ليس يعزم

لقد رنق الصرصور وهو على الثرى

مكب وصاح القطا وهو أبكم

يلملم حدباء القدامى كأنها

أضالع في أرماسها تتهشم

ويثقله حمل الجناحين بعدما

أقلاه وهو الكاسر المتقحم

إذا أدفأته الشمس أغفى وربما

توهمها صيدا له وهو هيثم

لعينيك يا شيخ الطيور مهابة

يفر بغاث الطير عنها ويهزم

وما عجزت عنك الغداة وإنما

لكل شباب هيبة لا تهرم

وفي قصيدته عن "أسوان" وقصرها الفرعوني العتيق الذي زاره الشاعر هنا نقف أمام الجلالين جلال المعمار الهندسي وجلال التعبير الفني عند الشاعر يقول العقاد:

رعى الله من أسوان دارا سحيقة

وخلد في أرجائها ذلك القصرا

أقام مقام الطود فيها وحوله

جبال على الشطين شامخة كبرا

وليلة زرنا القصر يعلو وقاره

وقار الدجى الساجي وقد أطلع البدرا

قضى نحبه فيه الزمان الذي مضى

فكان له رسما وكان له قبرا

فياوجه "أوزيريس" هلا أضأتها

وأنت تضئ السهل والجبل الوعرا

فما رفعت إلا إليك تجلة

ولا رفعت إلا إلى عرشك الشكرا

ولست ضنينا بالضياء وإنما

لكل إله ظلمة تحجب الفكرا

وأحص مفردات العظمة والجلال في هذا المقطع من مثل :

الطود، شامخة ،كبرا، وقاره، قضى نحبه فيه الزمان، تجلة، رفعت، إله .....الخ

أما ناقدنا الكبير الدكتور شوقي ضيف فيري أن العقاد أقحم الفكر والمنطق في الشعر فجاءت قصائده دلائل منطقية ومسائل عقلية لغلبة الفكر والحجاج على الكاتب الشاعر العقاد وأنت واجد مثل هذا في شعره.

اقرأ هذا المقطع لتقع على صحة هذا الرأي:

وهذا إلى قيد المحبة شاخص

وفي الحب قيد الجامح المتوثب

ينادي أنلني القيد يا من تصوغه

ففي القيد من سجن الطلاقة مهربي

أدره على لبي وروحي ومهجتي

وطوق به كفي وجيدي ومنكبي

ورب عقيم حطم العقم قيده

يحن إلى القيد الثقيل على الأب

فهذه فلسفة عميقة تؤكد أن لا حياة بلا ضرورة وأن القيود مهماز القريحة والإرادة الإنسانية .

أما هذا المقطع فهو زبدة التأمل والتفكير لا يتأتى إلا لأولي الفكر والحجاج:

والعقل من نسل الحياة وإنما

قد شاب وهي صغيرة تتزين

والطفل تصحبه الحياة وما له

لب يصاحب نفسه ويلقن

إن العواطف كالزمام يقودنا

منها دليل لا تراه الأعين

على أن في بعض قصائد العقاد غنائية شجية استلها من مكنون ضميره وسلخها من تباريح وجدانه وآهات نفسه وقل في الشعر العربي من بلغ هذه الغنائية الحزينة حتى المتنبي الذي يقول :

يا ساقيي أخمر في كؤوسكما

أم في كؤوسكما هم وتسهيد؟

إن طلبت كميت اللون صافية

وجدتها وحبيب النفس مفقود

يقول العقاد :

ظمآن لا صوب الغمام ولا

عذب المدام ولا الأنداء ترويني

حيران، حيران لا نجم السماء ولا

معالم الأرض في الغماء تهديني

يقظان، يقظان لا طيب الرقاد يدا

نيني ولا سحر السمار يلهيني

غصان ،غصان لا الأوجاع تبليني

ولا الكوارث والأشجان تبكيني

سأمان، سأمان لا صفو الحياة ولا

عجائب القدر المكنون تعنيني

أصاحب الدهر لا قلب فيسعدني

على الزمان ولا خل فيأسوني

يديك فامح ضنى يا موت في كبدي

فلست تمحوه إلا حين تمحوني

وبعد : فهل العقاد شاعر ؟

وجوابنا:

نعم إنه شاعر ولئن طغت شهرته كناقد وقصصي وكاتب مقالات وباحث في سير العظماء فلن نبخسه حقه في إلحاقه بمملكة الشعر ، ونزعم أن له في وادي عبقر الهاتف الذي يزين له زخرف القول، وفي تقديرنا أن الشعر الحديث الذي جدد بهاءه وأحيى مواته البارودي وحافظ وشوقي ، ونفخت فيه روح الحياة جماعة "أبولو" برومانسيتها الحزينة والرابطة

القلمية بانطلاقتها الوثابة، إن هذا الشعر بحاجة إلى دواوين العقاد وإن موقفه من الشعر صحيح سليم ولو أنه يفهمه كما فهمه كبار شعراء الإنجليز وديوان

" عابر سبيل" يعتبر فتحا في الشعر العربي بعد أن عفر جبينه أحقابا أمام قصور الخلفاء، فالشعر صورة من الحياة ونسل مبارك من رحمها وفي الحياة أطياف ومشاعر و طرائق قدد يتسع لها الشعر جميعا بما فيها الفكر وثمار العقل وهذه هي أهمية العقاد كشاعر.

ولعل نقيصته الوحيدة تحامله الشديد على شوقي لسبب نفسي أكثر منه فني ثم حملته الشعواء على شعر التفعيلة الذي توطدت دعائمه وبذخت صروحه وكان فتحا جديدا في حياتنا الأدبية.

شعرنا بين مد التجديد وجزر التقليد [1]

ألا ياطائر الفردو س إن الشعر وجدان (عبد الرحمن شكري)

الشعر صورة من الحياة ونسل من رحمها ، وهو ترجمان الشعور ، وفيض من توتر الروح وسبحات الوجدان، وكل موضوع من مواضيع الحياة ،سما أو انحطّ مثاليا كان أم واقعيا، وكل همسة أو خفقة قلب أو شرارة انقدحت في الوجدان هي مجالات الشعر.

وليس يعني الشاعر في شعره بالمثل والقيم العليا فما هو بفيلسوف ولا داعية ولا مصلح إنساني ، وإذا جاء شيء من هذا في شعره فهو من طريق غير مباشر وإلا فسدت رسالة الشعر ، ورسالته تحمل في كلمة فحواها أن الشعر تعبير عن الوجدان.

إن الشاعر الحقيقي صنو للإنسان الحقيقي فكما لا يكون الشاعر شاعرا إلا إذا امتلك زمام اللغة وتبحر في بلاغتها وعرف أوزان الشعر وقواعده فليس هو بشاعر إن خلا قلبه من الحب – حب الكائنات والطبيعة – والسعي إلى إضافة شيء في المعمار الإنساني.

ومن ثمة تسقط الدعوة التي يروج لها بعض الناس وهي أن الشعر لا يكون شعرا إلا إذا تضمن الأشياء العظيمة وحلق في سماء الفضيلة وما عداه ففحش ومجون.

وفي الواقع فشاعرية الشاعر لا تقاس بنوع الموضوع الذي يتطرق إليه في شعره ومن ثمة الحكم بالإبداع أو الرداءة وإنما بطريقة الأداء وكيفية التصوير ودلالة اللفظ على المعنى وتدفق الشعور كتيار مصاحب للصور الشعرية وهي وحدها العناصر التي يحاسب عليها الشاعر.

وفي تراثنا الشعري القديم كثير من المنظوم الذي ليس بشعر، فمنه ما يخلو من صدق الشعور وأكثر شعر المديح من هذا القبيل ، وفي دواوين الشعراء الكبار كالمتنبي وأبي تمام والبحتري كثير من هذه السقطات التي ابتغى بها هؤلاء الشعراء حطام الدنيا مقابل

[1] . مجلة تعابير المملكة العربية السعودية يناير2008.

التزييف والقفز على قناعات عقولهم وأحاسيس وجدانهم فالمتنبي الذي يقول في كافور:

قواصد كافور توارك غيره

ومن قصد البحر استقل السواقيا

يعود ليقول فيه:

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة

ليضحك ربات الحداد البواكيا!

ولا لشيء إلا لكونه انتظر إمارة من كافور ولم ينلها:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله

فإني منذ حين أغني وتشرب ؟

فأين هو صدق الشعور الذي انقلب من الضد إلى الضد في أمد قصير؟ ولم يسلم شعراء الجاهلية على علو كعبهم في الشاعرية من آفة تسيء إلى الشعر وهي آفة التقليد فإذا كان امرؤ القيس قد وقف على الديار فبكى واستبكى حسب غيره من الشعراء أن عليهم سداد دين لآلهة الشعر ليترصدن خطى الملك الضليل حتى ولو لم يكن لأحدهم في سوق الهوى الذيوع وما وقف حقيقة على طلل. ولذا عد أبو نواس شاعرا بحق لأنه قال:

عاج الشقي عن رسم يسائله

وعجت أسأل عن خمارة البلد

لقد جعل الشعر ترجمانا عن وجدانه ولسانا يبين عن حاله، وقد كان أبو نواس رجلا غاص في الرذيلة إلى الأذقان، ولم تكن حياته إلا السكر والإمعان في الفجور وهو يبدع حين يصف عربدته ودعارته وليس أبدع في وصف الخمرة وتأثيرها من قوله:

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها

إن مسها حجر مسته سراء

وحياة أبي نواس لا ترضي المثل ولا يرضى عنها أهل المروءة ولكن شعر أبي نواس هو في القمة من حيث استيفائه على عناصر الشعر ومكوناته.

والشعر إذا تخلى عن جوهره وساير مجالا غير مجاله فقد صفة الشاعرية وتحول إلى نظم وقل مثل هذا عن الشعر الأخلاقي والوعظي المباشر وديوان الشافعي ولامية ابن الوردي خير مثال على هذا.

والشعر موسيقي في الصميم فهو على حد تعريف القدماء له الكلام الجميل الموزون المقفى، وقد حافظ الشعر العربي على نسقه العمودي أحقابا طويلة، واقتضت ضرورة الحياة وتطوراتها وتباين البيئة من إحداث تجديد فيه دون التخلي عن الأوزان الخليلية وأفضل مثال على ذلك الموشحات الأندلسية واستعمال الأبحر المجزوءة واستحداث التغيير في بحر بعينه كمخلع البسيط وقد نظم علية ابن الرومي هجائيته المشهورة:

وجهك ياعمرو فيه طول

وفي وجوه الكلاب طول

ولكن في العصر الحديث ونتيجة لاحتكاك الشعراء بالثقافة الغربية الوافدة وبتأثير من الشاعر الإنجليزي توماس إليوت، ثار لفيف من الشعراء العرب على عمود الشعر، ذلك أنهم رأوا فيه إكراهات وقيود تعيق حرية الشاعر ولعل أهمها تبعية الشاعر للغة قصد الاستجابة لدواعي الوزن، وعلى الرغم من أن هؤلاء الشعراء بإمكانهم تنويع القافية كسرا لهذا الغل، إلا أن هذه الحرية في معتقدهم لا تشفي الغليل ، فالشعر تيار نفسي مسكون بالرغائب والهواجس والانفعالات مسكوب في قوالب لفظية ودرجة الانفعال وحدته هي التي تتحكم في طول وقصر البيت وهو ما يسمونه بالسطر ولقد كان السياب ونازك الملائكة والبياتي وصلاح عبد الصبور وخليل حاوي وأمل دنقل ونزار قباني خير من يمثل هذه الحركة التجديدية ، التي لاقت معارضة شرسة من قبل المحافظين على عمود الشعر ولعل أبرز المعارضين العقاد ، وله في ذلك حجة ذكية تستحق النظر وفحواها أن الشعر حركة ومناورة في فن محكوم بالقيود (الوزن والقافية) والشاعر الحقيقي هو الذي يتحرك بخفة ورشاقة دون أن تحد تلك القيود من مرونة حركته، فهو يعبر عن رغائبه وبنات أفكاره

ومشاعره أتم تعبير وأكمل تصوير وكأن تلك القيود غير موجودة أصلا وله في ذلك قصيدة طريفة بعنوان " حانوت القيود".

لا ريب أن العقاد قد غالى في حملته على الشعر الجديد، وقد جانب الصواب حين أحاله على لجنة النثر للاختصاص، فالبحور الشعرية وشكل القصيدة العربية المتوارثة ليست وحيا منزلا وما على الخلف إلا الاتباع، فلأبناء هذا العصر ثقافتهم وظروف حياة تختلف عن حياة آبائهم وعالم يعيشون فيه يمتلأ حركة ونموا ومرونة فمن السخف غض النظر عن كل هذه الأشياء والركون إلى ميراث الأجداد لاستهلاكه دون أن يضيف إليه الأبناء شيئا جديدا.

إن في الشعر الحديث إنجازات شعرية كبيرة هي ترجمان الشاعر والعصر على السواء وهي قصائد تستحق البقاء حتى وإن كانت الذاكرة قد ألفت حفظ الشعر العمودي وترديد حكم المتنبي وغزليات امرىء القيس وخمريات الأعشى ومواجد ابن الفارض .

وإن القارئ الحصيف الحي الضمير ، المرهف الإحساس ، الغني العقل ليجد في قصائد من مثل" دار جدي " و " أنشودة المطر " للسياب و "الظل والصليب" لصلاح عبد الصبور ، الفن الكبير الذي يغذي العقل والوجدان على السواء .

ولا أدل على ذلك من هذا المقطع لخليل حاوي من ديوان " نهر الرماد ":

خلني للبحر، للريح، لموت

ينشر الأكفان زرقا للغريق

مبحر ماتت بعينيه منارات الطريق

مات ذاك الضوء في عينيه مات

لا البطولات تنجيه ولا ذل الصلاة !

فهو مقطع قد تكاثفت فيه الروح الشعرية ، وتعددت فيه صور الضياع ومشاعر الكآبة و الانسحاق ، وموسيقاه مناسبة تماما لهذا الغرض أي الأزمة الوجودية الخانقة التي يحياها الشاعر .

والشاعر يعتمد تكرار (فاعلاتن) من بحر الرمل في كل سطر حسب حاجته النفسية:

فاعلاتن فاعلاتن فعلاتن

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن

فاعلاتن فاعلاتن فعلاتن فاعلن

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن

فاعلاتن فعلاتن فعلاتن فاعلن

فمن غير المقبول اعتبار هذا الإبداع الشعري المحكم البنيان ،الغني بالصور الشعرية ،والطاقة الشعورية المتدفقة من وجدان الشاعر محالا على لجنة النثر للاختصاص.

وأزمة الشعر الحديث في رأينا تأتي من كون الجيل اللاحق لجيل الكبار (السياب، الملائكة ،البياتي، دنقل، عبد الصبور) لم تستقم له الملكة الشعرية ولا تهيأت له أسباب السيطرة على اللغة العربية ولا تعمق في دراسة الشعر العربي الكلاسيكي ، ولا تمرس بدراسة المذاهب والنظريات النقدية الغربية والشرقية على السواء، ناهيك عن الجهل التام بالعروض وقواعده والقافية وأصولها، وأغلبهم يعجز عن إنشاء قصيدة عمودية، ولذا تراه تحت دعاوى التجديد والحداثة وما بعد الحداثة يحاول إخفاء عورته والتستر على فقره بهذه الرطانات التي يسميها صاحبها شعرا حديثا وفي الواقع هي مؤشر الأنيميا الشعرية والسقوط الفاضح.

وما نحسب أن هؤلاء الكبار الذين أشرنا إليهم كانوا يعجزون عن النظم حسب أصول القصيدة العمودية، وللملائكة والسياب بل ولعبد الصبور قصائد عمودية، تدل على تمكن هؤلاء الشعراء من القصيدة العمودية، ولكنها الروح التجديدية الوثابة هي التي حدت بهؤلاء الكبار إلى إنتاج شعري جديد شكلا ومضمونا.

قدموس ثائرا أ جبران ونزعة التمرد [1]

من غرائب هذه الدنيا التي لا تنتهي وأعاجيبها التي لا تني تفاجئ الإنسان أن بعض المناطق المعزولة في أعالي الجبال أو المشردة في الفيافي

والتي لا تعدو أن تكون قرية صغيرة في أحسن الأحوال تصيب من الحظ ومن الشهرة ما لا تصيبه أكبر المدن في الدنيا وذلك كله بفضل شخصية تولد في تلك المنطقة إذ تبدأ مغمورة في أسرة يائسة فقيرة، يتناوب عليها الفقر والجوع والداء العضال ثم تنتهي تلك الطفولة المشردة سليلة الجوع والعري والمرض إلى كهولة ناضجة تشع علما وعبقرية وعطاء يجتهد الدارسون في فهم أسرار عبقريتها وفي كيفية قهرها للظروف كما لا يفوتهم أن يدرسوا الظروف الحياتية التي أنتجت تلك العبقرية فتنال تلك المنطقة الشهرة ويقترن اسمها باسم ابنها الذي غدا شخصية من شخصيات التاريخ الكبيرة .

كذلك كان الشأن مع " بشري " إحدى قرى لبنان المعزولة وكذلك كان الشأن مع فتاها جبران خليل جبران الذي ملأ العالم العربي أدبا وتمردا وشغلا للناس لم ينته برحيله عن هذه الدنيا ، وليس من شأن هذا المقال أن يهتم بالتأريخ لحياة جبران وقد أشبعها الباحثون درسا وتحليلا، ولم يعد فيها ما هو خاف على القارئ العربي ، إنما يهدف إلى تسليط الضوء على جملة الظروف التي حفت بكاتبنا فأثرت فيه وأثر فيها سلبا وإيجابا ووجدت صداها في كتاباته النثرية والشعرية على السواء وإذا كان لابد من ذكر بعض التواريخ وتتبع مراحل حياة الكاتب فلخدمة غرض المقال ذلك أن الإنسان ابن بيئته وإذا كانت الهندسة التحليلية تعين كل نقطة في الفضاء بفاصلتها وترتيبها وذلك ما يسمونه بإحداثيات نقطة في مستوى، فكذلك الشأن مع الإنسان فاصلته الزمان وترتيبه المكان لتتشكل إحداثيات الكائن البشري وأما الفاصلة أي الزمان بالنسبة لكاتبنا فهي العام 1883 وأما الترتيب أي المكان فقرية " بشري " من قرى الشمال اللبناني ، وأما الظروف السياسية السائدة في لبنان في تلك الحقبة وفي الشام عموما فطغيان سورة الاستبداد العثماني وقد خضع الشام لسلطة الأتراك الذين استبدوا به عن طريق ولاته وقد كانت شمس الدولة العثمانية آيلة إلى أفول منذ انهزام أسطولها في معركة " نافرين " عام 1827 ، وقد كانت أوروبا الناهضة تتهيأ لاقتسام تركة الرجل المريض والحلول مكانه في شرق العالم العربي وفي غربه ، ولم يبق من العثمانيين

---

[1] . مجلة المغترب العربي كندا 2007.

وشوكتهم آنذاك غير استبدادهم بالعرب وبطش ولاتهم بهم ومصادرة الحريات بل وإزهاق الأرواح و فرض الإتاوات والضرائب على السكان لدفع رواتب الجيش

وإغراق ضباطه في النعيم حتى لا يثور الجيش على الباب العالي وينهي حكمه وتحمل العرب ذل العثمانيين واضطهادهم بكبرياء وشموخ حتى إذا أشرقت شمس القرن العشرين رأيت العرب في الشام وفي لبنان خاصة يؤسسون حركة قومية تناهض الحكم العثماني واستبداده وتدعو إلى الاستقلال عنهم وتناضل في سبيل ذلك سرا وعلانية وقد انتهى شأن الكثيرين من أحرار لبنان والشام إلى الإعدام شنقا وجرائم السفاح جمال باشا في العالم العربي مشهورة ومدونة .

وما كان وجود العثمانيين في العالم العربي إلا نزولا به في دركات الجهالة والعماء وقد أدت تلك الحقبة المؤلمة إلى انحطاط اجتماعي تميز بالطبقية الجائرة ففئة من الانتهازيين ناصرت العثمانيين وشكلت طبقتها البيروقراطية في الشام كما شكل لفيف من ضباط الجيش فئة مستفيدة من ريع الحكم الجائر ماديا واجتماعيا ولعامة الشعب العري والخصاصة والموت جوعا ومرضا وقد أزهقت الحريات وكممت الأفواه ونصبت المشانق عوض نشر العلم وطبع الكتب وجعل العالم العربي والإسلامي منارة علم وقطب إشعاع ، والحق أن الحكم العسكري لا يجلب إلا الوباء الأخلاقي والفكري والاجتماعي لأن العسكر حزمة من الغرائز وقبضة حديدية لا تذيبها شمس أغسطس الحارة، وتلك هي ميزة الحكم العثماني الذي كان حكم سيف لا حكم شورى ودولة جهل لا دولة علم ومدنية ورقي وقد تسرطنت كل نواحي الحياة بهذا السرطان العام فلحق الحياة الاجتماعية المسخ والتشويه وانحطاط القيم وشيوع الدجل والشعوذة وروح السحر والخرافة وأخذت العلاقة بين الرجل والمرأة صيغة الحريم التي تنمي في الرجل الشبقية و تختصر المرأة إلى كائن ذي جاذبية جنسية ، وتآمر الإقطاع الزراعي مع الكهنوت الديني ، فغدا الدين الرسمي مباركة للوضع القائم وترسيما له بالنصوص المقدسة وعملا بالقول المأثور " حاكم ظلوم خير من فتنة تدوم " و" ليس في الإمكان أبدع مما كان " إنها إذا حقبة مظلمة هيأت العالم العربي بعد قرون من السبات والتقليد

والاجترار والاستبداد السياسي إلى الوقوع فريسة للمطامع الأوربية التي اقتسمت عالمنا العربي غنيمة مربحة وزادت من بلائنا وتخلفنا.

هذه هي الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي ولد فيها جبران خليل جبران وقد ذاق ككل الأطفال العرب البؤس والخصاصة والعري في أسرة متواضعة فالأم معدمة مع طيبتها والأب سكير والإخوة فرائس لداء الصدر،غير أن نور العبقرية لا يلبث أن ينير الحلكات وترتيب الأقدار سيقوى على الظروف فإذا العزيمة لا تهن وروح المغالبة لا تخمد، وهكذا سار الطفل جبران في طريق المعرفة فتعلم ببيروت وأقام أشهرا بباريس ولا شك أن إقامته تلك بباريس قد حسمت مسار حياته بتوجهه إلى الفن

والأدب وباريس كعبتهما فهي موطن الإلهام وممكن الإبداع ومستودع العبقرية تعج أرضها بعرائس الشعر وحوريات الفن ، فعلى أرضها يستقر اللوفر ويجري السين وفي حدائقها المنسقة والمزينة بالتماثيل كتب موسيه و فيني أشعارهما الخالدة، غير أن الفتى جبران هاجر مع أسرته إلى الولايات المتحدة شأن اللبنانيين في تلك الحقبة هربا من الاستبداد السياسي وقهر الحاجة و تفشي البطالة والجوع والمرض ، بحثا عن ظروف حياة أفضل في بلد اتخذ للحرية تمثالا ضخما عند مرفأ مدينة نيويورك وهو بلد فتح ذراعيه للمهاجرين والمغامرين من كل حدب وصوب فلا مناص من النزوح إليه أملا في غد مشرق وقد استقر جبران مع أسرته في مدينة

" بوسطن " أو " باريس أمريكا " كما تسمى وما أن طفق يكتب حتى أحس بالحاجة إلى التعمق في العربية ودراسة علومها والإحاطة بأسرارها لأنه أحس بضعف أداته، وعاد إلى لبنان ليقيم أربع سنوات في بيروت متفرغا لدراسة اللغة العربية والتمكن من اللسان العربي ، وفي عام 1908 عاد إلى باريس دارسا للفن على يد النحات الفرنسي الكبير" رودان " وقد حاز في آخر الأمر على إجازة في فن التصوير . وللسيدة الأمريكية " ماري هاسكل" فضل كبير عليه في تذليل دروب الإبداع له وذلك باحتضانه والتكفل به بالإنفاق عليه في أمريكا وفي باريس وفي تعريف الأمريكيين به وبفنه وبالمعارض التي أقامتها له ولا ريب أنها كانت تكن له حبا عميقا بدليل مذاكرتها وما باحت به من حقائق وقد بلسمت هذه السيدة جراحه بعد رحيل أخته وأخيه ثم أمه بداء الصدر فكانت " ماري هاسكل " الأم والأخت والزوجة والصديقة، أبدلته أمنا بعد خوف وسكينة بعد قلق

وبلبال وعيشة لا بأس بها بعد خصاصة ومسغبة، فتفرغ لفنه وأدبه راسما وكاتبا إلى وفاته عام 1931 مخلفا دررا في العربية جددت وجه النثر العربي بتأجج المشاعر وانطلاق الخيال وحلاوة الأسلوب مع سلاسته وقد استعار جبران كثيرا من مفرداته من الطبيعة ففعلت فعلها في القلوب ، بالوقوع على معاني بكر لم تتحقق لكاتب من قبل وباقتباساته من

العهدين القديم والجديد ، كما أفاد تمكنه من اللغة الإنجليزية الاطلاع على عيون الأدب الأمريكي والإفادة منه وقد خلف من آثاره باللغة الإنجليزية

" المجنون و" النبي " و" السابق" أما مؤلفاته بالعربية فأشهرها " دمعة وابتسامة " و " الأرواح المتمردة " و " الأجنحة المتكسرة " و" المواكب " و " العواصف " وغيرها.

فقد كانت حياة جبران إذا حياة اضطراب و ترحال استهلها بطفولة بائسة معدمة في كنف أسرة يتناوب عليها الجوع والداء الذي ذهب بأفرادها وأما الأب فمدمن خمر تارك لواجباته ، وحياة اجتماعية متفسخة تعفنت فيها جميع القيم وتنقل بين لبنان وفرنسا وأمريكا بحثا عن ظروف مثلى للعيش والإبداع ، غير أن ترتيب الأقدار كان في صالح جبران فقيض له السيدة

" ماري هاسكل " التي احتضنته واحتضنت فنه وأدبه ثم اشتراكه في تأسيس الرابطة القلمية عام 1920 مع لفيف من أدباء المهجر كميخائيل نعيمة وعبد المسيح حداد ورشيد أيوب ووليم كاتسفليس وأمين مشرق

وأمين الريحاني ونسيب عريضة وغيرهم ، كانت تلك الرابطة تجدد في الأدب العربي شكلا ومضمونا وتكتسح العالم العربي حاصدة الإعجاب

والتأييد من جماهير القراء العرب وفي مجلتها كتب جبران ونشر شعره ونثره ، وبفضلها عرف في المشرق والمغرب .

فلا يمكن فهم تمرد جبران بمعزل عن الظروف التاريخية التي نشأ فيها فقد كان روحا وثابة وعقلا بحاثا ونفسا طموحة غير أن بيئته تسعى لأن توثقه بوثاق الرجعية وتشده إلى عفونة الماضي وآصار الحاضر بحبال سميكة فتائلها الإقطاع الزراعي والسياسي والديني ولهذا صب عليها جام غضبه فاضحا جبروت الحاكم ونفاق رجل الدين وبلادة ملاك الأراضي الذين اصطلحوا على البدن العربي كالسرطان ينهشون لحمه ويمتصون دمه

ويجهزون على البقية الباقية فيه . ثم أن حياة أسرته ذاتها المترنحة بين انحراف الأب وعجز الأم ومرض الإخوة وقهر الظروف عمق في نفس جبران مشاعر الحقد والكراهية للظروف التي تحاول أن تغتال فيهم الروح الإنسانية والكرامة البشرية وهو نفسه في حياته كان مثالا للتذبذب والاضطراب فمن حياة من غير أسرة إلى عشرة بغير زواج مع " ماري هاسكل " إلى تناول المخدرات لتناسي الجرح وقهر الزمن وتسلط القدر الذي عمق في نفسه مشاعر الإحساس

باليتم ، إلى الثورة على السماء التي لا تبالي بعذاب المعذبين والتي تتواطأ بالصمت واللامبالاة و كأنها بكماء خرساء وقد تشفى جبران منها بإنكارها والتعالي عليها لأنها لا تفعل شيئا لتغيير الواقع فتفضح المتدين المنافق وتغتال السياسي المستبد وتصيب بالشلل الإقطاعي الذي ينمي ثروته من امتصاص دماء الفلاحين

واستغلال عرق الجبين.

وهناك شيء لا يفوتنا إغفاله وهو نظرة جبران إلى المرأة تلك النظرة التي لا تختصر المرأة في الجاذبية الجنسية وتلقي بها دمية في مخدع الرجل

ولا يفوته أن يعيرها بقصورها وبحيضها وهي نظرة العربي اليوم إلى المرأة ، فعلى الرغم من مشاعر الود التي احتفظ بها جبران لماري هاسكل التي وجد في أحضانها الدفء والرعاية والحب إلا أنه بعقله النافذ أدرك أنها ربما مودة أملتها ظروفه البائسة هو وإشفاق ماري عليه وهذا ليس بحب حقيقي فاتجه بحبه نحو امرأة أخرى هي "ماري إلياس " أو " مي زيادة " تلك الفلسطينية ثم اللبنانية والمقيمة بمصر صاحبة الحس المرهف والخيال الجامح والقلم السيال والذكاء الخارق وصاحبة الصالون المشهور وقد كانت تتألق فيه يوم الثلاثاء فتغدو أشبه بالمصباح يحوم حوله الفراش وما الفراش إلا نوابغ مصري ذلك الزمان كعباس محمود العقاد وأحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل وقاسم أمين وطه حسين ومصطفى صادق الرافعي ومحمد عبده وغيرهم وقد وجد فيها جبران المرأة الحقيقية التي ظل يبحث عنها ويهيم بها ، امرأة غير نساء الحريم بل إنسان من لحم ودم وروح و كيان متميز وفردية مستقلة ، ليست ظلا للرجل ولا تابعا له، وقد بادلها مودة بمودة رغم البعد ، فلم يرها ولم تره حتى فرق الموت بينهما برحيله هو ثم التحاقها بشاطئ العدمية بعده .

وربما أمعن حبران في ثورته وفي تمرده وربما بتأثير من المخدر فتوهم نفسه بوذا أو زرادشت يسوق الحكم ويلقي بالمعاني البكر فشط أحيانا عن الصواب وموقفه من الأسرة فيه شطط ومغالاة فهو يقول في العواصف

" إنما الزواج عبودية الإنسان لقوة الاستمرار فإن شئت أن تتحرر طلق امرأتك وعش خاليا " .

وهو في بحثه عن المعاني ونبشه في بطون الألفاظ وبحثه عن اللباب يغالي في تمرده وفي مواقفه مسفها القيم والمثل العليا معتبرا إياها جسدا بغير روح أو جثة محنطة من بقايا التاريخ فهو يقول في العواصف : " قلت أؤمن بالله وأكرم أنبياءه وأحب الفضيلة ولي رجاء بالآخرة . فقال : هذه ألفاظ رتبتها الأجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين شفتيك، أما

الحقيقة المجردة فهي أنك لا تؤمن بغير نفسك ولا تكرم سواها ولا تهوى غير أمياها ولا رجاء لك إلا بخلودها ، منذ البدء والإنسان يعبد نفسه ولكنه يلقبها بأسماء مختلفة باختلاف أمياله وأمانيه فتارة يدعوها البعل وطورا المشتري وأخرى الله ."

وليس من العسير دحض هذه المقولة التي ترمي إلى إنكار المطلق

والمعياري ، وبغيرهما يتسيب الوجود وتغدو الحياة الإنسانية هملا ، وفي التاريخ من الشخصيات من أنكرت "أناها " وضحت بنفسها في سبيل نصرة الحق والانتصار للإنسانية وفضائلها ، وجبران يعرف ذلك جيدا ، إنما هي آثار الظروف وجراح الواقع التي لم تندمل حتى وهو في أمريكا .

غير أن في بعض أفكار جبران معاني بكر تعزز الحرية الإنسانية وتستخلص اللباب من القشور وهي تستفز عقل القارئ وتدعوه للتأمل

والتفكير في مسار حياته معتمدا على " أناه" باحثا عن حريته مثمنا قدراته الشخصية ونوازعه الذاتية ولو استلزم ذلك إنكار الماضي والولوع بالحاضر : "إن بلية الأبناء في هبات الآباء ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات ".

وأما الثورة التي أحدثها جبران في الأدب العربي فتكمن في أسلوبه الأدبي الذي تجاوز به مدرسة الإحياء في النثر العربي خاصة أسلوب المنفلوطي، وفي نثره شعرية وموسيقى داخلية وروح رومانسية حالمة ثائرة باحثة عن الحرية متعطشة إلى الكمال أوهي ناسوت باحث عن اللاهوت وهنا تكمن عظمة جبران ككاتب، وأي إنسان لا يقرأ هذه الكلمات ولا تحرك وجدانه وتستفزعقله وتقع الألفاظ المستمدة من الطبيعة موقع الرضا والاستحسان من القارئ .." أنت تنظر بعين الوهم فترى الناس يرتعشون أمام عاصفة الحياة فتظنهم أحياء وهم أموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم "

ولقد تأثر جبران بالشاعر الإنجليزي الرومنطيقي وليام بليك بعد أن قرأ شعره وتمثل روحه وهو القائل : "اذهب وطور قابليتك على رؤية الرؤى حتى تصل بها إلى أفضل ما يمكن أن تكون عليه" .

فكان في أدبه صاحب رؤيا وكأنه عراف انسدل شعره، وعبثت الريح بأطراف ثوبه الأبيض وتحركت الطبيعة وهدر الوجود بخفيف شجره وخرير مائه ولمعان برقه وهزيم رعده و امتدت نظرة الشاعر وثابة نحو الآفاق لا تنكسر ولا تلين باحثة عن عالم تزداد فيه إنسانية وشهامة وعدلا

و أما جبران في شعره فكان ناظما أكثر منه شاعرا فلقد تكلف الوزن والقافية فوقع فيما أنكره على غيره ، وفي شعره حاول أن يبدي موقفه من الوجود وجدية العلاقات الإنسانية ومضمونها ، وهو متأثر بنيتشه وببوذا وزرادشت ومحي الدين بن عربي ويسوع فاقتبس معاني كثيرة عنهم وسجنها بين حيطان البيت وسقف القافية فجاءت أدنى مستوى من نثره ذي الروح الشعرية واللمسة الإنسانية :

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا

والشر في الناس لا يفنى وإن قبروا

وأكثر الناس آلات تحركها

أصابع الدهر يوما ثم تنكسر

فأفضل الناس قطعان يسير بها

صوت الرعاة ومن لم يمش يندثر

والعدل في الأرض يبكي الجن لو سمعوا

به ويستضحك الأموات لو نظروا

فالسجن والموت للجانين إن صغروا

والمجد والفخر والإثراء إن كبروا

فسارق الزهر مذموم ومحتقر

وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر

والحق للعزم والأرواح إن قويت

سادت وإن ضعفت حلت به الغير

ففي العرينة ريح ليس يقربه

بنو الثعالب غاب الأسد أم حضروا

وتأثر جبران هنا بفيلسوف القوة " نيتشه " صاحب كتاب "هكذا تكلم زرادشت" واضح لا ينكر.

وبعد فماذا يبقى من جبران وماذا يثمن من مواقفه ؟

لقد كان جبران ظاهرة أدبية حقيقة بالإعجاب والتقدير مستحقة للخلود الأدبي، تجاوزت شرطها الحياتي بفاصلته وترتيبه كما يقول علماء الرياضة وقهرت ظروفها بعبقريتها وعطائها ومعاناتها الإنسانية ولعل من أثمن مواقفه دفاعه عن الحرية الإنسانية وهي لباب الوجود الإنساني وحملته على التقليد ومقته للتعصب ودعوته إلى التسامح الديني وحربه الشعواء على الإقطاع السياسي والزراعي والديني وتنديده بالطبقية الجائرة تلك الموبقات التي هدت عافية العرب وأسلمتهم لقمة سائغة إلى القوى الإمبريالية الأوروبية ثم الأسلوب الساحر بروحه الشعرية وتراكيبه البديعة وخياله الخلاق وإيقاعه الشعري ، تلك الميزات التي تعرج بالقارئ إلى سماوات الفن والهيام على الرغم من بعض سقطاته اللغوية ويشفع له اضطراب حياته، ثم حياته فيما بعد في المهجر يتكلم بغير لغته الأم، وعلى الرغم من إسفافه أحيانا وتعاليه على قيم الدين والحياة وتسفيههما وهذا كله يفهم بالاستناد إلى الخلفية اللاشعورية فقد تركت ظروف القهر ندوبا في نفس نابغتنا لم تقوا أمريكا ولا الزمن على محو آثارها ولا بلسمة الجرح أو تضميده ، لهذا كله حق لنابغة لبنان والعرب أن يخلد في دنيا الإبداعوالأدب وحق لقريته " بشري" أن تنال حظها من الشهرة وهي تلك البلدة الصغيرة المعزولة في شمال لبنان .

ملاك لبنان الحزين.. فوزي المعلوف [1]

في الحياة نصادف صنفا من الناس يبدو غريبا مختلفا عن غيره من الناس لا نملك إزاءهم إلا التأمل في خفايا سرائرهم والتفكير في مسارات حياتهم وربما أسلمنا هذا التأمل والتفكير إلى الحيرة ثم التسليم بأن لله في خلقه شؤونا!

كذلك كان شاعر لبنان بل ملاكه فوزي بن عيسى إسكندر المعلوف(1899-1930) شابا جمع بين وسامة الملمح، وأناقة المظهر، وتوقد البصيرة ورهافة الحس ويسر الحال والشائع أن كل من يجمع بين هذه الصفات الفريدة والامتيازات النادرة أن يقبل على الحياة إقبال المتفائل، ويسعى في دروبها سعي الواثق من نفسه بقلب ينضح سرورا ونفس مطمئنة إلى نجاحها فيما أقبلت عليه من علم أو عمل، ولكن شاعرنا ما نضجت نفسه سرورا ولا امتلأ قلبه بالثقة في الحياة والناس، بل أسلم نفسه إلى حزن غامض دفين وقلبه إلى بلبال وعقله إلى بحران ، وكان شعره المرآة التي عكست تقلب هذه النفس المعذبة وهذا القلب الحزين، ولئن كانت زحلة التي ولد بها شاعرنا أواخر القرن التاسع عشر ، مهوى الأفئدة ومهبط الإلهام للشعراء والفنانين بما أفاء الله عليها من جمال الطبيعة والوجوه ، لم تستطع هذه الجنة الأرضية أن تثني الشاعر عن حزنه العميق وسويدائه المعذبة ، وهو مدين في عبقريته الشعرية لبلدته

وأسرته معا فوالده عيسى اسكندر المعلوف أديب مشهور وأخواه رياض

وشفيق شاعران مطبوعان وآل المعلوف في لبنان أسرة لامعة جمعت بين النجاح في العلم والعمل معا ، وقد خدمت هذه الأسرة الجليلة الأدب العربي خدمة لا سبيل إلى إنكارها أو التقليل منها ، تماما كما تشهد الثقافة العربية بفضل آل اليازجي وآل البستاني وتراثهما الفكري والأدبي خير ما تركت هاتين الأسرتين العريقتين للأدب والفكر العربيين.

كان فوزي في صباه شعلة متوقدة من الذكاء ، وحزمة حارة من المشاعر النبيلة ، وميلا فطريا إلى الشعر تذوقا وقرضا ، وأتاح له جو الأسرة الأدبي ومناخ زحلة الفكري ، ثم تمكنه من الفرنسية انطلاقة أدبية وثابة وتحليقا فكريا شامخا يأخذ من الشعر القديم الزاد البياني الذوقي ويلقح ذلك كله بثمرات الثقافة الفرنسية في الشعر والفكر حتى استوى شاعرا قديرا حق للبنان أن يفاخر به شعراء مصر والعراق وسوريا الكبار .

---

[1] . مجلة صوت العروبة أمريكا.

ولأن أهل لبنان أحفاد الفينيقيين سادة البحار، تعاف نفوسهم الركود، يسعون في الأرض كأنهم في وطنهم بلا خوف أو إحساس بالدونية فلا يلبثون أن يصبحوا سادة المجتمعات التي عاشوا في رحابها علما وعملا ويصبح سعيهم الناجح مضرب المثل، وهم إن اختلطوا بالمجتمعات الجديدة وتمكنوا من لغاتها وعاداتها وأساليب عملها وحياتها حتى لكأنهم أهلها الأقحاح لا ينسون وطنهم لبنان ولا لغتهم الأم – العربية- بل كانت تلك الهجرة فأل خير وبشارة يمن أكسبتهم تجارب ويسرا ماديا وخبرة عميقة بالحياة وبالنفس الإنسانية، فجاء أدبهم في لغته العربية أدب النضج والاستواء، كذلك كان شعر الشاعر القروي و إلياس فرحات وسعيد الشرتوني وشفيق المعلوف وغيرهم.

ولقد هاجر شاعرنا فوزي عام 1921 إلى البرازيل مع أسرته واستقر في مدينة " ريو دي جانيرو" حيث أنشأ مع أسرته معملا لإنتاج الحرير من دودة القز، ويبدو أن طبيعة الشاعر فيه المنطوية على حب الحرية والنفور من الرتابة ومن أغلال الوظيفة قد انتصرت فيه فترك حينها الوظيفة كمدير لمدرسة المعلمين في دمشق ثم أمين سر عميد كلية الطب ، ولبى نداء الغربة والمغامرة في المهجر الجنوبي .

ولقد أصاب الشاعر في البرازيل حظا عظيما من النجاح جعله من أعيان المدينة ونابهيها ورجال الأعمال فيها وكان في سيرته وعمله مضرب المثل لولا أن القدر شاء للشاعر مسارا أخر هو مسار العطب و الزوال في ميعة العمر ونضارة الشباب ، فقد توفي متأثرا بإصابته بالحمى في مستشفى مدينة " ريو دي جانيرو" وحزنت زحلة لفراق فتاها النابه وشاعرها الغريد.

غلبت على شاعرنا إذا نزعة التشاؤم ومال إلى الحزن العميق الذي لا تتبينه عامة الناس ، ذلك أن أثره لا يظهر على الوجه ، وقد تقدم أن شاعرنا كان قسيم الملمح وسيم المظهر ولكن حزنه ظهر في شعره الذي احتوى على فلسفته في الحياة . لقد كان روحا شفافة تشبعت بفلسفة

" رهين المحبسين " وصاحب "اللزوميات " أبي العلاء المعري القائل :

أنا صائم طول دهري، فطري

الحمام، ويوم ذاك أعيد

كما تشبعت بأفكار ومعاني " رباعيات " الخيام الداعية إلى نهب اللذات قبل الموت وإلى التحسر على عطالة الحياة، وجريان الزمن في اتجاه إعطاب الإنسان وجعل لحظات المتعة مجرد ذكرى ، أ لم يقل الخيام ؟:

غدونا لذي الأفلاك لعبة لاعب

أقول مقالا لست فيه بكاذب

على نطع هذا الكون قد لعبت بنا

وعدنا لصندوق ألفنا بالتعاقب

ففوزي المعلوف شاعر الرومنطيقية الحزينة ، كان نفسا شفافة وروحا قلقة معذبة لم يجد في أطايب الحياة ومتعها إلا فخا يقود الإنسان – في غفلة منه– باتجاه العدم ومخدرا يخدر الإنسان عن معضلة الفناء، لذا لم ينخدع الشاعر بصحة أو وسامة أو غنى أو عبقرية وظل يقظ الحواس، قلق الضمير ، شارد اللب كئيب النفس حتى وهو يتصنع الضحك أو وهو يظهر بمظهر المتفائل مراعاة لآداب اللياقة وا قرأ له هذين البيتين تقع على أخص خبايا نفسه :

مرحبا بالعذاب يلتهم العي

ن التهاما، وينهش القلب نهشا

مشبعا نهمة إلى الدم حرى

ناقعا غلة إلى الدم عطشى

فتراه كشعراء الرومنطيقية يذكر العذاب كأنه يتعمد به ويتطهر من أوصاب الحياة و أمراضها ، وهذان البيتان من آخر ما كتب الشاعر كما يروي كتاب سيرته، وأما تأثر شاعرنا بأبي العلاء المعري فظاهر لا يخفى و إنما الحيرة تأخذ صاحبها إن تساءل أكانت فلسفة فوزي تأثرا بفلسفة المعري ، أم أن الشاعر جبل على الحزن ومال إلى التشاؤم ووجد في رفقة المعري ولزومياته خير جليس و أنيس ؟

وهاهو يذكر المعري تصريحا:

من يمت ألف مرة كل يوم

وهو حي يستهون الموت مرة

تعب كلها الحياة وهذا

كل ما قال فيلسوف المعره

لقد كان شاعرنا صاحب تفكير حر وعقل نفاذ وبصيرة حية لا يميل إلى التسليم بما ورث عن الآباء من نمط تفكير وفلسفة بل ينفذ إلى أعماق المعنى كاشفا غثه من سمينه وصحيحه من زائفه، واقرأ له هذا المقطع الجميل وهو إن يبدو لقارئه مقطعا رومنطيقيا حزينا إذ يذكر الورود والنسيم والبهار إلا أنها رومنطيقية مفكرة عميقة التأمل ترى في مظاهر الوجود مسارب إلى الفناء والعدمية:

نظرت إلي وردة وقالت

أنت مثلي في الكون للكون كاره

ويح نفسي من الربيع ففيه

أجتنى بين آسه وبهاره

ومن الصيف فهو يحرق أكمامي

على رغمها بلفحة ناره

والنسيم البليل هل هو إلا

قاتلي بين وصله ونفاره ؟

يتصابى حتى أسلمه نفسي

فيجفو والعطر ملء إزاره

ثم يرتد وهو ريح فيرديني

ويمشي مهيمنا لانتصاره

بل ترى الشاعر وهو يكتب قصيدة عن قفاز عثر به ملقى على الثلج في يوم اشتد زمهريره سقط من غيداء، تراه دون أن يدري يذكر البعد والعذاب والذل والهجر وهي مشاعر سكنت لاوعيه واستوطنت سراديب روحه وتلا فيف مخه فتلون كل شيء كان يراه بلون واحد هو السواد يقول الشاعر عن القفاز اللقيط:

عثرت به في الأرض والثلج باسط

عليها جناحيه النقيين كالطهر

وقد بث فيه البرد والثلج رعشة

كما انتفض العصفور بلله القطر

فساءلته عمن رماه فلم يجد جوابا

بلى كان الجواب شذا العطر

فيا لك قفازا طريحا على الثرى

يعاني عذاب البرد والذل والهجر

نعمت بيمناها وكم لك قبلة

على الثغر منها والغدائر والصدر

وكم مرة منت عليك بزفرة

وكم مسحت دمعا على خدها يجري

إلى أن قضى بالبعد دهري عليكما

فلا حيلة في ما قضت حكمة الدهر

فلا مناص من الإقرار إذا بأن شاعرنا كان شاعر الحزن العميق والكآبة الغامضة، قد انتهى في تفكيره إلى عقيدة راسخة وقناعة ثابتة مفادها أن كل سعادة ونجاح في الحياة وكل عافية وغنى ووسامة ما هي إلا أعراض خادعة وسراب مضلل يتستر على هاوية العدم وقرار الفناء وتلك هي حقيقة الوجود ولا ريب أن شاعرنا أبا العلاء المعري هو فيلسوف هذا الاتجاه في الشعر العربي وتجد لحزن الشاعر هذا نظيرا عند لفيف من شعراء الرومنطيقية العرب الشباب كأبي القاسم الشابي وصالح الشرنوبي وبشير يوسف التيجاني بل وتجد له نظيرا عند شعراء الرومنطيقية في الأدب الغربي كجون كيتس Keats . وشلي Shelley ولامارتين Lamartine وألفريد دي موسيه A.D.Musset وشاعر إيطاليا الكبير ليوباردي Leopardi

ولا شك أن هؤلاء جميعا قد أحسوا بالوحدة وبالغربة كأنهم ليسوا من طينة البشر فصادقوا الطبيعة ووجدوا في القلم الخل الودود وكأنهم يقولون جميعا بلسان فوزي:

يا يراعي مازلت خير صديق

لي منذ امتزجت بي وستبقى

باسما من تعاستي حين أهنا

باكيا من تعاستي حين أشقى

كم حبيب سلا وعهدك باق

فهو أوفى من كل عهد وأبقى

يا يراعي رافقت كل حياتي

فارو عني ما كان حقا وصدقا

وقد اشتهر الشاعر بمطولة " على بساط الريح" ولقب من أجلها بشاعر

" الطيارة" وهي ملحمة شعرية تمجد الصفات الإنسانية النبيلة في الشاعر الحالم الوديع الذي يتنزه عن سفاسف الحياة وأدران الحياة الإنسانية ،إنه يسامر النجوم ويصادق الكواكب ويناغي القمر ويتعمد بالنور، ولا حد لأحلامه التي لا تشبه أحلام البشر في النجاح الدنيوي والرفاه المادي، ذلك أن الشاعر ينطوي على روح نورانية ونفس محصنة ضد المطامع البشرية الفانية ، وفي القصيدة كعادة الشاعر تأمل في طبيعة العلاقات الاجتماعية بين البشر وثورة ضد الاستغلال والطبقية وحسب البشرية أن الفناء لها بالمرصاد:

أنا عبد الحياة والموت أمشي

مكرها من مهودها لقبوره

عبد ما ضمت الشرائع من جور

يخط القوى كل سطوره

بيراع دم الضعيف له حبر

ونوح المظلوم صوت صريره

أنا عبد القضاء تملأ نفسي

رهبة من بشيره ونذيره

وعلى الرغم من أن الشاعر عاش شابا ومات يافعا إلا أنه يتصنع أحيانا حكمة الشيوخ وخبرة من بلغوا من الكبر عتيا غير أن حكمته تأتي مستساغة يتقبلها القارئ دون أن يرى فيها تكلفا ،لأن نفس الشاعر مفطورة على التشاؤم و الميل إلى الكآبة يقول حكيمنا الشاب :

بين أوجاع أمه دخل المهد

وبين الأوجاع يدخل قبره

إن من جاء مهده مكرها يمضي

إلى لحده غدا وهو مكره

هكذا الزهر يسكب الدمع عند

الفجر مستقبلا سنا أنواره

و اقرأ له هذا ا لمقطع يخاطب فؤاده وتأمل الحكمة الكامنة في البيت الأخير:

يا فؤادي وأنت مني كلي

ليت حكمي يوما عليك يصح

فيك كنز لم تعط إلا قليلا

منه والحسن لا زال يلح

إن جود الفقير بالنزر جود

حيث جود الغني بالوفر شح

والذي لا خلاف فيه بين النقاد أن شاعرنا الشاب قد امتلك ناصية اللغة فلا تجد في شعره ركاكة أو إسفافا أو إخلالا بقواعد اللغة وقواعد الشعر،

وأنى له أن يفعل ذلك وهو سليل بيت تمرس بدراسة اللغة العربية وأتقنها خطابا وتأليفا، وشاعرية فوزي خلاقة لا تتكلف الشعر بل ترى الشعر ينبجس من نفسه بتلقائية تماما كما ينبجس الماء من النبع، وفي شعره حلاوة وطلاوة على الرغم من تضمنه فلسفة حومت حول مرارة الوجود ولوعة الفراق وفجيعة الموت ، وقد عشق الشاعر الطبيعة وحسبه أنه ابن زحلة ملهمة الشعراء والفنانين لجمالها الفتان فاقتبس مفرداته من الطبيعة على عادة الشعراء الرومنطيقية إمعانا في الاندغام في الطبيعة والحلول فيها ولو عاش الشاعر طويلا لأمتعنا بالشعر الحي السلس ولو أمهله القدر حتى الأربعينات لركب موجة شعر التفعيلة ، ذلك أن نفسه كانت بركانا مفطورة على الثورة والتمرد والتعلق بالحرية والبحث عن المعنى

واطراح القشور حرصا على اللباب ، ولربما كان شعر التفعيلة الذي لو عاش له ومارسه أجود وأمتع من الشعر العمودي الذي تركه ميراثا أدبيا لنا ومن يدري لربما كان في شعره الحديث في مستوى كبار الشعر الحديث ورواده كالسياب ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور .

مي زيادة وصالونها الأدبي [1]

لقد وجدت دعوة الإمام محمد عبده وتلميذه قاسم أمين وغيرهما من المصلحين آذانا صاغية في المجتمع العربي وهو يدب نحو الرقي ويسعى نحو النهضة في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وفحوى تلك الدعوة أن لا رقي

[1] . مجلة ديوان العرب شباط2007

ولا نهضة بغير إصلاح وضع المرأة التي هي نصف المجتمع وإصلاح وضعها يعني القضاء على عهد الحريم وإتاحة الفرصة لها بأن تتعلم وتنال كامل حقوقها التي أعطاها إياها الشرع والفلسفة الوضعية الإنسانية ، تلك الدعوة المباركة التي صدع بها شعراء العربية الكبار مزكين إياها مباركين مضمونها وعلى رأس الشعراء أمير الشعراء أحمد شوقي :

وإذا النساء نشأن في أمية

رضع الرجال جهالة وخمولا

وحافظ إبراهيم الذي صدع بقصيدته في فضل تربية النساء :

من لي بتربية النساء فإنها

في الشرق علة ذلك الإخفاق ؟

الأم مدرسة إذا أعددتها

أعددت شعبا طيب الأعراق

وهكذا دخلت المرأة قاعات الدرس وأسفرت بعضهن إمعانا في الدفاع عن كرامتهن وتعبيرا عن مساواتهن بالرجل فالمرأة ليست كائنا جنسيا وظيفته إمتاع الرجل وإنجاب الأولاد بل إنسانا حيا فاعلا خلاقا، وليست موضوعا

غزليا يتغنى بالقد المياس والعين النجلاء والخد الأسيل فقط.

وقد أثمرت هذه الدعوة المباركة ثمارا طيبة تجلت في ظهور نساء وقفن ندا للرجل في السياسة والفكر والفن والأدب وكان منهن لبيبة هاشم وملك حفني ناصف وعائشة التيمورية وهدى شعراوي ومي زيادة وصولا إلى مفيدة عبد الرحمن وعائشة عبد الرحمن ونعمات فؤاد وفدوى طوقان ونازك الملائكة وسهير القلماوي وغيرهن.

ولا ريب أن الآنسة مي زيادة كانت أكثرهن شهرة وشغلا للرأي العام وإثارة لطبقة المثقفين ورجال السياسة والأدب ، فقد جمعت بين جمال الروح والجسد في تناغم عجيب، وألمت بالثقافة العربية والغربية إلماما مدهشا. كما أتقنت اللغات الأجنبية وفضلا عن ذلك كان جمالها الروحي والجسدي مغريا للأدباء بحبها والتعلق بها وقد اشتهر بحبها مصطفى

صادق الرافعي وعباس محمود العقاد وجبران خليل جبران الذي عرفها عن بعد وهو في المهجر الأمريكي واقتصرت العلاقة بينهما على تبادل الرسائل ، ولا شك أن صالونها الأدبي الذي كان يجتمع فيه كبار مثقفي العصر، زادها شهرة وتقديرا فالصالون الأدبي فكرة غربية محضة اشتهرت به بعض كاتبات الغرب فضلا عن كتابه وإنشاؤه وترسيخه في المجتمع العربي الخارج لتوه من عصر الظلمات فكرة خلاقة مدهشة تؤكد أن المرأة ليست مجرد وجه جميل ورحم ولود، هذا الصالون الذي أنشأته الآنسة مي زيادة زاد في شهرتها وفي تقدير المجتمع لها , خاصة طبقة المثقفين.

والآنسة مي زيادة هي ماري بنت إلياس زيادة المعروفة بمي لبنانية الأصل من أهل كسروان، أقام والدها في الناصرة بفلسطين حيث ولدت مي عام 1886م وتعلمت في إحدى مدارسها ثم بمدرسة عين طورة بلبنان وأقامت بمصر مع والديها حيث كتبت بمجلة " المحروسة " ثم " الزهور" وأحسنت مع العربية الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية.

مات أبوها ثم أمها فشعرت بمرارة الحياة واستسلمت لكآبة اليأس ، وقد قررت عدم الزواج على الرغم من تعلق الكثيرين بها وقد خطبوا ودها وذابوا شوقا وهياما في حضرتها ولربما صح ما زعمه البعض في أن الآنسة مي أحبت جبران خليل جبران المعروف برومانسيته الجارفة وأفكاره الجريئة وعباراته الرشيقة ونزعة الحرية القارة في حياته وفي فنه و أدبه ، ولكنه كان مقيما بأمريكا واقتصرت علاقته بالآنسة مي على الإعجاب والتقدير المتبادل يبعث إليها برسائله من أمريكا وترد عليه برسائلها إليه من مصر وكانت وفاته عام 1931 صدمة نفسية وجرحا عميقا في روحها زادها تصميما على العزوبية وتفضيل العيش وحيدة بلا زوج تسكن إليه ويسكن إليها ، ولربما توطدت قناعة مي بعدم الزواج نتيجة لمزاج و فلسفة ذاتية تخرج بها عن المألوف ، فإذا كان الزواج

والإنجاب وتبعاته قدر المرأة حتى ليزهدها في الإبداع ويشلها عن الإنتاج الفني والفكري ، فقد ضحت به في سبيل إخلاصها لذاتها وفلسفتها الشخصية ، حتى تعطي المثل والعبرة في كون المرأة تماما كالرجل تقدر على العزوبية وتبعاتها ، فلن تكون ظل الرجل ولا قاصرة تستكمل قصورها بالركون إليه و الارتماء في أحضانه ، وتؤثر الجانب الروحي والإنساني والعقلاني فيها على الجانب الغريزي والجسدي والجنسي ، وفي الرجال من كانت هذه فلسفته فميخائيل نعيمة عميد أدباء المهجر آثر العزوبية والتنسك في" الشخروب " وقال جملته المشهورة " خلقت لأكون أخا للمرأة لا بعلا لها " والآنسة مي معروفة بحساسيتها الشديدة كونها امرأة من جهة ، وفنانة شاعرة من جهة أخرى ، وهذه الحساسية المضاعفة هدت عافيتها الجسدية وتوازنها النفسي خاصة حين تعرضت لأزمات الحياة التي قصمت ظهرها

بدءا بوفاة والديها ووفاة صديقها جبران خليل جبران ، وازدادت حالة المرض سوءا عليها عام 1936 وانتابها الاضطراب العقلي تبل منه قليلا ثم يعاودها حتى توفيت في مستشفى المعادي ودفنت في القاهرة عام 1941 .

وقد قالت السيدة هدى شعراوي في تأبينها "كانت مي المثل الأعلى للفتاة الشرقية المثقفة " .

وقال فيها شيخ فلاسفة العرب في العصر الحديث مصطفى عبد الرازق " أديبة جيل، كتبت في الجرائد والمجلات، وألفت الكتب والرسائل،

وألقت الخطب والمحاضرات، وجاش صدرها بالشعر أحيانا، وكانت نصيرة ممتازة للأدب تعقد للأدباء في دارها مجلسا أسبوعيا، لا لغو فيه ولا تأثيم ولكن حديث مفيد وسمر حلو وحوار تتبادل فيه الآراء في غير جدل ولا مراء

وللآنسة مي عدة مؤلفات منها " باحثة البادية " و" بين المد والجزر" و"سوانح فتاة " و" كلمات وإشارات " و"ظلمات وأشعة " و"ابتسامات ودموع " ولها ديوان شعر بالفرنسية بعنوان "أزاهير حلم" .

لقد كانت مي زيادة محبة للعروبة ملمة بالأدب العربي وعلومه إلماما أدهش الرواد من أدباء مصر وحبها للعربية وتعلقها بالعروبة دفعها إلى نحت اسم لها عربي خالص من اسم "ماري " هو الذي عرفت به، وإن كان "مية" اسم عربي تردد في شعر النابغة:

يا دار مية بالعلياء فالسند

أقوت وطال عليها سالف الأمد

وكانت مية هي حبيبة الشاعر ذي الرمة, التي تغنى بها في شعره.

وصالون الآنسة مي كان فتحا جديدا في الثقافة العربية وتنويرا للمجتمع وتغييرا من سلوكياته البائدة وأعرافه الرثة خاصة عرف الحريم وإيحاءاته برجعية المرأة واستبداد الرجل .

كان مجلس مي يعقد يوم الثلاثاء وكان يحضره عمالقة الأدب ورواد السياسة ومشاهير العلماء وأعيان البلد كمحمد عبده، ومصطفى عبد الرازق، وأحمد لطفي السيد، وقاسم أمين، وطه حسين، ومصطفى صادق الرافعي ، وخليل مطران وإسماعيل صبري وعباس محمود العقاد وغيرهم .

وهكذا اجتمع أعلام الدين وأقطاب السياسة ورواد النثر وفرسان الشعر في صالون الآنسة مي، وهذا تقدير للمرأة العربية التي استطاعت جمع الرجال من حولها يتناقشون فيما بينهم نقاشا حرا في السياسة والأدب والدين والثقافة العالمية، وكان جمال مي الروحي والجسدي وكلامها الحلو ونبرتها الهادئة، وثقافتها الكبيرة ، كان كل ذلك يضفي على المجلس بهاء ورقيا وإحساسا راقيا بالجمال في أرقى تجلياته، ولم يكن أحد يغيب عن المجلس إلا لظرف قاهر، حتى غيب الموت صاحبة الصالون، تاركة وهج الذكرى وبريق الماضي وأصالة الفكرة وروعة المغامرة والتحدي والخروج عن الرتابة المملة والمألوف المقرف.

ولصالون مي في شعرنا الحديث حضور، فقد ذكره الشعراء في أشعارهم والكتاب في مقالاتهم، وكان الشاعر إسماعيل صبري يقول عن صالون مي يوم الثلاثاء :

روحي على بعض دور الحي حائمة

كظامئ الطير تواقا إلى الماء

إن لم أمتع بمي ناظري غدا

لا كان صبحك يا يوم الثلاثاء !

أما الشاعر شفيق المعلوف شقيق شاعر الطيارة فوزي المعلوف فقد قال عن الآنسة مي :

بنت الجبال ربيبة الهرم

هيهات يجهل اسمها حي

لم نلق سحرا سال من قلم

إلا هتفنا هذه مي

وقد كان رحيل مي وانفضاض مجلسها وغياب نبرتها الموسيقية وملامحها الهادئة الرشيقة، وكلماتها العذبة المليئة بالأفكار الخلاقة والمعاني البكر، كان ذلك حدثا مؤلما لشاعر القطرين خليل مطران الذي أقضته الذكرى، وأبكته حسرة الرحيل ومرارة الفراق وغياب اللحظات الجميلة وهو الشاعر المرهف الحس الرقيق الكلمة، الرحب الخيال ، الصادق القول فقد قال في رحيل مي :

أقفر البيت أين ناديك يا مي

إليه الوفود يختلفونا ؟

في مجال السبق آل إليك السبق

في المنشئات والمنشئينا

نعمة ما سخا بها الدهر حتى

آب كالعهد سالبا وضنينا

أيهذا الثرى ظفرت بحسن

كان بالطهر والعفاف مصونا

لهف نفسي عل حجى عبقري

كان ذخرا فصار كنزا دفينا

وما أوجع الحزن، وما أشد الغصة، غصة الرحيل التي فعلت فعلها في نفس الشاعر كما يوحي بها البيتان الأخيران.

لقد كانت الآنسة مي بأدبها وبثقافتها، وبجمالها الروحي والجسدي رمزا للمرأة العربية الطامحة إلى عصر غير عصر الحريم، وإلى شعر لا يكتفي منها بوصف النهود والأرداف والخدود، بل يشيد بعبقريتها وإنسانيتها وعطائها وإنتاجها العلمي والأدبي .

ولقد كان صالونها حدثا فريدا في تاريخ المجتمع العربي، وإن كانت له سوابق في تراثنا فالسيدة سكينة بنت الحسين وهي شاعرة وناقدة كانت تستقبل الشعراء في بيتها وتكلمهم ولكن من وراء حجاب، وحدث مرة أن استمعت إلى راوية جرير ينشدها :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا

حين الزيارة فارجعي بسلام

فقالت له قبح الله صاحبك وقبح شعره أما كان أحلى لو قال:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا

حين الزيارة فادخلي بسلام

غير أن مجلس الآنسة مي يختلف عن مجلس السيدة سكينة فقد كانت مي مجتمعة بالرجال مسفرة كالبدر، ومن حولها أقطاب السياسة وأعلام الأدب وأعيان البلد تناقشهم وتدلي بآرائها التي بهرت الجميع، وكان يوم الثلاثاء من كل أسبوع عيد الأدباء والمفكرين والعشاق يتأنقون ويتعطرون ويخفون إلى المجلس بهمة ووجد وهيام عجيب وكلهم يريد أن يكون فارس الندوة ورائد المجلس لعله يحظى بقلب مي وحبها فيجمع بين الثقافة في أرقى تجلياتها والجمال في أكمل صوره .

نزعة الحرية عند شعراء العراق المحدثين [1]

لا يفوت قارئ الشعر الحديث في العراق أن يلاحظ ملاحظة هي غاية في الأهمية، تلك الظاهرة التي تستفزه وتثير انتباهه حتى وإن تغافل عنها هو ،ألا وهي النزوع إلى الحرية وإباء الضيم والثورة على الواقع المتردي وعلى نمط الفكر والحياة، إنها نفوس رهيفة الحس، تنفجر منها براكين تململ وتمرد فتسيل حممها من كل بيت ومن كل سطر حتى لتهدد تلك الحمم بأن تحرق القارئ وتكلفه من الأمر عنتا.

وفي ميل العراقيين إلى التمرد وإبائهم الجور ونزوعهم إلى الحرية سبب قوي حتم ذلك يعود إلى تاريخ البلاد الذي أبى في ماضيه العريق الضيم منذ عهد البابليين وصراعهم ضد الفارسيين ثم العبرانيين وصولا إلى الإسلام وما لاقاه الإمام علي من تمرد لأسباب سياسية انتهت به مقتولا في الكوفة ثم تمرد العراقيين على دولة بني أمية وإشعالهم فتن الثورة هنا وهناك لولا حزم الحجاج وعزمه على إخماد تلك الفتن بحد السيف وأنهار الدم التي سفكت وقد حدثنا عنها التاريخ بإسهاب كبير.

---

[1] . مجلة ديوان العرب 2007.

ولا تختلف قصة العراق الحديث عن العراق القديم فالبلد الذي أسماه أسلافنا

" أرض السواد" على سبيل الكناية عن كثرة نخيله وكثرة رزقه كان لا يعرف الاستقرار فمن اضطراب إلى آخر ومن ثورة إلى أخرى ، سواء أكان البلد ملكيا أم جمهوريا، وقد انتهت الملكية ذاتها بنهر من الدم وأعلنت الجمهورية لتزداد الانقلابات والاضطرابات السياسية ومن اغتيال سياسي إلى آخر ومن فتنة إلى أخرى ولا يزال شأن العراق ذلك إلى اليوم .

والعراقيون على اختلاف نحلهم وأطيافهم السياسية يمقتون الضيم و يأبون الخسف ويثورون على الجور وينزعون إلى الحرية في الفكر والحياة، وقد شاء حظهم

التعس أن ينكبوا بالمتسلطين في الحكم وكأن قدرهم هو الهيمنة عليهم سواء من

بني جلدتهم أو من الأجانب ولا يتخلصون من عدو بالدم والنار إلا نكبوا بآخر ولعل هذا ما عناه الشاعر محمد مهدي الجواهري :

ولقد رأى المستعمرون منا فرائسا

ورأوا كلب صيد سائبا

فتعهدوه فراح طوع بنانهم

يبرون أنيابا له و مخالبا

أعرفت مملكة يباح شهيدها

للخائنين الخادمين أجانبا ؟

مستأجرين يخربون ديارهم

ويكافأون على الخراب رواتبا !

ولعل نزعة التمرد ونقمة الثورة أظهر ما تكون في هذا الشاعر بالذات الذي ذاق مرارة التشريد وألم المنافي غير أن هذا كله لم يثنه عن النضال في سبيل حريته وحرية شعبه ألم يقل الجواهري منددا بسكوت الشعب منكرا عليه عبوديته ؟:

لم يعرفوا لون السماء

لفرط ما انحنت الرقاب

ولفرط ماديست رؤوسهم

كما ديس التراب

وفي مطولته " تنويمه الجياع " صب جام غضبه على الرعية الساكتة على جبروت الحاكم المستسلمة لظلمه المفرطة في حريتها وكرامتها وفي هذه القصيدة نزع الشاعر منزع السخرية تنفيسا عن غيظه وبلسمة لجرحه العميق :

نامي جياع الشعب نامي

حرستك آلهة الطعام

نامي فجدران السجون

تعج بالموت الزؤام

نامي على جوركما

وقع الحسام على الحسام

أعطي القيادة للقضاء

وحكميه في الزمام

واستسلمي للحادثات

المشفقات على النيام

وأما شعراء التفعيلة ورواد الشعر الحديث فقد تبنوا خطا عروبيا ومسارا قوميا نزعوا فيه إلى حرية بلدهم وحرية الوطن العربي وثورته على الاستعمار الأوروبي الذي اقتسم البلاد العربية ونهب خيراتها وتفرق أبناء الوطن– شذر مذر– أو ذهبوا – أيدي سبأ – وقد التزم هؤلاء الشعراء بقضية الحرية وتحديدا الحرية السياسية وأشهر شعراء العراق في هذا المضمار نازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب .

ولنازك الملائكة قصيدة " الشهيد " وهي من أجود شعرها تحي فيها روح البسالة في الشهيد والثبات على المبدأ والإصرارعلى الكرامة إنها هبة الدم الزكي في سبيل حرية الوطن و عزة أبنائه :

حسبوا الإعصار يلوى

إن تحاموه بستر أو جدرا

و رأوا أن يطفئوا ضوء النهار

غير أن المجد أقوى

ومن القبر المعطر

لم يزل منبعثا صوت الشهيد

طيفه أثبت من جيش عنيد

جاثم لا يتقهقر

وقد اشتهر السياب بقصائده المؤيدة للثورة الجزائرية لأنها ثورة عربية في الأساس بل ثورة إنسانية، وكان البياتي كالسياب في نصرة قضايا الحرية ليس في العراق وحده بل في العالمين العربي والأعجمي ، وقصيدته عن "جميلة بوحيرد" مشهورة، وتنديده بالعدوان الثلاثي على مصر موقف شهم وإنساني وقومي مأثور.أما السياب فيقول في قصيدة " المغرب العربي " مباركا الثورة على الاستبداد والظلم:

وكان يطوف من جدي

مع المد

هتاف يملأ الشطآن يا وديانا ثوري

أيا إرث الجماهير

تشظ الآن واسحق هذه الأغلال

وكالزلزال

تحد النير أو فا سحقه واسحقنا مع النير.

وأما البياتي فيقول في العدوان الثلاثي على مصر(البريطاني ،الإسرائيلي، الفرنسي) :

على جبين الشمس بورسعيد

مدينة شامخة الأسوار

شامخة كالنار كالإعصار

في أوجه اللصوص

لصوص أروبا من التجار، من مجرمي الحروب

وشاربي الدماء

وأما الحرية الفكرية فلشعراء العراق قصب السبق في المطالبة بها، فلقد نعوا على الإنسان جموده وتقليده كما نددوا بالقهر الفكري ولعل الشاعر جميل صدقي الزهاوي خير من يمثل هذا الاتجاه وما نزع الشاعر إلى العلم إلا فرارا من الجهل وبعدا عن الخرافة وتشفيا في أمس عقيم سيطر فيه الجهل وحكم فيه الدجل وأظهر ما تظهر فيه هذه النزعة في مطولته "ثورة في الجحيم" وهي مطولة تنحاز إلى الفكر الحر وتثور على ثقافة العامة وتنعى عليهم الاستسلام والخنوع، وإذا كان الفكر الحر ينتهي بصاحبه إلى الخروج على السائد والمألوف ويجعل منه مضغة في الأفواه ويرمي في دينه وعقله وعرضه، بل ربما يدفع حياته ثمنا لإصراره على حرية فكره حتى ينتهي به الأمر إلى الجحيم ، فترى الشاعر يرحب بهذا

المصير مادام في صحبة سقراط وديكارت ونيوتن وهوغو ولامارتين وأبي نواس وكل أفذاذ الإنسانية وأنصار الفكر الحر ، وما ترجمة الزهاوي " لرباعيات الخيام" إلا تأكيد على مبدأ الحرية الفكرية وقد كان الخيام من أكبر أنصارها وفي الرباعيات مقاطع تنتصر لهذا المبدأ على الرغم من تبعاته النفسية والاجتماعية والفكرية.

ولقد دافع الزهاوي عن العقل في شعره دفاعا مستميتا على الرغم من وصمه بالزندقة والمروق عن الدين وما لاقاه من مضايقات العامة وعنتهم وأنصار الثقافة الرسمية إلى الحد الذي جعل شعره خاليا من الدفق العاطفي والحرارة الوجدانية وهو ما أخذه عليه نقاد الشعر، وتحيزه للعقل وللفكر الحر واضح جلي يعبر عنه هذان البيتان :

غير أني أرتاب من كل ما قد

عجز العقل عنه والتفكير

لم يكن في الكتاب من خطأ

كلا ولكن قد أخطأ التفسير

والشاعر معروف الرصافي كان في شعره كما كان في حياته مثلا للاستبسال في الدفاع عن الحرية ضد القهر السياسي والفكري وقد أعطى بحياته المستقيمة وخصاصته المثل للمثقف الذي يأبى أن يبتذل عرضه لقاء أي عرض من أعراض الدنيا وهو القائل:

كتبت لنفسي عهد تحريرها شعرا

وأشهدت فيما كتبت لها الدهرا

ومن بعد إتمامي كتابة عهدها

جعلت الثريا فوق عنوانه طغرا

وعلقته كيلا تناله يد

بمنبعث الأنوار من ذروة الشعرى

وقد خاطب الحرية أجمل خطاب:

أحريتي إنني اتخذتك قبلة

أوجه وجهي كل يوم لها عشرا

وأمسك الركن مستسلما

وفي ركنها استبدلت بالحجر الحجرا

إذا كنت في قفر تخذتك مؤنسا

وإن كنت في ليل جعلتك لي بدرا

وإن لامني خطب ضممتك لائما

فقبلت منك الصدر والنحر والثغرا

وإن لامني قوم عليك فإنني

لملتمس للقوم من جهلهم عذرا

واقرأ هذه الأبيات وقدر ما في نفس الشاعر من غضب ، إنها صرخة في وجه الاستبداد الذي عاث في البلد فسادا ودجن الناس ونهب أرزاقهم وكمم أفواههم ولقد حالت الكلمات هنا حمما نارية تسفع الجلود وتلهب النفوس وتحرض الناس على الثورة لقاء حريتهم المهضومة:

أما أسد يحمي البلاد غضنفر

فقد عاث فيها بالمظالم سيدها ؟

عجبت لقوم يخضعون لدولة

يسوسهم بالموبقات عميدها

وأعجب من ذا أنهم يرهبونها

وأموالهم منها ومنهم جنودها !

ولقد جر التحمس للعقل والإيمان بالفكر الحر الشاعر أحمد الصافي النجفي إلى الإقبال على كل فكر والاغتراف من كل نبع والأكل من كل مائدة فكرية ذلك أن القهر الفكري الذي عاناه أسلافه والسياج الدوغمائي الذي أجبروا على الإقامة داخله قرونا قد عفن نفوسهم وأصاب بالبلى عقولهم وبالصدأ قلوبهم فليتشف الشاعر من ذلك القهر بالإقبال على الأفكار الجديدة والعقائد الوافدة يحتضنها وينزلها من نفسه منزلة الحقائق حتى إذا شك عقله فيها اطرحها وطلب غيرها

وكأنه نحلة حوامة تطير من روض إلى روض وتشرب الرحيق من كل زهرة ولو أدى ذلك إلى عذاب الشك وجحيم التناقض ولكن لا بأس فالحرية أغلى مكسب :

تناقضت الأفكار عندي كأنما

أنا جمع أشخاص وما أنا واحد

أرى كل فكر حل عقلي بوقته

صحيحا وفكر وقته مر فاسد

فكم ذرة تفنى وتولد ذرة

بجسمي كما تحيا وتفنى العقائد

فلي كل حين مأتم وولادة

وشخصي مولود وشخصي والد

ولا نعجب إذا رأينا شاعرا كبيرا بحجم بدر شاكر السياب يتبنى الشيوعية مسفها أحيانا الأديان ثائرا في وجه الحاكم ، ناقما على الظروف قهرها وجبرها ، فقد كانت تلك الثورة بحثا عن الحرية في الأساس ، فالفقر والخصاصة قيدان يغلان

الإنسان ويرهنان حريته وربما اضطراه إلى ابتذال كرامته وشرفه لقاء لقمة يتبلغ بها ، لقد كانت يساريتة كما كانت يسارية غيره المتطرفة ثأرا من الظروف وتنديدا بهذا القهر التاريخي الذي يحد من الحرية بل يشظيها ، حتى إذا اكتشف الشاعر أن الشيوعية ذاتها لا تخلو من عيوب وأنها قهر آخر يمارسه الحزب عبر قادته و أمنائه ، طلقها الشاعر إيثارا لمرونته الفكرية وتعطشه للحرية الإنسانية التي ظل يحلم بها و يبحث عنها كما ظل" أورفيوس" يبحث عن زوجته في عالم الموتى .

وليس أدل على نزوع شعراء العراق منزع الحرية وإيثار المرونة الفكرية وحرية المناورة من إحداثهم تلك الثورة في الشعر الحديث فقد ظل الشعر إلى الأربعينات من القرن الماضي شعرا كلاسيكيا في ملمحه العام يسير على طريقة القدماء ويسلك طريق المتنبي وأبي تمام والبحتري في توخي الألفاظ الفخمة والمدوية

واقتناص الحكم والتشبيهات البديعة والاستعارات غير المسبوقة، ذلك ما عهدناه في شعر البارودي وشوقي وحافظ ، غير أن شعراء العراق واستجابة لنداء المغامرة ودعوة الحرية في أنفسهم وهي دعوة فطرية كامنة فيها ، ضاربة بجذورها في غور التاريخ و بتأثير من الثقافة الغربية التي تشجع على الحرية وتعضدها خالفوا المسلك المألوف وتبنوا شعرا جديدا يستجيب لروح العصر وثقافته وسواء أذهبنا مذهب من يضع السياب رائدا لهذا الشعر بعد صدور قصيدته " هل كان حبا " أو ذهبنا مذهب من يقدم عليه نازك الملائكة بصدور قصيدتها " الكوليرا " فكلا الشاعرين من العراق يؤكدان ما زعمنا أن التمرد والثورة كامنتان في أنفسهم وهو نفس النهج الذي سار فيه شعراء العراق الآخرون كعبد الوهاب البياتي ثم مظفر النواب من بعده .

وهي الحركة الشعرية التي أتت أكلها فتجدد وجه شعرنا ليصبح شابا طافحا بالقوة والمناعة مستجيبا لروح العصر وفلسفته متخليا عن طرائق الماضي وأشكاله التعبيرية شكلا ومضمونا وكانت تلك الثورة المستجيبة لنداء عميق في النفس العراقية هو نداء الحرية سببا قويا في استجابة شعراء العالم العربي لهذه الحركة فما هي إلا سنوات قلائل حتى صار شعر التفعيلة حدثا فكريا وفنيا وجماليا مشمخر الصروح وطيد الأركان ، غالبا على أمره ، له شعراؤه الكبار في العالم العربي كمحمود درويش و سميح القاسم و أمل نقل و صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي وأدونيس ونزار قباني وغيرهم .

وإنه ليحز في النفس ما آل إليه العراق اليوم عراق البابليين وحدائقهم المعلقة وعراق الرشيد والأمين والمأمون، ودار الحكمة ، وعراق " أرض السواد" وعراق الرافدين ، وكان بود كل عربي أن يظل العراق في طليعة البلدان العربية حركة فكرية وشعرية وعلمية واصلا الحاضر الزاهر بالماضي التليد لولا نكد السياسة وتآمر المطامع الإمبريالية على حاضر ومستقبل هذا البلد التي نأمل لها أن تقبر في هذا البلد الكريم ، بفضل وحدة ووعي ونضال الشعب العراقي الذي سيعيد وجه دار السلام الخالد الخلاق والمتألق كما عهدناه بالأمس القريب والبعيد.

عراف البراري أو:الصورة السلبية للمثقف في الشعر الحديث [1]

لا نريد أن نخوض في المسؤولية الأخلاقية الملقاة على عاتق المثقف في بلده فهي مسؤولية مجمع الاتفاق بشأنها خاصة إذا كانت الشعوب متخلفة وفي مرحلة المنعطفات الكبرى، ذلك ما أسماه فيلسوف الوجودية الكبير جون بول سارتر بالالتزام أي التزام المثقف بقضايا شعبه وبالدفاع عن حريته وكرامته ولو اقتضى الأمر معارضة النظام السياسي القائم، وذلك ما حدث له بالضبط حين تظاهر مع المعارضين في حرب فرنسا في الجزائر وأصدر من أجل ذلك كتابا بعنوان" عارنا في الجزائر" ، والتزام المثقف بقضايا أمته ونزاهة فعله وصدق قوله ليست بالقضايا المستحدثة في تاريخ الأمة العربية، فأبو حيان التوحيدي وهو من كبار الأدباء ومن مؤسسي النزعة الإنسانية في الفكر العربي أخذ على الوزيرين "الصاحب بن عباد" و"ابن العميد" مآخذ سجلها في كتابه "مثالب الوزيرين" فقد أخذ عليهما العيش الرغيد في قصور مترفة وقصر الثقافة على جمع لفيف من الفلاسفة والمناطقة وعلماء البيان والكلام والشعراء والنثار والتطرق في كل ليلة إلى موضوع من موضوعات الفلسفة أو الأدب أو الدين، في حين تعيش الرعية في الخارج في ظلام وتخبط في تيه عماء. وهو موقف للتوحيدي يجعله في قمة رواد المذهب الإنساني الذي عرف به كبار مفكري أروبا.

[1] . مجلة ديوان العرب 2007

ونحن في مقالنا هذا راصدون لخيبة المثقف العربي وردته وفي تخليه عن مهمته الرئيسية في تنوير الرعية في عصر عادت فيه الشعوب العربية إلى السبات بالحنين إلى الماضي ومحاولة إحيائه وبغلبة الفكر الفقهي على الفكر العلمي ، وشيوع الدجل والشعوذة والبهلوانية الخطابية على التحليل العلمي ، أضف إلى

ذلك الهم السياسي المتمثل في استبداد الحاكم وحاشيته وغياب الحريات والضوابط الأخلاقية والسياسية، وقد كان رهين المحبسين أكثر جرأة من كتابنا ومثقفينا وهو المتوحد في داره حين

قال :

يسوسون الأمور بغير عقل

فينفذ أمرهم ويقال ساسه

فأفّ من الحياة وأف مني

زمن صارت رئاسته خساسه

أما مثقفنا في العصر الحديث الذي كان ينتظر منه أن يكون مسيحا يحمل صليبه إلى ذروة الجلجلة، أو صرخة مدوية في أذن الزمان تجد صداها في عقول الناس وقلوبهم،فتغير ما بأنفسهم وهكذا ندخل عصر الأنوار ونودع حياة الكهوف ونلغي ثقافة المتون ونستأصل الدجل والشعوذة من جذورهما بانتصار الفكر العلمي الصحيح ، وسيادة الحياة السياسية السليمة فيجني المجتمع ثمار ذلك حياة اجتماعية عادلة ورخاء اقتصاديا وإبداعا علميا وأدبيا وفنيا وحضاريا يدخلنا في ركاب الحضارة كغيرنا من الأمم بعد أن خرجنا من السباق قرونا طويلة واكتفينا باستهلاك نفايات الصناعة الغربية من الناحية المادية ، واستهلاك رطانات الماضي من الناحية العلميةوالمعنوية.

●وصورة المثقف في عصرنا الحديث لا تخرج عن ثلاثة أطر : مثقف هو أشبه بعراف البراري كان كلامه أشبه ما يكون بالأحاجي والألغاز وقد أخذ بنصيحة ابن باجة في" تدبير المتوحد" فطلق المجتمع والزمان وانزوى في كهفه. ومثقف لزم التقية وأخذ بالحيطة وأتقن الرياء الماكر دفعا للضرر واستجلابا للعافية والسلامة .

ومثقف غلبته نفسه الشهوانية فاتخذ من الثقافة مطية إلى قصر الحاكم ومن ثقافته وعلمه تسابيح يرددها على مسامع البلاط آناء الليل وأطراف النهار لعله يرضى ، فيملأ الحاكم فمه ذهبا وصدره نياشين ، ويدعوه إلى الولائم لأنه رمز الثقافة في البلد .

ويستثنى من ذلك كله القليل القليل الذي عاش فكرة أبي حيان عقلا ووجدانا وكان صرخة مدوية في ضمير الزمان وموقفا أبيا في لحظات التاريخ الحاسمة.

وفي قصيدة عبد الوهاب البياتي " مهرج الملك" صورة فنية للمثقف من الطراز الثالث وهو المثقف الذي غلبته نفسه الشهوانية فاتخذ العلم مطية لإشباع الغرائز يقول البياتي عن هذا الطراز من المثقفين :

يداعب الأوتار

يمشي فوق حد السيف والدخان

يرقص فوق الحبل

ينثني مغنيا سكران

يقلد السعدان

يركب فوق متنه الأطفال في البستان

يخرج للشمس إذا مدت إليه يدها اللسان

يكلم النجوم والأموات

ينام في الساحات

فهي صورة لمثقف درويش يكلم النجوم والأموات وينام في الساحات ، أو صورة لمثقف بهلوان يجيد تلفيق الكلام وإجادة الرياء ودلالتها هنا قول البياتي :

يمشي فوق حد السيف والدخان

يرقص فوق الحبل، يأكل الزجاج .

وهي في النهاية صورة هزلية لمثقف مستعد لكل شيء حاضر لإجادة كل شيء في سبيل مرضاة الحاكم وبطانته:

يركب فوق متنه الأطفال في البستان

وهو في النهاية مصاب بالعته وبالبله مهما نال من مرضاة الحاكم ومهما أعطته الدنيا من متاع ورياش ومهما وصل إليه من دوي زائف أو شهرة كفقاقيع الصابون، وهل أشد من بلهه إخراجه اللسان للشمس وهي رمز الحرية والنور والعطاء ؟

يخرج للشمس إذا مدت إليه يدها اللسان

وهذا النوع من المثقفين هو الذي أشار إليه الشاعر اللبناني الكبير خليل خاوي ، وتقريبا تأتي الدلالات متطابقة فنيا وفكريا مع دلالات نص " مهرج الملك" للبياتي

يقول خليل حاوي :

أراك تستحيل لساحر يموه الأشياء في العيون

مهرج حزين

في مسرح الغجر

يروض الأفعى ويمشي حافيا

يمشي على الجمر ، على الإبر

يعجن في أسنانه الزجاج والحجر يضم في كفيه وهج الشمس والظلال

ينسج منها هالة وشال

حورية تهبط من أكمامه الطوال .

فهي صورة اختلط فيها الهزل بالجد والضحك بالبكاء إنه مثقف في شكل فقيه مستعد لإخراج فتاوى ترضي الحاكم أو خطيب مقوال أو شاعر بليغ يدبج القصائد ويبدع الأمثال لتخرج آية الزمان ، إنها القدرة على التمويه كما يقول خليل حاوي ، والقدرة على تجاوز وخز الضمير وعذاب النفس :

يمشي على الجمر على الإبر

وما أكثر ما خدعنا في حياتنا الثقافية بهذا النوع من المثقفين الذين زادوا في سبات الأمة ومدوا في عمر جبروت الحاكم، وفي ردة الجماهير إلى حياة الكهوف واجترار الماضي.

وأما الصورة الثانية للمثقف فهي صورة مثقف أكاديمي تخرج من جامعات الشرق أوالغرب وتخصص في حقل من حقول المعرفة ، اتخذ من شهادته العليا مصدر استرزاق ولذا فلا علاقة له بالخارج –خارج الحرم الجامعي – وهو أشبه ما يكون بعراف البراري كلامه طلاسم ومصطلحات ، وزادته الشهادة وربما الحياة الحرة التي عاشها في الغرب عقدة نفسية تستلزم محللا نفسيا ، إنها عقدة الاستعلاء والنظر إلى الناس من قمة جبل الأولمب أو من البرج العاجي – وأعتذر لأستاذنا الكبير توفيق الحكيم في رقدته الأبدية على استخدام هذه الكلمة – البرج العاجي– فالحكيم لم يطلق الزمان والمكان وهو صاحب عودة الروح ويوميات نائب في الأرياف وعودة الوعي ...الخ .

إنما أستاذنا الجامعي لم يعرف بمساهمة علمية تنير البصائر ولا عمل يزلزل به العقول والقلوب ولا رفض يدوي به في سمع الزمان وضميره، ويتعلل لذلك بحمق الناس وغباء الشعب واستبداد السلطان، وحاجة في النفس ما إن لها ثمن هي غريزة البقاء والاستمتاع بطيبات الحياة ومفاتن الدنيا وشعاره مع طلبته " بضاعتنا ترد إلينا " ولذا تحولت جامعاتنا إلى محاضن أو مداجن أو آلات رهيبة لتعليب المشاعر والأفكار ليكون المتخرج على المقاس في الخنوع وفي الولوع باللامعقول والجري وراء السراب ، أو قل ما قاله أحد مفكرينا ولا يحضرنا اسمه عن الجامعات العربية إنها محتشدات ، وكان الأجدر أن تكون الجامعة بوصلة المجتمع باتجاه الرقي والمدنية ، وأن تؤثر في المجتمع . لكن المضحك– وكما يقول شاعرنا وشر البلية ما يضحك– أن المجتمع بغوغائه ودهمائه هو الذي يؤثر في الجامعة ويجعلها على مقاسه !

أما الصورة الثالثة فهي صورة المثقف الذي أصابه اليأس ودب الوهن في قلبه وسكن الخمول خلاياه فأصيب بخدر واليأس على حد قول بعضهم راحة ، لا أثر للمغالبة في روحه ولا للكفاح في حياته، تسلل الخوف إلى وجدانه إلى درجة الفوبيا من التغيير والانقلاب الجذري والوثبة الحضارية الخلاقة، ولهذا المثقف الطلائعي شكلا الرجعي مضمونا الساكن سكون الحجر صورة في قصيدة الظل والصليب لصلاح عبد الصبور ، وهي من أجمل قصائد الشعر الحديث ، لا تنتهي دلالاتها ولا مضامينها الفنية والفكرية إنها بورتريه الوجدان العربي،وفي هذا المقام يحضرنا هذا المقطع وهو يرسم صورة لهذا النوع من المثقفين:

ملاحنا هوى إلى قاع السفين واستكان

وجاش بالبكاء بلا دمع بلا لسان

ملاحنا مات قبيل الموت

حين ودع الأصحاب والأحباب والزمان والمكان

عادت إلى قمقمها حياته، وانكمشت أعضاؤه ومال

ومد جسمه على خط الزوال.

فهذا الطليعي هوى إلى القاع دلالة على النكوص والردة والقاع دلالة على التردي في هاوية الماضي وغور التاريخ وهو لا يملك حتى الدمع لأن الدمع رديف الوجدان وصنو الإنسانية وهو مجرد منهما وكذا اللسان رمز الفعل بالقول في تحريك مسار التاريخ وهو خلو منه.

لقد خرج من التاريخ حين أبى في صلف أو حمق أن يعيش عصره وتمدد على خط الزوال ، وعبد الصبور يبدع هنا إبداعا غير مسبوق في قوله " خط الزوال" فالمعلوم أن خط الزوال يمثل بداية السقوط والانحدار والتردي ويواصل صلاح عبد الصبور رسم صورة هذا المثقف والقائد الطلائعي :

ملاحنا أسلم سؤر الروح قبل أن نلامس الجبل

وطار قلبه من الوجل

كان سليم الجسم ،دون جرح دون خدش دون دم

حين هوت حبالنا بجسمه الضئيل نحو القاع

ولم يعش لينتصر

ولم يعش لينهزم

وفي هذا المقطع الأخير تأتي دلالة الجبل الموحية بالنهضة والصعود والرقي ، ولكن ملاحنا مات قبل معانقة الفعل الحضاري والوثبة التاريخية ولابد أن نشير إلى أن الملاح قال قبل هذا المقطع في إشارة إلى الجبل :

هذي جبال الملح والقصدير

وهو تمويه يوحي بالزهد في مغالبة الحياة ومعانقة أسرارها وترويضها والاستمتاع بطيبات الحضارة وتجد هذه المعاني كلها دلالتها في كلمتي " الملح " و"القصدير" وهما رمز التفاهة والقيمة البخسة.

لقد مات هذا القائد الطلائعي حتف الأنف من غير جراح ولا دماء ومن غير قراع ومغالبة خطوب الحياة ومن غير انهزام لأنه لم يصارع أصلا فهو الاستسلام للواقع الرديء والتكيف مع رداءته

والعيش في أحضانه بل وتزويق هذه الرداءة والادعاء بأنها أصالة ومدنية وتنخدع العامة بهذا القول مواصلة تمددها على خط الزوال .

الفهرس

- إهداء 02
- توطئة 03
- جمانة حداد وأنطولوجيا الشعراء المحدثين 06
- طه حسين ورسالة التنوير العربي 11
- ابن الرومي باكيا 19
- أبوالعلاء المعري فلكيا 30
- أغار على شمسي أو الحنين إلى الأوطان في شعر المهجريين 37
- الجواهري شاعر الرفض والإباء 49
- الرفض في الشعر الحديث 57
- المعاناة الخالدة أو الإبداع في حضرة الألم 69
- النزعة الإنسانية في الأدب المهجري 76
- النهر الخالد تأملات في شعر ميخائيل نعيمة 94
- بشارة الخوري نشوة الفرح وحسرة الزوال 101
- بيدي لا بيدك عمرو ظاهرة الانتحار في أدبنا 109
- بين ضفتين الإحساس بالرحيل المبكر عند الشابي والسياب 115

- تأملات في عالم حنا مينة الروائي 124
- رباعيات الخيام نشوة الفرح وحسرة الزوال 130
- رومنطيقية القلب الحزين الوصف عند خليل مطران 143
- زكي نجيب محمود وإخفاقات النهضة العربية 153
- زمن السأم تأملات في قصيدة الظل والصليب لصلاح عبد الصبور 158
- شاعر الجلال عباس محمود العقاد 170
- شعرنا بين مد التجديد وجزر التقليد 180
- قدموس ثائرا أو جبران ونزعة التمرد 185
- ملاك لبنان الحزين فوزي المعلوف 193
- مي زيادة وصالونها الأدبي 201
- نزعة الحرية عند شعراء العراق المحدثين 208
- عراف البراري أو الصورة السلبية للمثقف في الشعر الحديث 217

More Books!

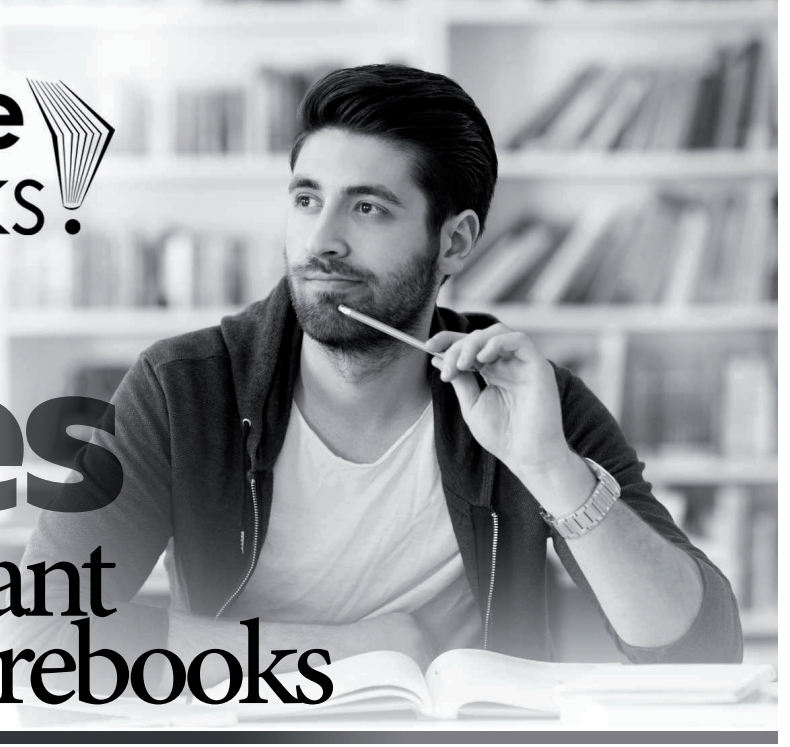

Yes
I want
morebooks

اشتري كتبك سريعا و مباشرة من الأنترنيت, على أسرع متاجر الكتب الالكترونية في العالم
بفضل تقنية الطباعة عند الطلب, فكتبنا صديقة للبيئة

اشتري كتبك على الأنترنيت

www.get-morebooks.com

Kaufen Sie Ihre Bücher schnell und unkompliziert online – auf einer der am schnellsten wachsenden Buchhandelsplattformen weltweit!
Dank Print-On-Demand umwelt- und ressourcenschonend produziert.

Bücher schneller online kaufen
www.morebooks.de

OmniScriptum Marketing DEU GmbH
Bahnhofstr. 28
D - 66111 Saarbrücken
Telefax: +49 681 93 81 567-9

info@omniscriptum.com
www.omniscriptum.com

OMNIScriptum